عوامل الانتشار والتمكين للمذهب المالكي في الأندلس

أ/ طاهر بن علي
جامعة غرداية

شكّل انتشار المذهب المالكي في الأندلس إشكالا في الدراسات التاريخية والاجتماعية، التي حاولت بتمثّلات منهجية ومعرفية استبانة العوامل التي دفعت الأندلسيين إلى اعتناق المذهب المالكي بعدما كانوا على مذهب الأوزاعي.

ولّما كانت الدراسات الحديثة تترع إلى تحليل ابستمولوجي دقيق يبحث في حيثيات الحدث بكلّ المؤثّرات التي كوّنته، وفي التطوّرات التي أنتجته، وتنأى عن الوصفية التي لا تبحث فيما وراء الحدث من أسباب وتفاعلات، قامت البحوث لتجلّي بالمناهج المختلفة هذا التحوّل المذهبي الذي كانت له نتائجه الثقافية، والاجتماعية، والسياسية.

وكان للباحث اهتمام بهذا الموضوع، وتكوّنت له رؤية بحثية، فتتبّع الحدث في أصول تكوينه، الثقافية، والحضارية، وفي مراحل تطوّره، المذهبي، والاجتماعي، ليصل إلى نتائج انتظمت مقالا علميا يدفع إلى النظر، ويحدث التراكم.

- أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي بتأثير الفاتحين:

كان أهل الأندلس في أوّل أمرهم على مذهب الأوزاعي، الذي كان عليه أهل الشام، متأثّرين في ذلك بالجند الشاميّين الذين فتحوا الأندلس[1]. والتأثير المشرقي في الأندلس عريق حيث يمتدّ إلى بدايات الفتح. وقد أخذ الأندلسيون العلوم الشرعية من المشرق[2]. ورغم اختلاف البيئة بين المشرق والمغرب، إلاّ أنّ قوالب المشرق العلمية كانت أقوى من البيئة الأندلسية[3]، وكما قلّد علماء المشرق الأقدمين منهم، فساروا في نفس طريقهم، قلّد الأندلسيون علماء المشرق فساروا في نفس الطريق[4].

والأوزاعي (ت 157هـ/774م) هو أحد علماء القرن الثاني، روى عن كثير من التابعين، وكان رأسا في العلم، وقيل أنّه أجاب عن سبعين ألف مسألة[5]، ممّا يدلّ على تبحّره وتمكّنه منه. وقيل أنّه تذاكر ومالك مرّة في المدينة من الظهر حتّى صلّيا العصر، ومن العصر حتّى صلّيا

المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه أو في شيء من الفقه[6]. وكان الإمام مالك يرجّحه على أبي حنيفة والثوري[7].

وأوّل من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس، في أحكامه ونصوصه واستدلالاته، صعصعة بن سلاّم(ت 192هـ/808م)، صاحب الصلاة بقرطبة، وتلميذ الأوزاعي. قال فيه صاحب الجذوة: "فقيه من أصحاب الأوزاعي، وهو أوّل من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي"[8]. وقال صاحب البغية: "من أهل مصر...ثمّ صار إلى الأندلس وكتب عنه هناك، و لم يزل بالأندلس... وهو أوّل من أدخل الحديث الأندلس"[9].

– دخول المذهب المالكي:

وظلّت الأندلس تأخذ بمذهب الأوزاعي طيلة عمر الولاة، وزمنا من عصر الإمارة حتّى عصر الحكم بن هشام(ت 206 هـ/822م)، وقيل في عصر أبيه هشام(ت 180 هـ/796م)، حيث انتقلت الفتيا من مذهب الأوزاعي إلى مذهب الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة. واندثرت بعد ذلك أراء الأوزاعي بالأندلس، و لم يبق منها إلا القليل مثل جواز غرس الشجر في صحون المساجد، وهذا خلاف للمذهب المالكي[10].

ثم حلّ محلّه المذهب المالكي، الذي أدّى دخوله إلى الأندلس إلى إحداث إشكالية تاريخية، اختلفت في تفسيرها الآراء، وذهب كلّ واحد في ذلك مذهبه، حسب دراسته للمجتمع الأندلسي، والذهنية الأندلسية. وسنذكر كلّ هذه التفسيرات، ونناقش بعضها في حدود المعطيات الموجودة لدينا من المصادر التي بين أيدينا.

– رأي ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة(ت 367هـ/977م): كان ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة، أوّل من فسّر ظاهرة تفشّي المذهب المالكي بالأندلس، وذكر أنّ سبب ذلك ما وصف للإمام مالك من صفات هشام بن عبد الرحمان فقال: ليت الله زيّن سمتنا بمثل هذا[11]، إعجابا به، فكان هذا الإطراء سببا في قبول مذهبه بالأندلس. ولقد أخذ بهذه الرواية كثير من المعاصرين[12].

– رأي ابن حزم الظاهري(ت 456هـ/1064م): أمّا ابن حزم فقد علّل ذلك بقوله: "فإنّ يحي بن يحي كان مكينا عند السلطان، مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختباره، ولا يشير إلا بأصحابه ممّن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به"[13].

ويؤكّد هذا الذي ذهب إليه ابن حزم، ما أورده ابن حيّان صاحب المقتبس حيث يقول: "وغلب يحيى بن يحيى جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمان، وألوى بإيثاره، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه، فلا يستقضي قاضيا، ولا يعقد عقدا، ولا يمضي في الديانة أمرا إلاّ عن رأيه، وبعد مشورته"[14].

كما أوعز كثرة القضاة المتولّين على عهد عبد الرحمان إلى "اتّباعه فيهم رضا كبير الفقهاء المشاورين الأثير عنده يحيى بن يحيى، إذ كان لا يزال يشير عليه بقاض، فيولّيه الأمير عبد الرحمان مقتصرا فيه على رأيه، فإذا أنكر عليه يحيى شيئا رفع عليه إلى الأمير، فلا يؤخّر عزله، ولا يحيد عن مشورته، وكان يحيى الذي يولّي مكانه"[15].

– رأي المقّري التلمساني(ت 1041هـ/1631م): ويذهب المقّري في تعليل ذلك إلى ما يقارب قول ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة فيقول: "فذهب الجمهور إلى أنّ سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة، فلمّا رجعوا إلى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه، وجلالة قدره فأعظموه، وقيل أنّ الإمام مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته فأعجبت مالكا، فقال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه لذلك المخبر: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاما هذا معناه، فنميت المسألة إلى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي"[16].

– رأي المؤرّخ ابن خلدون(ت 808هـ/1406م): ويعطينا ابن خلدون صورة أخرى تقوم على تفسيرين مختلفين، أحدهما خاصّ والآخر عام، يكوّنان رؤية حضارية شاملة. فأمّا الأوّل في قوله: "إنّ رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار علم ومنها خرج إلى العراق، و لم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلّدوه دون غيره ممّن لم تصل إليهم طريقته"[17].

وأمّا الثاني ففي قوله: "فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، و لم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضّا عندهم، و لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"[18].

وقد انبرى الشيخ محمّد أبو زهرة للردّ على ابن خلدون فيما ذهب إليه من أمر البداوة المنطوية على أهل الأندلس في كتابه عن الإمام مالك[19]. غير أنّني أؤكّد في هذا السياق أنّ

ردّه لم يكن في محلّه، ولا أصاب مقصده، إذ تمثّل مسألة البداوة في التحليل الخلدوني على أنّها رمي بالجمود للمذهب المالكي، واتّهام لأهل الأندلس والحجاز بالبداوة الجافية.

والمحقّق الذي خبر ابن خلدون يدرك أنّ المعنى المتركّب من التحليل الخلدوني هو معنى سوسيونفسي، وأنّ البداوة عند ابن خلدون هي مجموع أخلاق ورؤى تؤطّر الحياة بمعنى أنطولوجي يهيمن على التصوّر الذي يوجّه حركة الحياة، وهي مرحلة تسبق الحضارة بحتمية الزمن النفسي المكوّن للزمن الاجتماعي الذي ينشئ الثقافة، وينتج الحضارة. ومن هنا تكون الانفعالات كلّها خاضعة إلى مقاس نسبية الزمن، وخاصّة التشريعية منها، حيث هي صورة عن الواقع كما يعيشه الفرد والجماعة. وهكذا يكون التشريع عندنا-نحن المؤرّخين- من أدوات التحليل ، فنستدلّ به، كما نستدلّ عليه.

– **رأي بعض المعاصرين**: ويرى بعض المعاصرين أنّ جوّ المنافسة بين بغداد وقرطبة، أدّى بها إلى احتضان المذهب المالكي وإعراضها عن المذهب الحنفي[20]. وهكذا صار الموقف السياسي من الدولة العباسية متجانسا بين الإمام مالك والدولة الأموية بالأندلس[21]؛ في حين يجمع آخر أسبابا كثيرة تضافرت حتّى مكّنت المذهب المالكي بالأندلس[22]:

– السبب الأول: أن أغلب الفاتحين كانوا شاميين يوالون الدولة الأموية، ويريدون أن يعيشوا معها ولها، فاتّبعوا رأيها، وغيّروا المذهب بعد أن أيّدته الدولة.

– السبب الثاني: أنّ الحجاز موطن الدين ومنبته، وكان مكانا مقدّسا يزوره المسلمون ويحجّون إليه، فكلّ ما هو حجازي، فهو مقدّس، حتّى العلم.

– السبب الثالث: تأييد السلطة له لاعتباره صورة مقابلة لمذهب الأحناف مذهب العبّاسيين.

– السبب الرابع: نشاط تلاميذ مالك في نقل مذهبه إلى الأصقاع، وإنشاء المدارس لذلك.

– السبب الخامس: ربط الوظائف الدينية المهمّة في الدولة بالمذهب المالكي والناس يتّبعون المذهب لاتّفاقهم معه لكسب الدنيا.

– **الرأي الشخصي للباحث**: وهذه الأسباب مستخلصة من كلّ ما سقناه قبلها، من آراء المؤرّخين والباحثين، ومن كلّ هذا تتكّون لدينا رؤية في تفسير هذا الإشكال التاريخي، وترتكز رؤيتنا على النقاط التالية:

I- لم تكن البيئة الأندلسية بيئة حضارة عريقة قد ورثت أمشاجا من الأفكار مثلما ورثته العراق والشام، و لم تشهد تأثيرات حضارية كانت ضغثا في منهج فكري واضح، بل ما بقي هو طلسمات موروثة من عمل ملوك رومية[23]، لذلك تخلّص المجتمع الجديد من هذه التأثيرات، ثمّ تخلّص من التأثيرات المشرقية في حدود طاقته، لأنّه كان كذلك مجتمعا ساذجا – مجتمع جند محاربين- فكانت التأثيرات في بدايتها انتقائية.

ففي المجال السياسي مال الناس إلى حكم بني أميّة لاعتبارات وجدانية وتاريخية، حيث الجند الفاتحون شاميّون والشام شيعة الأمويّين، وفيهم قال الإمام العبّاسي صاحب الدعوة: "وأمّا أهل الشام فليس يعرفون إلاّ آل أبي سفيان وطاعة بني مروان"[24]. ثمّ إنّ الاعتبار التاريخي قائم في تحديد مواقف الناس السياسية[25] بمقاييس نظرية الحشد في علم النفس الاجتماعي، أو بنظرية الموروث الثقافي في التحليل الأنثروبولوجي. ولهذه الاعتبارات نفسها مالوا إلى الأخذ بمذهب مالك، فالمدينة وجدان المسلمين ومبتدأ تاريخهم، والفقه جزء من هذا التاريخ حيث أعرافها تمثّلات تطبيقية له.

2- إنّ لحظات التكوين الأولى للمجتمع غير لحظات الممارسة والنشاط، خصوصا في الجانب الفكري والإيديولوجي، فالمجتمع الإسلامي بالأندلس وهو في طور تكوينه كانت تتكّون معه الذهنية والفكرة، وكانت هذه الفكرة في المنحى العام ضمن مذهب الأوزاعي الذي يعدّ من مذاهب أهل الحديث[26] الذين ينفرون من الرأي والقياس[27]، ويتّبعون الأثر وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان المذهب الأوزاعي هو الطور التمهيدي للمذهب المالكي.

وقد تحدّث المؤرخون عن انتقال الأندلسيين من مذهب الأوزاعي إلى المذهب المالكي، وجعلوا منه حادثة فذّة في العهد الأوّل من الإمارة، لكنّهم لم يحقّقوا في هذا الانتقال، و لم يدرسوه حقّ دراسته، وبيّنوا أنّ الأندلس انتقلت من شيخ إلى شيخ، ومن رمز إلى آخر، ولكنّها لم تنتقل من مدرسة إلى أخرى، فبقي الفضل للسابق على اللاحق، وقد أشار إلى ذلك أحمد مختار العبّادي[28]، لكنّه جعل ذهنية الأندلسيين الميّالة إلى الحديث هي التي اختارت الأوزاعي ثمّ المالكي.

3- وإذا سلّمنا أن الأندلسيين تأثّروا في ظرف زمني قصير جدّا بمن أدخلوا مذهب مالك، وولّوا الأدبار للمذهب الأوزاعي، وسلّمنا كذلك أنّ فردا معيّنا – إذا اعتبرنا أنّ الغازي بن قيس هو أوّل من أدخل الموطّأ للأندلس –[29]أو جماعة قليلة في ظرف زمني قصير استطاعت

أن تفرض منحى فكريا معيّنا، فلا بدّ أن نسلّم حينئذ أنّ المجتمع الأندلسي كان ساذجا، وأنّه لم تتكوّن لديه إلى هذا الزمن من دخول المذاهب ذهنية يستطيع أن يحدّد بها معالم تفاعلـــه مـــع الحياة، وصناعة تاريخه وثقافته.

فالذهنية الأندلسية كانت في هذا الوقت قد تكوّنت تكوينا يتماشى مع ســـذاجة أفـــراد المجتمع – الجند – ونفسياتهم المتكوّنة من النزعة الشامية في اتّباع مذهب الشام، والنزعة الدينية في اتباع الحديث والأثر، ممّا يؤكّد دور المذهب الأوزاعي في توطئة السبيل للمذهب المالكي.

4- لا ننكر التناغم الواقع بين الأمير الأموي والإمام مالك، ودوره في إدخال المـــذهب، ولكن لابد كذلك من ذكر التناغم والتفاهم الذي كان بين الأمير والفقهاء من جهة، وبينـــه وبين رعيّته التي أنست منه عدلا وفضلا وأخلاقا[30]، كانت تذكّر بأسلافه مثل عمر بن عبد العزيز[31]، من جهة أخرى. ومن هنا نتبيّن كيف يطبّق البرنامج الإسلامي في واقـــع النـــاس، وكيف يؤدّي كلّ طرف دوره في المجتمع سواء كان خليفة، أو فقيها، أو رجلا مـــن عامّـــة الناس، وبين جميع طاقات المجتمع التي يكون لها حضور تاريخي.

5- عدم إهمال نظرة الأمويّين إلى الحكم والرعيّة، وطريقتهم في الإمساك بتلابيب الأشياء، وبعثها بعثا يتماشى وإرادتهم ولا يتنافى وإرادة محكوميهم. واستطاعوا أن يجعلوا أيديهم علـــى كلّ ما يؤيدهم ويخدمهم، وقد أشار إلى ذلك أحد المعاصرين فقال: "وكان هذا الأمير –يعني هشام– حاكما سياسيا وواحدا من رجال الدين أيضا، وظلّ سلوكه واضح الإشارة إلى أنّـــه عاش حياته في بيئة دينية، ممّا يجعلنا نقول بأنّ ظهور مثل هذا الشعور الديني العميق عنده يدلّ على إدراك الأمويين منذ لحظات وجودهم بالأندلس لأهمّية الدين كعامل فعّال لحفظ نظامهم واستقراره"[32].

وقال في موضع آخر: "على أنّ اختيار هذا المذهب الديني لم يكن على أساس الاقتناع بـــه وحده، وإنما كان لخدمة الغرض السياسي الذي أراده الأمويّون، أو لإظهار التديّن باللجوء عند طلب العلم إلى مكان الوحي ذاته، وكان هذا يرضي عواطف الناس ويسعدهم"[33].

وإذا كنّا نذهب مع الكاتب في قوله الأوّل، فإنّنا لا نوافقه على قوله الثاني، لأنّنا نـــرى أنّ اختيار المذهب جاء ضمن السياسة العامّة للأمويين الذين أدركوا بفضل خبرتهم بالمشرق، سنن الاجتماع والعمران البشري التي تحدّث عنها ابن خلدون فيما بعد. كما أدركوا دور الفكـــرة الدينية في بناء الحضارات وبعث المجتمعات وتكوينها، وهي الفكرة التي أكّد عليها ابن نبي في

دراسته الحضارية[34]. كما أسّسوا بنيانهم على نهج مستقيم أو يكاد، وأقاموه على توجيه الطاقات والثقافات[35] توجيها يتماشى ومصالح الدولة والشعب. فربط المجتمع بالمذهب المالكي كان ربطا روحيا صرفا، لأنّ كلّ ما هو في المدينة المنوّرة يكتسب تقديسا، والتديّن عموما يقوم على ثلاث: الغيب، والمحرّم، والمقدّس[36].

وكان ممكنا أن يربط الأمويّون المجتمع بمذاهب أخرى، ومنها المذهب الحنفي خاصّة دون التحرّج من كونه مذهب العبّاسيين لأنّه مذهب يقوم على الرأي والقياس[37]، والحيل[38]، وهو ما يوائم الحكّام ويساعدهم في الإمساك بالرعية. لكنّهم أدركوا أنّ ذلك يوجب عليهم حزما كبيرا ووقتا طويلا.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه العوامل التي ذكرناها هي في جملتها عوامل مساعدة على دخول المذهب، فهيأت له الأرضية، ووطّأت له الطريق. وكلّ الشخصيات التي ساهمت في هذه العوامل كان لها دور غير مباشر في تثبيت المذهب، أمّا إدخاله فقد تكفّلت به شخصيات أخرى، كانت مهمّتها علميّة بحتة، وفقهية خالصة.

– أوّل من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس:

ومازالت مسألة من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس غامضة[39]، إذ لم تقطع الروايات القديمة في ذلك، و لم تتوصّل الروايات الحديثة إلى تحديد يقترب من الحقيقة، بل مازالت تعتمد على الروايات القديمة الموجودة بين أيدينا.

وأهمّ هذه الروايات، رواية ابن القوطية التي يقول فيها: "وفي أيّام عبد الرحمان بن معاوية دخل الغازي بن قيس(ت سنة 199هـ/ 814م) الأندلس بالموطّأ-إذ كان يحفظه ظاهرا[40]- عن مالك بن أنس، رحمه الله، وبقراءة نافع بن أبي نعيم"[41].

وتفيد الرواية أن الموطّأ دخل الأندلس في عهد عبد الرحمان، وبذلك يكون قد سبق العصر الذي انتقلت فيه الأندلس إلى المذهب المالكي. وإدخال الموطأ لا يعني إدخال المذهب، لأنّ الموطّأ معدود في كتب الحديث، بل هو أقدم مصنّف للحديث، وقد جمع فيه الإمام مالك ما صحّ عنده من حديث، وتفسير، وفقه، وتاريخ، وذكر أقوال الصحابة والتابعين والأئمة من قبله[42]. وهو بذلك لا يصحّ أن يكون معتمدا بمفرده للمدرسة المالكية، ولا كافيا لتقوم عليه دراسة أصولية وفرعية؛ ونفيد من هذه الرواية كذلك إدخال قراءة نافع[43]، وهي قراءة أهل المدينة، فاجتمع للأندلس بذلك مميّزات المدينة: قراءة نافع، وفقه مالك.

وتوجد روايات أخرى تقول إنّ زيادا بن عبد الرحمان شبطون(ت 204هـ/819م)، هو أوّل من أدخل فقه مالك إلى الأندلس[44]، حيث دخل بالفقه والحلال والحرام[45]، وقد كان روى عن مالك، وسمع منه الموطّأ[46]، وأدخله مكمّلا متقنا[47]، وعنه رواه يحيى بن يحيى الليثي قبل أن يرحل[48]. وكان أهل المدينة يسمّونه فقيه الأندلس[49].

– الحركة الخارجية لإدخال المذهب:

وإلى جانب زياد ذكر فقهاء آخرون كان لهم دور في إدخال المذهب إلى الأندلس، منهم يحيى بن مضر القيسي(ت 189هـ/804م) روى عن مالك، وروى عنه مالك[50]، فحاز شرف سند الرواية إلى الإمام مالك. وهذه مكانة عليا كوّنت التوجّه السيكولوجي في تحصيل العلوم الشرعية لدى الأندلسيين، حيث الرواية عن مالك إمام دار الهجرة الذي جاءت فيه نصوص نبوية[51]، هو من المقاصد الجليلة للرحلة العلمية التي أمّت المدينة المنوّرة لحيازة الفقه وقداسته، فالفقه مدني من حيث المنبع والوراثة[52].

وعيسى بن دينار الغافقي (ت 212هـ/827م)، صحب ابن القاسم صاحب مالك بن أنس، وكان إماما في فقهه[53]، قال عنه الذهبي: "من أوعية العلم"[54]، وقال صاحب الشذرات: "يقدّم على يحيى بن يحيى في ذلك"[55]، وكان أوّل من علّم الناس المسائل[56]، وهو ما سهّل تناول المذهب في تمثّلات الفقهاء وطلبة العلم.

وقرعوس بن العبّاس بن قرعوس(ت 220هـ/835م)، رحل وسمع من مالك مؤسّس المذهب، و كان أحد فقهاء الأندلس[57]. وسعيد بن أبي هند، وهو ممّن لقي مالكا وروى عنه[58]، وقيل إنّ مالكا كان يقول لأهل الأندلس إذا قدموا عليه: "ماذا فعل حكيمكم بن أبي هند"[59].

ويحيى بن يحيى الليثي(ت 234هـ/848م) الذي سمع من مالك[60]، وانتهت إليه رئاسة الفتوى بالأندلس[61]، وإليه يعزى الدور الخطير في نشر المذهب. وروايته للموطأ من أشهر الروايات، وهي ممّا انفرد بروايتها المغاربة[62]. والأندلسيون يقولون لا نعرف إلاّ كتاب الله وموطّأ مالك[63]. فكان الموطّأ مدخلهم إلى الدراسات الإسلامية في مباحثها العقدية والفقهية، وكان يحيى بن يحيى شيخهم مسند معتمدهم إلى الإمام مالك.

وهؤلاء كلّهم نشطوا في الأخذ عن مالك والرواية عنه، وتمثّلوا الفقه عن طريقه وبأصوله، وكان من نتيجة ذلك تعرّف أهل الأندلس على المذهب، ثمّ النزوع إليه نزوع الاقتناع، والإتّباع. وكانت جهودهم ضمن الحركة الخارجية في تمكين المذهب في جغرافية الأندلس.

– الحركة الداخلية في تثبيت المذهب:

وشفعت جهودهم بجهود آخرين لم يلتقوا مالكا ولكن اعتنقوا مذهبه اعتناق المعتقد في صحّة آرائه وتوجّهاته، فانبروا بهمّة إلى تتبّع آثار مالك، والتقوا تلاميذه المبرّزين مثل ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، وأخذوا عنهم أصول مذهبه، وتطبيقاته المنهجية، والموضوعية. ثمّ قاموا بتضمين كلّ ذلك في مدوّنات محلّية أندلسية كان لها الدور العظيم في ترسيخ المذهب، وبهذه الجهود انتظمت الحركة الداخلية.

أ– التأليف والتدوين في الأصول والفروع:

I– **الواضحة:** وأبرز هؤلاء عبد الملك بن حبيب(ت 238هـ/853م)، "فقيه مشهور متصرّف في فنون من الآداب وسائر المعاني، كثير الحديث[64] والمشايخ، تفقّه بالأندلس وسمع، ثمّ رحل فلقي أصحاب مالك وغيرهم"[65]. ثمّ انصرف إلى الأندلس وقد جمع علما عظيما"[66]، من فقه ولغة وأدب[67].

ألّف كتبا كثيرة، منها كتاب شرح الحديث[68]، وكتاب الفرائض[69]، وتفسير الموطأ. وأشهر كتبه فيما نحن فيه كتابه الواضحة، في الحديث والمسائل على أبواب الفقه[70]، وهي التي لم يؤلّف مثلها[71]، حيث ذكر ابن فرحون عن العتبي أنّه قال: "ما أعلم أحدا ألّف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره"[72].

ولّما كان حافظا للفقه على مذهب مالك، نبيها فيه، ذبَّا عنه[73]، دوّن كتاب الواضحة[74] التي امتازت "بجمعها لمأثورات السادة المالكية المبكّرة من سماعات ومرويات تعود إلى عصر الإمام مالك، وكبار تلامذته من بعده بالإضافة إلى آراء ابن حبيب واجتهاداته الفقهية القيّمة"[75]، فاحتوت على اجتهادات كبار أئمّة المذهب خارج الأندلس وداخلها، فكانت أشهر كتاب يمثّل مدرسة مالك في الأندلس[76].

كما كانت من أوائل الكتب المؤلّفة في المذهب من داخل الأندلس، فهي نتاج مالكي أندلسي، ولاعتبارات قطرية، ثمّ اعتبارات اجتماعية حيث عرف عن أهل الأندلس حبّهم للتميّز، نالت الواضحة مكانة الصدارة في اهتمامات طلبة العلم والمشتغلين على المسائل

الفقهية[77].

كانت الواضحة أوّل معلم على طريق تثبيت المذهب بأصول الكتابة والتفريع الفقهي الحامل للذهنية المتمثّلة للأحكام، فرسمت طريق التأليف الأندلسي كما رسمت التوجّه التنظيري في تناول المسائل الفقهية على مذهب أهل المدينة.

2- **المستخرجة أو العتبية**: ومنهم كذلك العتبي(ت 254هـ/868م)، كان "من وجوه علماء الأندلس وأشرافهم من أهل الوجاهة والرياسة والقدر الجليل، لم ير له نظير في البراعة وجودة الحفظ، ودقّة الذهن، وحسن التمييز لصحيح الفتوى"[78]، "حافظا للمسائل، جامعا لها، عالما بالنوازل"[79].

واستنّ بسنة شيخه عبد الملك فدوّن المستخرجة[80]، وهي "مجموعة الأسمعة المسموعة غالبا من مالك بن أنس، المسمّاة بالعتبية"[81]، "كثر فيها من الروايات المطروحة، والمسائل الشاذّة، وكان يؤتى بالمسألة الغريبة فإذا سمعها قال: أدخلوها في المستخرجة"[82]. ويرى الأستاذ محمّد حجّي أنّها تحوي "قطعا ليست في مدوّنة سحنون، ولا في المعروف من كتب المذهب القديمة"[83].

ورغم هذا الذي قيل عن المستخرجة إلاّ أنّ أهل الأندلس عكفوا عليها وعلى الواضحة[84]، ووقع عليها اعتماد أعلام المالكية[85]. ثمّ ما لبثوا أن هجروا الواضحة واعتمدوا العتبية، وكتبوا عليها ما شاء الله أن يكتبوا، مثل ابن رشد[86]. وكانت لها من السمعة والاهتمام في الأندلس كما في إفريقية، قال ابن حزم: "لها بإفريقية القدر العالي والطيران الحثيث"[87].

وللوقوف عل أهمّية كتاب المستخرجة كما تمثّله الفقهاء، وكما مضى به التاريخ، نثبت كلام ابن رشد، وهو أعلم به، إذ قام بشرحه وبيان معانيه، وكتب في مقدّمته يقول: "لأنّه ديوان لم يعن به أحد ممّن تقدّم كما عنوا بالمدوّنة التي كثرت الشروح لها، على أنّه كتاب قد عوّل عليه الشيوخ المتقدّمون من القرويين والأندلسيين، واعتقدوا أنّ من لم يحفظه ولا تفقّه فيه كحفظه المدوّنة وتفقّهه فيها، بعد معرفة الأصول، وحفظه لسنن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فليس من الراسخين في العلم، ولا من المعدودين فيمن يشار إليه من أهل الفقه"[88].

ومن دون هذه الكتب مؤلّفات أخرى تحرّى أصحابها أن يبرزوا الأصول الفقهية في المذهب المالكي لمساعدة المجتهدين من المفتين على استنباط أحكام الفروع، وجعلوا مجال مدوّناتهم محدودا لا يخرج عن نطاق المذهب، وجمع النظائر فيه[89].

كان لهذه المدوّنات الفضل في إرساء أمرين اثنين، أصالة التأليف الأندلسي في المذهب، وتمكين المذهب من الأطر النظرية والمنهجية في التعاطي مع إيراد النصوص الأثرية، وإثبات الأحكام الشرعية بوجهة مالكية صرفة من حيث الاستدلال، ومن حيث تراكمية الأقوال. كما تنبئ هذه المؤلّفات عن الحراك الفقهي المالكي الأندلسي، إذ ما فتئت العقول الأندلسية تتفتّق بالتآليف المبدعة للأفكار الباهرة والمتّبعة للتوجّهات الغابرة.

ب- التدوين النوازلي:

وامتدّ هذا الحراك إلى تأليف آخر أراه ذا خطورة في تمكين المذهب، ألا وهو تأليف النوازل وتدوين الوقائع وجمع الأجوبة من أفواه الفقهاء. وقد عرفت الأندلس حركة دءوبة في إنتاج المدوّن النوازلي الذي أصبغ حياة الناس بالصبغة المذهبية من خلال إلزامهم بفتوى المذهب، حيث أنّ كتب النوازل اصطبغت بصبغة المذهب الذي يتمذهب به المفتي[90].

هذا المدوّن هو في الحقيقة تأريخ للفتوى[91]، وتأريخ للفكر الاجتماعي الأندلسي، وفيه من معالم التحوّل الاجتماعي ما ينبئ عن كثير من خفايا التطوّر الذي عرفه المجتمع الأندلسي[92]، ومنه انتقاله إلى المذهب المالكي والتديّن وفق اجتهاداته. فالفتاوى هي التطبيقات الاجتماعية للمعادلات الفقهية المبثوثة في كتب الأصول والتنظير.

وانظر مثال ذلك في المسألة الواردة على الفقيه ابن رشد حيث سأله سائل[93]: "الجواب- رضي الله عنك-في رجل من أهل الخير والفضل مشهور بذلك. معروف به. شهد بشهادة على رجل من الناس في حقّ من الحقوق، والشاهد المذكور مع كونه على الصفة المذكورة يأخذ مذهب أهل الظاهر نفاة القياس، ويعتقد ذلك ويلتزمه، ويتمذهب بمقتضاه، فبيّن لنا-وفّقك الله- هل تقبل شهادة من هو على هذه الصفة؟ وهل اعتقاد المذهب المذكور يسقط شهادته، ويكون مجرحا به أم لا؟ واشرح لنا ذلك شرحا بيّنا إن شاء اله تعالى"[94].

وكان الجواب[95]: "تصفّحت السؤال، ووقفت عليه. وإبطال القياس في أحكام شرائع الدين جملة عند العلماء بدعة، وذلك فمن اعتقده ودان به جرحة، لأنّ ذلك خلاف ما دلّ

عليه القرآن، وتظاهرت به الأدلّة، وأجمع عليه الصحابة ومن بعدهم من فقهاء الأمصار، وانعقد عليه الإجماع"[96].

من خلال نصّ النازلة، ونصّ الفتوى، يتبيّن أنّ الخروج عن المذهب المالكي ظاهرة سلبية، وخروج عن إجماع الأندلسيين، بل هو نازلة تستدعي الحكم الشرعي فيها. كما يتبيّن أنّ الفقهاء كانوا يتشدّدون في مثل هذه الظواهر حتّى لا ينفكّ المجتمع عن أواصر الارتباط التي نشأوا عليها في الأندلس وأهمّها التديّن بالمذهب المالكي.

– نتائج حركة التمذهب في الأندلس:

لقد أثمر دأب الفقهاء حتّى ارتسمت الذهنية الأندلسية بالنزعة المالكية، وأصبح المذهب المالكي نصّا على كلّ قضية عقائدية أو اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية. واصطبغت الأندلس كلّيا بالصبغة المذهبية، وتأثّرت تأثّرا بليغا بآراء مالك وتلاميذه إلى درجة أنّ "الأفكار كانت تجيء دائما مصبوغة بلون مالكي، وتأخذ شكلا واحدا"[97].

وحقّق المذهب للأندلسيين وحدة عقدية، ونظرة فقهية مشتركة، كانت موروثا ثقافيا أندلسيا جنّبها كثيرا من مخاطر الانقسام المذهبي، والتشتّت الطائفي، ورسم العلاقة المتينة بين الراعي والرعية، وأرسى التوجّه السياسي عند الراعي باعتماده المذهب الشعبي الذي بثّه العلماء، كما قعّد لمفهوم الإمامة[98] في منظور الثقافة التي تنشئ حركة الحياة.

وبالغ الأندلسيون في التعصّب للمذهب حتّى عرفوا بذلك[99]، ونسجت فيهم الروايات التي لا يمكن للمؤرّخ أن يصدّقها لما يعتريها من المبالغ.

فأمّا ما كان من مظاهر المبالغة فموقف الفقيه أصبغ بن خليل(ت 273هـ/886م) من الدراسات الحديثية التي بدأت تغزو في عهده الأندلس وتنبئ بتغيّرات في مسالك الاجتهاد[100] على يد الفقيه بقي بن مخلد(ت 276هـ/889م)، حيث قال: "لئن يكون في تابوتي رأس خترير أحبّ إليّ من أن يكون فيه مسند بن أبي شيبة"[101].

ومنها أيضا أن سارت فيهم معاني الأصول المالكية فإذا هم يبتدعون أمورا منكرة قياسا على ما جاء في أصول مالك. ولمّا كان من أصوله اعتماد عمل المدينة أصلا للتفريع وحجّة للفقه، وذلك أنّه المتواتر بالفعل من أيّام الصحابة ومن بعدهم[102]، عمدوا إلى اعتبار عمل أهل قرطبة حجّة كذلك، ويقولون هذا ممّا جرى به عمل قرطبة، وترتّب بذلك إيجاب عمل القضاة بقرطبة[103].

وأمّا ما كان من نسج الروايات حولهم، فما رواه المقدسي في كتابه من أنّ أهل الأندلس لو "ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه"[104]. وادّعاؤه أنّ الأحناف والمالكية تناظروا بين يديه، فقال لهم: من أين كان أبو حنيفة؟، قالوا: من الكوفة، فقال: ومالك؟، قالوا: من المدينة. فقال: عالم دار الهجرة يكفينا[105]، وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة، وقال: لا أحبّ أن يكون في دولتي مذهبان"[106].

وهذه الرواية لا مثيل لها في كتب التاريخ والجغرافيا، ولعلّها من نسج المقدسي أو نسج أحد آخر، رواها عنه و لم يفصح بسنده إليه. ولكنّها دليل على ما صار إليه أهل الأندلس مع المذهب المالكي الذي أصبح جزءا من شخصيتهم الأندلسية لا ينفكّون عنه، ولا يحيدون عن منهجه، وصار ملمحا في تحليلاتنا الاجتماعية والأنثروبولوجية لأهل الأندلس.

دلّت الدراسة على أنّ انتقال أهل الأندلس إلى المذهب المالكي كان بجهود حثيثة قام بها الفقهاء، وآزرهم فيها الساسة، والحكّام. كما أنّ الأصول الثقافة الفقهية المبنية على اعتماد الأثر التي أسّس لها المذهب الأوزاعي كانت وعاء لأقوال مالك الذي اعتمد النصّ في منهج الموطأ الذي ارتضاه قاعدة للعلم والفقه وفق مذهبه، واجتهاداته.

كما بيّنت الدراسة نشاط حركة الفقه الأندلسي، التي حاولت الفقه بالمنظور المالكي لأسباب نفسية، وأخرى حضارية، وثالثة تاريخية، ونتج عن ذلك أن تعصّب الأندلسيون للمذهب المالكي، وعدّه من بنيات الثقافة العقدية، والسياسية، والاجتماعية. ويتمثّل ذلك في قول الحكم المستنصر: "وكلّ من زاغ عن مذهب مالك، فإنّه ممّن رين على قلبه، وزيّن له سوء عمله. وقد نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنّف من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منه. فإنّ فيهم الجهمية، والرافضة، والخوارج، والمرجئة، والشيعة، إلاّ مذهب مالك، فإنّا ما سمعنا أنّ أحدا ممّن تقلّد مذهبه قال بشيء من هذه البدع. فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى"[107].

– الهوامش:

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط02، بيروت 1969، ج 03، ص 29.

(2) خير الله طلفاح: كنتم خير أمّة أخرجت للناس، ط05، بيروت 1973، م 02، ص 747.

(3) أحمد أمين، المرجع السابق، ج 03، ص 27.

(4) نفسه.

(5) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، سلسلة ذخائر العرب، بيروت، د ت، ج 01، ص241. ومؤلّف مجهول: محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي، تحقيق شكيب أرسلان، بيروت 1967، ص72.

(6) محاسن المساعي، ص 72.

(7) نفسه، ص 74.

(8) محمّد بن فتّوح الحميدي(ت 488هـ/1095م): جذوة المقتبس، ط 02، بيروت 1983، ج 01، ص379.

(9) أحمد بن يحيى بن عميرة الضبّي(ت 599هـ/ 1203م): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1417هـ/ 1997م، ت853. وهذه رواية نفيسة، نفيد منها أنّ المذهب الأوزاعي يعتمد على النصّ والأثر مثل مذهب مالك، وهذا له شأنه في تحليل مسألة انتقال الأندلس من الأوزاعي إلى مالك، ثمّ فيها أنّ أهل الأندلس اشتغلوا بالحديث مبكّرا، وهو ما يطرح إشكال بعض النصوص المالكية الأندلسية المناهضة للتوجّهات الحديثية.

(10) أحمد مختار العبّادي: في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت 1978، ص 115.

(11) محمّد بن عمر ابن القوطية(ت 367هـ/ 977م): تاريخ افتتاح الأندلس، ص 62. ومجهول: أخبار مجموعة، ص 103.

(12) عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، د ت، ص 218، وخير الله طلفاح: كنتم خير أمّة أخرجت للناس، ج 02، ص 748، وأحمد مختار العبّادي، المرجع السابق، ص 326.

(13) علي بن أحمد بن حزم(ت 456هـ/ 1064م): شذرات من الروايات التاريخية، ملحق رقم 03، ضمن رسائل ابن حزم، ج 02، ص 229.

(14) حيّان بن خلف بن حيّان أبو مروان(ت 469هـ/ 1076م): المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكّي، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت 1393هـ/ 1973م، ص 42.

(15) نفسه، ص 40.

(16) محمّد بن محمّد المقّري(ت 758هـ/ 1357م): نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، د ط، دار صادر، بيروت 1408هـ/ 1988م، ج 03، ص 230.

(17) عبد الرحمان بن خلدون(ت 808هـ/ 1406م): المقدّمة، تحقيق أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د ت، ص 487.

(18) نفسه.

(19) محمّد أبو زهرة: مالك: حياته وعصره-آراؤه وفقهه، د ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د ت، ص 398، وما بعدها.

(20) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط 03، مصر 1969، ج 04، ص 23. ولطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، ط 01، مصر 1958، ص 40.

(21) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، بيروت 1980، ص 231.

(22) علي حبيبة، مع المسلمين في الأندلس، القاهرة 1972، ص 331 وما بعدها.

(23) محمّد كرد علي: غابر الأندلس وحاضرها، ط 01، مصر 1923، ص 53.

(24) مؤلّف مجهول: أخبار العبّاس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبّار المطّلبي، ط 02، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1997، ص 207.

(25) سيكون هذا الاعتبار مستند المواقف السياسية في عصر الطوائف.

(26) يطلق بعض الباحثين الغربيين على المذهب الأوزاعي والمالكي صفة الأرثوذكسية، ومعناها السلفية، وهذا ملمح جيّد في توصيف مناهج المذهبين.

(27) أحمد محمّد الشافعي: المدخل للشريعة الإسلامية، الدار الجامعية، القاهرة 1987، ص 138.

(28) أحمد مختار العبّادي، المرجع السابق، ص 327.

(29) بالنثيا جنثالث آنخل: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط 01، مصر 1955، ص 03، وابن القوطية، المصدر السابق، ص 56. وأنظر ترجمة الغازي بن قيس في: ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم، ط 02، مصر 1983، ج 01، ص 380.

(30) الحميدي: جذوة المقتبس، ج 01، ص 39، ومؤلّف مجهول، أخبار مجموعة، ص 109 وما بعدها، وعبد الحميد العبّدي: المجمل في تاريخ الأندلس، ط 01، القاهرة 1984، ص 76.

(31) ابن عذاري المراكشي(ت نحو 695هـ/ 1295م): المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الطبعة الثانية، بيروت 1983، ج02، ص:66. ويذكر الدكتور حسين مؤنس أن هشاما لم يكن بهذه الصفة وأنه كان قاسيا على أعدائه، حيث سمل عيني شاعر أثنى على أخيه ومنافسه سليمان. ويذكر أن هشاما صنيعة الفقهاء. انظر حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى مصر1980، ص:271. بينما يرى العبادي أن هشام كان رجلا صالحا متقشفا فكان هناك انسجام بينه وبين الفقهاء، وهذا ما جعلهم لا يرون للأمير الحق في الملك إلا إذا كان على هذا الطراز وسارت الأمور على ما يحبون في الثماني سنوات التي وليها هشام الذي توفي سنة 180هـ/796م، وهنا بدأ التأسيس لسلطة الفقهاء وهيمنة ايديولوجية جديدة تريد توجيه السياسة الأندلسية لسياسة معينة، أنظر عبد الحميد العبادي: المرجع السابق،

Levi Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane. Paris 1953,T 01,p 147

(32) علي حبيبة، المرجع السابق، ص 330.

(33) نفسه، ص 331.

(34) أنظر: مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ط 02، دار العروبة، القاهرة 1962.

(35) مالك بن نبي: شروط النهضة، ط 03، بيروت 1963، ص 88، ومشكلة الثقافة، ط 04، بيروت 1984، ص 79 وما بعدها.

(36) جيب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة عادل العوّا، ط 01، بيروت 1977، ص 19 وما بعدها.

(37) أحمد محمود الشافعي، المرجع السابق، ص 138.

(38) جوزيف شاخت: في تاريخ الفقه الإسلامي، الرسالة، م 07، س 04، القاهرة 1936، ص 543 وما بعدها. والمقصود بالحيل أطر إيجاد مستندات الاستدلال للأحكام في مقاصد معيّنة إمّا بعموم قياس أو بخصوص اضطرار.

(39) بالنثيا آنخل جنثالث، المرجع السابق، ص 417.

(40) عبد الله بن محمّدبن الفرضي أبو الوليد(ت 403هـ/ 1013م): تاريخ العلماء والروّاة للعلم بالأندلس، باعتناء عزّت العطّار الحسيني، ط 02، مكتبة خانجي، القاهرة 1408هـ/ 1988م، ج 01، ص 387.

(41) ابن القوطية المصدر السابق، ص56، ومحمّد بن الحسن الزبيدي أبو بكر(ت 379هـ/ 989م): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مصر 1954، ص ص:176،277.

(42) عمر سليمان الأشقر: تاريخ الفقه الإسلامي، طبعة الجزائر، 1990، ص93.

(43) نافع بن أبي نميم أبو رويم، أحد القراء السبعة ومقرئ أهل المدينة، توفي سنة 169هـ. أنظر: شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي(ت 748هـ/ 1374م): ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت،دون تاريخ، ج4، ص:242.

(44) الحميدي، المصدر السابق، ترجمة رقم 444.، والمقّري، نفح الطيب، م 02، ص 45، ولطفي السيّد: الإسلام في إسبانيا، ط 01، مصر 1951، ص 40. ويرى ليفي بروفنسال أنّ مجموع الفقهاء كان له الدور الكامل في إدخال المذهب، أنظر:

Levi Provençal, op cit, p 148.

(45) محمّد بم الحارث الخشني(ت 661هـ/ 971م): قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 01، بيروت 1982، ص 72.

(46) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 01، ص 182.

(47) المقّري، نفح الطيب، ج 02، ص 46.

(48) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 01، ص 183.

(49) مجهول: أخبار مجموعة، ص 09، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 270، ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ص 154.

(50) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 02، ت 1553.

(51) منها قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة". أنظر: أبو عيسى الترمذي: الصحيح، شرح ابن العربي، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ج 10، ص 152. وقيل أنّ المعني به مالكا. أنظر:
عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، مخطوط جامعة الرياض، رقم 922/ ت*ج، لوحة 03 ظهرا. ويوسف ابن عبد الله بن عبد البر(463هـ/ 1071م): الانتقاء في فضائل الأئمّة الثلاثة الفقهاء، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدّة، ط 01، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1417هـ/ 1997م، ص 54. وعبد الوهّاب بن علي بن نصر أبو محمّد(422هـ/ 1031م): المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق محمّد حسن إسماعيل الشافعي، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ/ 1998م، ج 02، ص 611.

(52) وفيه ملمح اجتماعي إلى اعتماد عمل أهل المدينة أصلا في التوجّه الفقهي المالكي.

(53) الضبّي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، مدريد 1882، ترجمة رقم 1144.

(54) شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط 01، بيروت 1982، م 10، ص 440.

(55) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب، بيروت، د ت، ج 02، ص 28.

(56) خير طلفاح، المرجع السابق، ج 04، ص 749.

(57) الضبّي، المصدر السابق، ترجمة 1312.

(58) نفسه، ترجمة 843.

(59) الحميدي: الجذوة، ترجمة 487، الشيرازي: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عبّاس، ط 02، بيروت 1981، ص 153.

(60) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 02، ت 1556.

(61) ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 02، ص 82.

(62) محمّد بن محمّد بن عبد الرحمان المعروف بالحطّاب(954هـ/ 1547م): مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، باعتناء زكريا عميرات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1416هـ/ 1995م، ج 01، ص10.

(63) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 02، ليدن 1906، ص 236.

(64) تكلّم فيه أهل الجرح حتّى رموه بالكذب، غير أنّ الطهبي نافح عنه بقوله: الرجل أجلّ من ذلك، لكنّه يغلط. أنظر: شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي(748هـ/ 1374م): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمّد البجاوي، د ط، دار المعرفة، بيروت د ت، م 02، ص 653.

(65) الضبّي، المصدر السابق، ت 1063.

(66) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 01، ص 313.

(67) محمّد بن محمّد مخلوف: شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، د ط، دار الفكر، بيروت، د ت، ص 74.

(68) محمّد بن خير الإشبيلي أبو بكر(575هـ/ 1179م): الفهرسة، تحقيق فرنسشكه قداره زيدين، ط 03، مكتبة الخانجي، القاهرة 1417هـ/ 1997م، ص 202. معرفة ابن حبيب بالحديث فيها نظر، فلقد ذكر صاحب شجرة النور أنّه كان إماما في الحديث، وقال ابن حيّان كان متقدّما فيه، إلاّ أنّ ابن الفرضي وابن فرحون يؤكّدان على "أنّه لم يكن له علم بالحديث، ولا معرفة بصحيحه من سقيمه". أنظر: إبراهيم بن نور الدين بن فرحون(799هـ/ 1397م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنّان، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1417هـ/ 1996م، ص 253. وابن الفرضي، المصدر السابق، ج 01، ص 313.

(69) محمّد بن خير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 265.

(70) الضبّي، البغية، ت 1063. وانظر ذلك في مخطوطها بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية، تحت رقم 40/ 809. وقد ضبط اسمها بالواضحة في السنن و الفقه.

(71) ابن الفرضي، المصدر السابق، ص 313.

(72) ابن فرحون، الديباج، ص 254.

(73) نفسه، ص 253.

(74) عبد الرحمان بن خلدون: المقدّمة، تحقيق أحمد الزعبي، د ط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د ت، ص 488.

(75) مصطفى الهروس: المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1413هـ/ 1997م، ص 376.

(76) نفسه، ص 380.

(77) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 488.

(78) محمّد بن حارث الخشني(361هـ/ 971م): أخبار الفقهاء والمحدّثين، تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مطبوعات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد 1991، ص 119.

(79) ابن الفرضي، ج 02، ص 08.

(80) عبد الرحمان بن خلدون، المقدّمة، ص 488.

(81) آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، د ط، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955، ص 419.

(82) ابن الفرضي، ج 02، ص 08.

(83) محمّد بن أحمد أبو الوليد بن رشد(520هـ/ 1126م): البيان والتحصيل، إعداد محمّد حجّي وسعيد اعراب، ط 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1408هـ/ 1988م، ج 19، ص 06.

(84) ابن خلدون، المقدّمة، ص 488.

(85) أحمد بن محمّد المقّري: المصدر السابق، م 02، ص 216.

(86) ابن خلدون، المقدّمة، ص 488.

(87) عياض بن موسى اليحصبي أبو الفضل(544هـ/ 1149م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمّد سالم هاشم، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ/ 1998م، ج 01، ص 450.

(88) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 01، ص 29.

(89) محمّد بن حارث الخشني: أصول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك، تحقيق مجموعة، د ط، الدار العربية للكتاب، بيروت 1985، صفحات 24-27.

(90) محمّد حجّي: نظرات في النوازل الفقهية، ط 01، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء 1420هـ/ 1999م، ص 30.

(91) مصطفى الصمدي: فقه النوازل بالأندلس تاريخا ومنهجا، أطروحة دكتوراه مرقونة، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمّدية، المغرب، السنة الجامعية 2000-2001.

(92) معلوم أنّ من واقعية الشريعة تمثّلها للوقائع كما حدثت دون تحريف زمان أو مجانبة مكان أو تحوّل حال.

(93) اذكر المسألة بنصّها لأهمّيتها، ولدلالتها.

(94) محمّد بن أحمد بن رشد(520هـ/ 1126م): فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1407هـ/ 1987م، س 03، ص 1436.

(95) أذكر المهمّ من جواب المسألة إذ شرحها يطول بالبحث.

(96) ابن رشد، الفتاوى، س 03، ص 1436.

(97) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكّي، ط 01، دار المعارف، القاهرة 1405هـ/ 1985م، ص 150.

(98) لا يخفى على الدارس أنّ مفهوم الإمامة في نسيج الفكر الإسلامي كان محور الاختلالات المذهبية والاجتماعية.

(99) من النكت المنهجية أنّ أحدهم زعم أنّ مالكا لا يستدرك عليه. أنظر:
شمس الدين محمّد بن محمّد الراعي(853هـ/ 1453م): انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، تحقيق محمّد أبو الأجفان، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ص 246.

(100) أنظر تأثير الدراسات الحديثية في ظهور بعض المذاهب بالأندلس في رسالتنا الموسومة: ابن حزم وظاهرة التجديد، رسالة مرقونة، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2001/2002.

(101) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 01، ص 94.

(102) محمّد بن عمر بن الفخّار(419هـ/ 1028م): الانتصار لأهل المدينة، تحقيق محمّد التمسماني الإدريسي، ط 01، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط 1430هـ/ 2009م، ص 94.

(103) المقّري، المصدر السابق، ج 01، ص 557.

(104) المقدسي، المصدر السابق، ص 236.

(105) لعلّ هذا يؤكّد دور موقع المدينة في وجدان المسلمين عامّة، و الأندلسيين خاصّة.

(106) المقدسي، المصدر السابق، ص 236.

(107) الونشريسي، المعيار، ج 06، ص 357.

إشكاليةُ توثيقِ النِّسْبةِ بينَ المؤلِّف والمؤلَّف

د/ أحمد عبد الباسط
معهد المخطوطات العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

لعلَّ الخطوةَ التاليةَ التي يخطوها المُحقّق بعد اختيارِه للكتاب المخطوط المُراد تحقيقُه، وقبل الشروع في الخطوات العمليّة للتحقيقِ مِن نسخٍ ومقابلةٍ وتخريج... إلخ، هو التأكّدُ مِن نسبةِ هذا العنوان المراد تحقيقه إلى مؤلِّفه.

وفي الحقيقةِ قد يبدو هذا الأمرُ بالنسبة لإخواننا الذين ينشدون فنَّ التحقيق أمرًا غيرَ ضروريٍّ طالما أنَّ الكتابَ المخطوطَ الذي بين يديه قد أُثبت عليه اسمُ المؤلِّف وعنوانُ الكتاب، فقط يقومُ بترجمة موجزةٍ للمؤلِّفِ المثبتِ على المخطوط، ثم يشرعُ في عمليّة التحقيق.

وليسَ هذا الأمرُ بصحيحٍ، وقد نبّهنا علماؤنا إلى أنّه قد يُثْبَتَ على المخطوط اسمُ مؤلِّف وعنوانٌ غيرُ صحيحين؛ إمَّا بداعٍ مِن دواعي التزوير والتزييفِ والانتحال، وإمّا لجهلِ قارئٍ مَا وقعت في يدِه النُّسخةُ مجرّدةٌ من اسمِ المؤلِّف أو العنوان فأثبتَ ما خالَه عنوانَها أو مؤلّفها الصحيح.

وقبلَ أنْ نتحدثَ عَنْ أسبابِ هذا الخطأِ المتعمّد أو غير المُتعمّد، ينبغي علينا أنْ نشيرَ إلى مُصطلحاتٍ ثلاثةٍ ذكرها العُلماءُ والمُحقّقون في كُتبِهم، واستعملوها بمعنىً واحدٍ، وهي: (**التزوير، والتزييف، والانتحال**)، وأكتفي فيها بضرب مثالٍ أو مثالَيْنِ للإيضاحِ.

أولا: التزييف:

جاءَ في لسان العرب لابن منظور، مادة (زيف): «الزَّيفُ: من وصْفِ الدَّراهم، يقال: زافَتْ عليه دَراهِمُه أَي صارت مَرْدُودةً لغِشٍّ فيها».

ويُقصد به اصطلاحًا: تصميمُ وثيقةٍ كاملةٍ ليست حقيقيّةً في المحتوى والتوقيع... إلخ، عن طريقِ المحاكاة أو التقليد، مثلُ تزييفِ العُملةِ الورقيّةِ.

وعليه فإنَّ تزييفَ المخطوطِ يُقصد به إعادةُ كتابتِه كاملًا بالنصِّ بقصدِ الإيهامِ بأنّه المخطوطُ الأصليُّ الذي كتبَه مؤلِّفُه أو الناسخُ الأوّلُ، مع تغييرِ الورقِ عن طريقِ تعريضِه للحرارةِ، وتغيير الحبر عن طريقِ تعريضِه للضوءِ لإعطاء الانطباعِ أنَّ المخطوطَ قديمٌ، وهو ما يُسمّيه المُرمّمون بالتعتيقِ[1].

ومثال التزييفِ:

(I) **مَا نُسب** مِن رسائلَ نبويّة أرسلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحُكّام في عصرِه. ورسائل الرسولُ ﷺ أمرٌ مؤكّدٌ ذكرته كُتبُ السِّيَر والتاريخ، ونصَّت على فحوى تلك الرسائل. لكنَّ الذي وصلَ إلينا مِن تلكَ الوثائق مختومًا بخاتمِ الرسولِ يدعونا إلى التشكُّكِ في صحّتِها. ومن تلكم الوثائق التي وصلت إلينا رسالةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم:

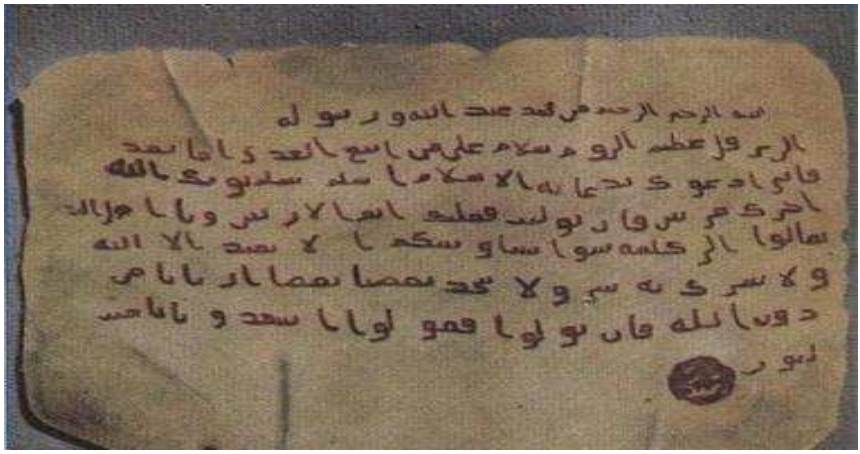

فقد دار حولها وغيرِها من الرسائل النبوية كثيرٌ مِن الجدالِ والنقاش بين مؤيّد ومعارضٍ، والذين ذهبوا إلى تزييفها اعتمدوا في مثل هذه الرسالة على أمرَيْن، هما:

1- التكلُّف الواضح في الخطِّ بما لا يمكنُ أن يعودَ إلى زمن النبيِّ.

2- وجودُ خطأٍ قرآنيٍّ نحويٍّ واضحٍ يستحيلُ أنْ يقعَ مِن النبيِّ، أو مِن أحدِ كُتّابه من الصحابة، وهو قولُه تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، كُتب: (شيءٌ) بدلًا مِن: (شيئًا)[2].

(2) **مَا ذكرَه** ياقوتُ الحمويّ في كتابه (**معجم الأدباء**)، في ترجمة الخطيب البغدادي(أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، ت 463هـ)؛ مِن أن بعضَ اليهودِ أظهرَ في زمنِ رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة (وزير القائم بأمر الله تعالى) كتابًا ادّعى أنّه كتابُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بإسقاطِ الجزيةِ عن أهل خيبر، وفيه شهاداتُ الصحابةِ، وأنّه بخطِّ عليٍّ ابن أبي طالبٍ. فلمَّا عرضَه رئيس الرؤساء على الخطيبِ البغداديّ قال: هذا مُزوّرٌ، فقيلَ له: مِن أين لك ذلك؟ قال: في الكتابِ شهادةُ معاويةَ بنِ أبي سفيان، ومعاويةُ أسلمَ يومَ الفتحِ وخيبرُ كانت في سنةِ سبعٍ، وفيه شهادةُ سعدِ بن معاذ وكان قد مات يومَ الخندق في سنة خمس[3].

ثانيًا: التزوير:

للتزوير معانٍ لغويّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

أ- إصلاحُ الكلامِ وتهيئتُه، وكلامٌ مُزوّرٌ، أي: مُحَسّنٌ، ومنه قولُ عمرَ بنِ الخطاب: «مَا زورتُ كلامًا لأقولَه إلا سبقني به أبو بكرٍ»، ومنه قولُ الشاعرِ:

أَبْــلِغْ أَمــيرَ المؤمنين رِسالةً تَــزَوَّرْتُها من مُحْكَمَاتِ الرَّسائِل

ب- شهادةُ الباطلِ وقولُ الكذبِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [سورة الحج، من الآية 30]، وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [سورة الفرقان، من الآية 72].

ج- وذهبَ ابنُ الأعرابيِّ إلى أنَّ كلَّ إصلاحٍ مِن خيرٍ أو شرٍّ فهو تزويرٌ[4].

وعليه فإنّه يمكنُ تعريف مصطلح (التزوير) بما عرّفه به الدكتور قاسم السامرائي، بأنّه: إنشاء أية وثيقة على أيّة مادةٍ، ونسبةُ هذه مع مادتِها إلى زمنٍ غير الزمنِ الذي كُتبت فيه؛ وذلك بتلفيقِ مادتها ومِن ثَمَّ نحلِها زمنًا أو مؤلِّفًا سابقًا على زمنِ الوثيقةِ المزورة[5].

والتزوير بهذا المعنى يتضمن تزويرَ الوعاءِ والمحتوى، عن طريقِ تأليفِ كلامٍ ليس صحيحَ النسبة لصاحبِه، مع تعتيقِ هذا الوعاء الماديّ بما يتلاءمُ مع الفترة الزمنية التي عاشها المنسوبُ إليه هذا الكلام.

وخيرُ مثالٍ على هذا النوعِ مِن التزوير (المحمود) مَا رواه لنا القِفطيُّ عن الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله، المعروف بابن سينا (ت 428هـ)؛ فقد ذكر أنّه كانَ يومًا بين يدي الأمير علاء الدولةِ وأبو منصورٍ الجبّانُ حاضرٌ، «فجرى في اللغةِ مسألةٌ تكلّم فيها الشيخُ [أي: ابن سينا] بما حضرَه، فالتفتَ الشيخُ أبو منصور إلى الشيخ يقولُ: إنّكَ فيلسوفٌ وحكيمٌ،

ولكن لم تقرأْ مِن اللغةِ مَا يُرضي كلامَك فيها!! فاستنكفَ الشيخُ مِن هذا الكلامِ، وعكفَ على درسِ كُتبِ اللغةِ، فبلغَ الشيخُ في اللغةِ طبقةً قلّما يتفق مثلها... وكتبَ ثلاثةَ كتبٍ، أحدها على طريقةِ ابنِ العميدِ، والثاني على طريقةِ الصاحبِ، والثالث على طريقةِ الصابي، وأمرَ بتجليدِها وإخلاقِ جِلْدِها، ثُمَّ أوعزَ إلى الأميرِ بعرضِ تلك المجلدةِ على أبي منصورٍ الجبّان، وذكرَ أنّا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيدِ، فيجب أنْ تتفقدَها وتقولَ لنا ما فيها...ففطنَ أبو منصورٍ أنَّ تلك الرسائل مِن تصنيفِ الشيخِ، وأنَّ الذي حملَه عليه ما جبَهه به في ذلك اليومِ، فتنصّلَ واعتذر إليه»[6].

ثالثًا: الانتحال:

هذا المُصطلحُ مشتقٌّ مِن مادة (نَحَلَ)، التي تأتي لأكثر مِن معنىً لغويٍّ، منها:

أ- الهبةُ والعطيّةُ: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [سورة النساء، من الآية:4]، أي: هبةً مِن اللهِ للنساءِ، فريضةً لهنّ على الأزواجِ، ومنه اشتُق (النُّحْل)، وهو مهرُ المرأةِ.

ب- المذهبُ والاعتقادُ: وهي (النِّحلةُ)، وجمعها: (النِّحَلُ)، وفلانٌ ينتحلُ مذهبَ كذا إذا انتسب إليه، ومنه كتبُ (المِلَلِ والنِّحَل) للشهرستاني وابن حزم.

ج- ادعاءُ الشيءِ للنفسِ وهو للغيرِ: وهو المعنى المقصود هنا، يُقال: انْتَحلَه وَتَنَحَّلَه: ادَّعاهُ لنَفسِه وهو لغَيرِه، وانْتَحلَ فلانٌ شِعرَ فلانٍ أو قَوْلَه: ادَّعاه أنّه قائلُه وهو لغَيرِه. ويقال:نُحِلَ الشاعرُ قَصيدةً: إذا نُسِبَتْ إليه وهي من قِبَلِ غيرِه[7].

ومن أمثلةِ هذا المعنى الأخير في تراثنا العربي والإسلامي:

(1) **مَا ذكرَه** النديم في (الفهرست) عن أبي بكرٍ محمد بن يحيى الصولي (ت335هـ) مِن أنّه عوّل في كتابه (أخبار سُديف ومختار شعرِه) على كِتَاب المَرْثَدِيِّ في (الشعر والشعراء)، وزادَ: «بل نقلَه نقلًا وانتحلَه، وقد رأيتُ دُستورَ الرجلِ خرجَ مِن خِزَانة الصُّولي، فافتَضَحَ به»[8].

(2) **ما رواه** النديم -أيضًا- حكايةً من خطِّ جعفر ابن المُكتفي، «قال: قرأتُ في كتابٍ بخطِّ ابنِ الجهمِ ما هذه حكايتُه: كتابُ (المدخل) لسَنَدِ بن عليٍّ، وهبَه لأبي معشرٍ فانتحله أبو معشرٍ؛ لأنَّ أبا معشرٍ تعلَّمَ النُّجومَ على كِبَرٍ، و لم يبلغْ عقلُ أبي معشرٍ صَنْعَةَ هذا الكتابِ ، ولا

التّسْعِ المقالاتِ في المواليدِ، ولا الكِتابِ في القِرَانات المنسوبِ إلى ابن البازيار، هذا كُلُّه لِسَنَدِ بن عليٍّ»[9].

– أسبابُ التزوير والتزييف المُتعمّد في نسبةِ الكتابِ إلى غيرِ مؤلِّفه:

لم تخلُ –للأسف– عصورُنا الإسلامية الزاهرة مِن لحظاتٍ معتمةٍ، تمثّلت أوّل مَا تمثّلت في طائفةٍ مِن المؤلفين أحبّت الشهرةَ والصيت، وأرادت لنفسها أنْ تُحمدَ بما لم تفعل، فسطت على مؤلفات الآخرين وانتحلتها لأنفسِها. وكذا وجودُ مجموعة مِن النُّسّاخِ غير الأُمناءِ، أرادوا جمعَ المالِ الوفيرِ، فأخذوا يستنسخون تلك النصوص المغمورة وينسبوها إلى المشاهير مِن المؤلفين حتى يجدوا مَنْ يشتريها منهم.

وهناك أسبابٌ أخرى دعت طائفةً مِن الناس إلى اللجوءِ إلى هذا النوعِ مِنَ التضليل، وقد تمَّ التنبّه إلى خِدَعهم، وكشفَ العُلماءً –قديمًا وحديثًا– عنها. ويمكنُ تحديد أسبابِ التزوير والتزييف في العناصر التالية:

I– المزاحُ والتنكيتُ: حيثُ يكونُ الهدفُ مِن التزوير أو التزييف إثباتَ مهارةِ المزوِّر ومقدرتَه على الإتيانِ بمثل النصِّ المُزوَّرِ. وقد سبق أنْ ضربتُ مثالًا على ذلك مِن خلالِ مَا أوردَه القفطي عن الشيخ الرئيس ابن سينا. وثمّةَ مثالٌ آخر أشدُّ دلالةً على هذا العنصر، فقد حكى ياقوتٌ الحموي عن أبي الحسن عليّ بن هلالٍ، المعروف بابن البواب (ت 423هـ)، قال: كنت أتصرف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري، وأراعيها له، وأَمْرُهَا مردودٌ إليَّ، فرأيت يومًا في جملة أجزاء منبوذة جزءًا مجلدًا بأسودَ... ففتحتُه وإذا هو جزءٌ من ثلاثين جزءًا من القرآن بخطِّ أبي علي بن مُقلةَ، فأعجبني وأفردتُه، فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلطٍ في جملة الكتب إلى أن اجتمع تسعةٌ وعشرون جزءًا، وبقيَ جزءٌ واحدٌ استغرقتُ تفتيشَ الخزانة عليه مدةً طويلةً فلم أظفر به، فعلمتُ أنَّ المصحف ناقصٌ. فأفردتُه ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت: يا مولانا، ههنا رجل يسأل حاجةً قريبةً لا كلفةَ فيها، وهي مخاطبة أبي عليٍّ الموفق الوزير على معونته في منازعة بينه وبين خصم له، ومعه هديةٌ ظريفةٌ تصلحُ لمولانا. قال: أيُّ شيءٍ هي؟ قلتُ: مصحفٌ بخط أبي علي بن مُقلة. فقال: هاتِه وأنا أتقدمُ بما يريد.

فأحضرت الأجزاء فأخذ منها واحدًا، وقال: أذكرُ وكان في الخزانة ما يشبه هذا وقد ذهب عنّي. قلتُ: هذا مصحفُك، وقصصتُ عليه القصة في طِلْبَتِي له حتى جمعتُه إلا أنه ينقص جزءًا،

وقلتُ: هكذا يطرح مصحفٌ بخط أبي علي؟ فقال: لي: فتمّمْه لي. قلت: السمعَ والطاعةَ، ولكن على شريطة أنك إذا أبصرت الجزء الناقص منها ولا تعرفه أن تعطيَني خلعةً ومائة دينار. قال: أفعلُ.

وأخذت المصحف من بين يديه وانصرفتُ إلى داري، ودخلت الخزانةَ أقلّبُ الكاغدَ العتيقَ وما يشابه كاغدَ المصحفِ، وكان فيها من أنواع الكاغد السمرقندي والصيني والعتيق كلٌّ ظريف عجيب، فأخذت من الكاغد ما وافقني، وكتبتُ الجزءَ وذهّبتُه وعتّقتُ ذهبَه، وقلعتُ جلدًا مِن جزءٍ مِن الأجزاءِ فجلّدتُه بهِ وجلّدتُ الذي قلعتُ منه الجلدَ وعتّقتُه، ونَسِيَ بهاءُ الدولةِ المصحفَ، ومضى على ذلك نحوَ السَّنةِ. فلما كان ذاتَ يومٍ جرى ذكرُ أبي علي بن مقلة، فقالَ لي: ما كتبتَ ذلك؟ قلت: بلى. قال: فَأَعْطِنيه. فأحضرتُ المصحفَ كاملاً فلم يزل يقلّبه جزءًا جزءًا وهو لا يقفُ على الجزء الذي بخطّي، ثم قال لي: أيما هو الجزء الذي بخطِّك؟ قلت له: لا تعرفْه فيصغرْ في عينك، هذا مصحف كامل بخط أبي علي بن مقلة ونكتم سرنا؟ قال: أفعل. وتركَه في ربعةٍ عند رأسه ولم يُعِدْه إلى الخزانة، وأقمتُ مطالبًا بالخلعة والدنانير وهو يَمْطُلُني ويَعِدُني، فلما كان يومًا قلت يا مولانا: في الخزانة بياضٌ صينيٌّ وعتيقٌ مقطوعٌ وصحيحٌ، فتعطيني المقطوعَ منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير. قال: مُرْ وخُذْه، فمضيتُ وأخذتُ جميعَ ما كان فيها من ذلك النوعِ فكتبتُ فيه سنينَ[10].

2- حبُّ الشهرة والصيتِ لدى بعضُ المؤلِّفين أو أصحاب المكتبات: أمَّا المؤلِّفون فقد سجّلت لنا كتبُ التراجمِ والتاريخ نماذجَ عديدةً صدرت عَن أعلامٍ مبرّزين، تدينُهم بالإغارةِ على مؤلَّفاتِ الآخرين ونسبتِها إليهم. كما سجلت هذه المصادر ــ أيضًا ــ شكوى كثيرٍ مِنَ العُلماء مِن سرقةِ كُتبهم ونسبتِها إلى غيرِهم؛ حتى وجدنا واحدًا كالسيوطيِّ (ت911هـ) يؤلِّف كتابًا أسماه: (**الفارق بين المُصنّف والسارق**)، يشكو فيه مِن سرقةِ كُتبه وانتحالِها.

ومِن تلك الأمثلة:

- ما نقله الصفديُّ عن المرزبانيِّ، واتهامه محمدَ بن حبيب (ت 245هـ)، وهو مَنْ هو في العلم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، قال: «كان محمد بن حبيب يُغير على كُتب الناسِ فيدّعيها، ويُسقطُ أسماءَهم. فمِنْ ذلك: الكتاب الذي ألّفه إسماعيل بن أبي عُبيد الله، واسمُ أبي عُبيد الله معاوية، وكنيتُه هي الغالبةُ على اسمِه، فلم يذكرْها لئلّا يُعرف. وابتدأ فساقَ كتابَ الرجلِ مِن أوّلِه إلى آخره ولم يُغيّر فيه حرفًا ولا زادَ فيه»[11].

– ما رواه المراكشي في كتابه (**الذيل والتكملة**) عن محمد بن أبي الحسين بن زرقون، من اتهام ابن رشد الحفيد (ت 595هـ) بذلك، قال: «واستُقضيَ بإشبيليةَ ثم بقرطبةَ فنظرَ حينئذٍ في الفقهِ، وصنّفَ كتابَه (بداية المجتهد وكفاية المقتصد)، ونقلتُ مِن خطِّ التاريخيِّ المقيِّد المفيد أبي العباس بن علي بن هارونَ مَا نصُّه: أخبرني محمد بن أبي الحسين بن زرقونَ أنَّ القاضي أبا الوليد بن رُشدٍ استعارَ منه كتابًا مُضَمَّنُهُ أسبابَ الخلافِ الواقعِ بين أئمة الأمصارِ، مِن وَضْعِ بعضِ فقهاءِ خُراسانَ، فلم يَردَّه إليه، وزادَ فيه شيئًا مِن كلامِ الإمامين: أبي عمرَ بنِ عبد البرِّ، وأبي محمّدِ بنِ حزمٍ ونسبَه إلى نفسه، وهو الكتابُ المُسمّى ببدايةِ المُجتهد ونهايةِ المقتصد. قالَ أبو العبّاس بن هارون: والرجلُ معروفٌ بالفقهِ وإنْ كانَ مقدّمًا في غيرِ ذلك مِنَ المعارفِ»[12].

ولعلَّ ذكرَ المؤلّفين أسماءَهم في ثنايا كُتبِهم، أو الإحالةَ المتكررةَ على مصنّفاتِهم الأخرى فيه نوعٌ مِن التنبّه إلى مثل تلك الظاهرة، كما يذكرُ ذلك الدكتور قاسم السامرائي. يقول: «وقد تنبّه المصنّفون المسلمون إلى مثل هذه الظاهرة فصاروا يذكرون أسماءهم أثناء تصانيفِهم، مثل: قال أبو محمد كما فعلَ ابنُ حزمٍ في مصنّفاتِه، أو: قال عبد القاهر كما فعل الأسفراييني، أو قالَ أبو منصورٍ كما فعلَ الثعالبي. أو أنّهم يحيلون على مُصنّفاتِهم الأخرى، وكل هذا مِن وسائل التوثيقِ للمفهرس أو للمحقّق»[13].

وأمّا مَا يرجعُ إلى أصحابِ المكتباتِ فيرشدنا حنين بن إسحاق إلى سببِ انتحالِهم الكتبِ بأنَّ ذلك راجعٌ إلى افتخارِهم، «وزهوهم بأنَّ في مكاتبِهم كتبًا لأعاظمِ المؤلفين القدامى أكثرَ ممّا يملكه غيرُهم مِن الناسِ»[14].

3– **النفعُ والحصولُ على المال**: حَفِلَ تُراثُنا العربيُّ القديمُ بنماذجَ مُشرقةٍ مِمّن امتهنَ مهنةَ الوِراقةِ، بل كانَ منهم العُلماءُ الذين اتخذوا النسخَ والوراقةَ مهنةً يتكسّبون مِن خلالِها، ومِن هؤلاء العلماء نجد محمد بن إسحاق النديم صاحب (الفهرست، والفيلسوف العربيّ أبا حيّانَ التوحيديّ صاحب (الإمتاع والمؤانسة)، وإسماعيل بن حمّاد الجوهريّ صاحب (الصحاح في اللغة)، وقد كان يُضرب به المثل في حسن الخطّ، وياقوت الحموي صاحب معجمي: الأدباء والبلدان، والمؤرخ الأديب صلاح الدين الصفديّ الذي كان يكتبُ الخطَّ المنسوبَ.

لكنَّ ذلك لم يمنع مِن وجودِ شريحةٍ مِن النُّسّاخِ غير الثقاتِ، لم يتورعوا عَنْ أنْ يختلقوا الكتبَ ويضيفوها إلى العُلماء؛ رغبةً منهم في الحصولِ على المكسبِ الماديِّ عَنْ طريقِ رواجِ بعضِ المؤلَّفات بعد نسبتِها إلى مؤلفين مشهورين.

ولقد حَفِظَ لنا كتابُ (**الفهرست**) للنديمِ جريمةً أولى مِن جرائم هذا النمطِ مِن التزويرِ، يتمثّلُ في كتاب (الأغاني الكبير) المنسوبِ إلى إسحاق بن إبراهيم الموصليّ، والذي يحدّثنا عنه ابنُه حمّاد بن إسحاق فيقول: «مَا ألَّفَ أبي هذا الكتابَ قطّ ــ يعني كتاب الأغاني الكبير ــ ولا رآهُ. والدليلُ على ذلك أنَّ أكثرَ أشعارِه المنسوبةِ إنّما جُمعت لما ذُكِرَ معها مِن الأخبارِ وما غُنّيَ فيها إلى وقتنا هذا، وأنَّ أكثرَ نسبةِ المُغنّينَ خطأٌ، والذي ألّفَه أبي مِن دواوينِ غنائِهم يدلُّ على بُطلانِ هذا الكتابِ، وإنّا وضعَه وراقٌ كان لأبي بعدَ وفاتِه، سوى الرُّخصةِ ــ التي هي أوّلُ الكتابِ ــ فإنَّ أبي ألَّفَها، إلا أنَّ أخبارَه كلَّها مِن روايتِنا»[15].

وأرشدنا الأستاذ عبد السلام هارون إلى كتاب (تنبيه الملوك والمكايد)، المنسوبُ خطأً إلى الجاحظِ (ت 255هـ)، ومنه صورةٌ مودعةٌ بدار الكتب المصرية، تحت رقم (2345أدب)؛ فقد عُنون أحدُ أبوابه بـ (نكت مِن مكايد كافور الإخشيدي)، وكافور الإخشيديّ كان يحيا بين سنتي 292هـ و357هـ، أي: بعد وفاة الجاحظِ بعشراتِ السنين[16].

4- الحُبُّ والتبعيّة للمؤلِّف الأصلي للكتاب: قد يُتوفى المؤلِّفُ الأصليُّ للكتابِ دونَ إكمالِ كتابه، فيأتي أحدُ تلاميذِه أو نُسّاخِه المُقرّبين ليُكملَ الكتابَ على نسقِه الأوّل مِن غيرِ إشارةٍ منهُ إلى ذلك، فيقعُ مِن هنا الخطأُ والتضليلُ. ولم أجد مثالًا على ذلك إلا مَا ذكرَه العُلماء حولَ معجم (العين) للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت 170هـ)، ومدى نسبتِه كاملًا له؛ حيثُ اتفقَ جمهورُ العُلماءِ على أنَّ الخليلَ لم يتمّه، ونقلَ ياقوتٌ عن الأزهريِّ أنَّ الليثَ بن المُظفر بن رافعِ بن نصرِ بن سيّار هُو الذي أكملَه، قال: «قال الأزهريُّ: كانَ الليثُ رجلًا صالحًا، ومات الخليلُ ولم يفرغْ مِن (كتاب العين)، فأحبَّ الليثُ أنْ يُنفّقَ الكتابَ كُلَّه فسمّى لسانَه الخليلَ، فإذا رأيتَ في الكتابِ (سألتُ الخليلَ) أو (أخبرني الخليل) فإنّه يعني الخليلَ نفسَه، وقال: وإذا قالَ: (قال الخليل) فإنّه يعني لسانَ نفسه، قال: وإنما وقعَ الاضطرابُ فيه مِن خليلِ نفسه».

ونقلَ ياقوتٌ أيضًا عن إسحاق بن راهويه قولَه: «كانَ الليثُ بن المظفر بن نصر بن سيار صاحبُ الخليلِ رجلًا صالحًا، وكانَ الخليلُ قد عَمِلَ مِن (كتاب العين) بابَ العينِ، فأحبَّ الليثُ أنْ يُنفّقَ سوقَ الخليلِ. ثم ذكرَ كما ذكرَ الأزهريُّ»[17].

5- الشكل المادي للمخطوط: وهذا العنصرُ يدخلُ في الشكل الثاني مِن الخطأ في نسبةِ الكتابِ إلى مؤلِّفِه، وهو جهلُ الناسخِ أو المالك للنسخة ووقوعه في الخطأ غير المقصود، فقد يكونُ المخطوطُ مجموعًا يشتمل على عدّة رسائل لأكثرَ مِن مؤلِّف، فينسبها ناسخُ المجموع إلى المؤلِّف الأوّل صاحبُ الرسالة الأولى. مثال ذلك مجموعٌ بدار الكتبِ المصرية تحت رقم (477 فقه حنفي) يشتملُ على عنوان: (التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية الحسنية في مذهب السادة الحنفية)، وهو عبارة عن ستّين رسالة لأبي الإخلاص حسن بن عمار الشُّرنبلالي (ت 1069هـ)، وفي ثنايا هذه الرسائل رسالةٌ لعليّ بن غانم المقدسي (ت 1004هـ)، وقد جعلها ناسخ المجموع ــ خطأً ــ للشرنبلالي، ونصَّ على ذلك في صفحة الغلاف.

هذه أهم أسباب التزوير والتزييف والخطأ والمتعمّد في نسبةِ الكتابِ إلى مؤلِّفه، ويمكنُ التغلُّب على ذلك مِن خلالِ الآتي:

1- الرجوعُ إلى كُتبِ التاريخِ والتراجمِ والطبقات لتوثيقِ المؤلِّف ومَا نُسِبَ إليه مِن مؤلَّفاتٍ (تاريخ الإسلام، سير أعلام النبلاء، طبقات الأطباء، طبقات الشافعية).

2- مراجعةُ المظان التي مِن شأنِها حصرُ المؤلَّفاتِ المختلفة ونسبتِها إلى مؤلِّفها (كشف الظنون، إيضاح المكنون).

3- الاطلاع على الببليوجرافيات المختلفة التي قامت بحصرِ مؤلَّفاتِ العُلماء (مؤلّفات ابن سينا ليحيى مهدوي، مؤلّفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي).

4- القراءةُ الجيّدة للمصادر والمراجع التي كتبت في الفنّ الذي يُعَالجُه النصُّ؛ فلربما يجدُ المحققُ نقولًا مختلفةً مِن هذا النصِّ الذي يريد تحقيقَه مضمّنةً في مصادر أخرى، وقد عُزيت إلى مؤلِّفها الحقيقيّ.

5- مراجعةُ فهارس المكتبات، وجمعُ أكبرِ عددٍ ممكنٍ مِنَ النُّسخِ الخطيّة ومضاهاة بعضها ببعضٍ.

6- تصفّحُ المراجع المعنيّة بحصرِ النُّسخِ الخطيّةِ في مكتبات العالم (تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وتاريخ التراث العربي لسزكين).

7- التمرّس بأسلوبِ مؤلّف النصِّ مِن خلالِ مُطالعةِ مؤلَّفاتِه الأخرى.

8- القراءة الجيّدة للنصِّ المُراد تحقيقُه، ومُضاهاة مَا وردَ فيه مِن مسائل وقضايا بالمؤلّفات الأخرى للمؤلِّف نفسه.

وختامًا، فإنَّ كلَّ عملٍ يفرضُ مشاكلَه وقضاياه، كما يفرضُ حلولَه وتوثيقَه الذي ربما يختلف عَنْ غيرِه مِنَ الأعمال. واسمحوا لي أنْ استعرضَ معكم نموذجٌ عمليٌّ حاولتُ فيه جاهدًا توثيقَ نصٍّ مغمورٍ لمؤلّف مغمورٍ أيضًا.

- الهوامش:

1- انظر: عابد سليمان المشوخي: التزوير والانتحال في المخطوطات العربية. الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط1. 2001، ص11 وما بعدها.

2- انظر تفصيل ذلك لدى: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. بيروت: دار النفائس، ط6. 1987م، ص107 وما بعدها.؛ وقاسم السامرائي: علم الاكتناه العربي الإسلامي. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1. 2001؛ ص357 وما بعدها.

3- ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: إحسان عبّاس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1. 1993م ، ج1/386.

4- انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرَيْنِ. القاهرة: دار المعارف، ط1. 1980م؛ والزَّبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرِين. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، 1965م، مادة (زور).

5- علم الاكتناه العربي الإسلامي، ص354.

6- جمال الدين علي بن يوسف القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحُكماء. القاهرة: مكتبة المتنبي، د.ت، ص275- 276.

7- انظر: لسان العرب لابن منظور؛ وتاج العروس للزَّبيدي، مادة (نحل).

8- محمد بن إسحاق النديم: الفهرست، تحقيق: أيمن فؤاد. لندن: مؤسسة الفرقان،ط1. 2009م، ج1/465.

9- الفهرست للنديم، ج2/238-239.

10- معجم الأدباء لياقوت، ج5/1997- 1998.

11- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات (طبعة المستشرقين الألمان). ألمانيا: فرانز شتايتر، 1974م، ج2/326؛ وانظر أيضًا: عابد سليمان المشوخي: أنماط التوثيق في المخطوط العربي في القرن التاسع الهجري. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1. 1994م، ص165.

12- أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، ط1. 1973م، ج22/6؛ وانظر أيضًا: علم الاكتناه العربي الإسلامي، ص377.

13- علم الاكتناه العربي الإسلامي، ص378.

14- انظر: أنماط التوثيق في المخطوط العربي، ص167.

15- الفهرست للنديم، ج438/1- 439.

16- عبد السلام محمد هارون: تحقيق النصوص ونشرها. القاهرة: مكتبة الخانجي،ط7. 1998م، ص46.

17- معجم الأدباء، ج2253/5- 2254.

المنشآت المائية بإفريقية خلال العصر الوسيط
دراسة حول استعمالات المفاهيم ودلالاتها من خلال كتب النوازل الفقهية

د/ مسطاري بوكثير

مدير دار الثقافة السند - قفصة

– مقدمة:

تعتبر المفاهيم، في مختلف الحقول المعرفية، الأدوات الأساسية التي يعتمدها الباحث لصياغة مقاربات واضحة ودقيقة تتوفر خاصّة على التحليل المعمّق والاستقراء المنطقي، وغيرها من المقومات الأساسية المعتمدة ضمن مناهج البحوث والدراسات. ونظرا لما تتطلبه المباحث التاريخية من دقّة واعتبارا لانفتاحها على مصادر بحث مختلفة من حيث مضمونها وتصنيفها والانتماء الجغرافي لأصحابها، فإن تحديد المفاهيم يكتسي أهمية بالغة ويمثل الأساس النظري الذي تنبني عليه المقاربة التاريخية.

ذلك أن خاصّية الثراء المفاهيمي الذي تتسّم به بعض القضايا المطروحة للدرس وإمكانية تناولها انطلاقا من زوايا بحث مختلفة، يجعل من هذه العملية ضرورة منهجية ومدخلا أساسيا لإثارة هذه القضايا. وهو الاطار الذي تتنزّل ضمنه هذه الدراسة التي تُعنى بالبحث في المفاهيم المتعلقّة بالماء والمنشآت المائية الواردة في كتب النوازل الفقهية.

وتهدف أساسا الى تبويب ما ورد في النص النازلي من تسميات لهذه المنشآت والبحث في دلالاتها واستعمالاتها المختلفة. مما سيمكننا من رصد التداخل والتماثل القائم بينها على مستوى المعاني والمقاصد والكشف كذلك على جزء كبير من منظومة المنشآت المائية المعتمدة سواء في المجال الحضري أو ضمن أنظمة الري والتهيئة المائية الريفية.

أوّلا: المنشآت المائية الطبيعية:

I – الأنهار: تسجل عبارة نهر حضورا مكثفا في جل مصادر البحث المألوفة لدى المؤرخ وفي المصنفات الفقهية على وجه الخصوص. إذ ذكرت في الأبواب والفصول الخاصة بالمياه ومصادر استخراجها[I].

كما ذكرت في فصول عامة تتناول مسائل مختلفة[2]، وترد في بعض الأحيان ضمن فصول لا توحي عناوينها بإمكانية التطرق إلى الأنهار[3]. ويمكن إن نتبيّن من خلال هذه النصوص جملة من الملاحظات الهامّة التي تعكس جانبا من طبيعة الانهار وخصائصها.

أ. **خصائص الانهار** يُذكر النهر غالبا مصحوبا ببعض النعوت كـ"الأعظم" و "الصغير" أو مصحوبا باسمه المخصوص كـ"نهر قابس" أو بالإحالة إلى طبيعة مجراه بالتفريق بين النهر الذي يكون مجراه على وجه الأرض والنهر الذي يكون مجراه محفورا في الأرض[4].

والواقع أنه لا نجد تعريفا دقيقا لعبارة نهر و لم توفّق بعض النصوص في التمييز بين الأنهار وغيرها من مجاري المياه، من ذلك أنها تطلق عبارة نهر على الوادي و تطلق عبارة وادي على النهر، لكن يمكن أن نميّز بينهما ونستخرج خصوصيات كل منهما استنادا إلى سياق النصوص.

- فالنهر يمكن أن يكون من إنشاء أناس يشقّونه للانتفاع به في السقي خاصّة[5]، أما الوادي فيتكون بمفعول مياه السيول التي تجري على المنحدرات وتؤدي بمفعول التعرية إلى تكوين مساحات طولية منخفضة على مستوى سطح الأرض مقارنة بالمنطقة المحيطة بها[6].

- تعتبر العيون والبطائح من المصادر الأساسية التي تغذي الأنهار في حين اقترن ذكر الأودية بمياه السيول خاصّة[7].

- ماء الوادي يكثر في الشتاء و يقلّ في الصيف[8]، في حين يعتبر النهر مجرى مائي ينحدر على الدوام لينتهي إلى البحر أو إلى نهر آخر أو ينتهي تدريجيا إلى الصحراء[9].

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقف على الفرق الأساسي بين الأودية و الأنهار فالوادي لا يؤمّن جريانا دائما للماء إذ تغذيه الأمطار بصفة موسمية وغير منتظمة، ومن ثم فإن الأودية أقرب إلى السيول منها إلى الأنهار التي تتغذى من مياه العيون خاصّة مما يؤمّن جريانها بصفة منتظمة[10].

ب. أصناف الانهار

تصنّف المصادر الأنهار اعتمادا على جملة من المعايير منها الوضعية العقارية للأرض التي يجري عليها النهر، حيث فرق الماوردي(370- 450هـ) بين أنهار العشر وأنهار الخراج[11]. كما اعتبر في ذلك حجم النهر وكيفية تكونه. وتفرّق المصادر في هذا الإطار بين كبار الأنهار التي أجراها الله ولا يحتفرها الآدميون وتتسع للزراعة والشرب ومياهها مشاعة بين الجميع، وصغار الأنهار التي أجراها الله وتنقسم بدورها إلى قسمين:

* الأنهار التي يعلو ماؤها وإذا لم تحبس، ولجميع أهلها الانتفاع بمائه شريطة عدم إلحاق المضرة ببقية المنتفعين.

* الأنهار التي لا يعلو ماؤها للشرب إلا بحبسها، يحتبس الأول إلى أن ترتوي أرضه ثم من يليه حتى يصل الماء إلى أخرهم.

وفي مقابل الأنهار التي أجراها اللّه تشير المصادر الى الأنهار التي يحتفرها أناس بغية إحياء أرض، فيكون النهر بينهم ملكا مشتركا ولا يختصّ أحدهم بملكه[12].

كما تفرق المصادر بين الأنهار بناء على مصادر المياه التي تتغذى منها هذه الأنهار، فهناك ما يتأتى من عيون مملوكة الأصل و هناك ما يتأتى من مياه السماء و ليس فيه من العيون إلا القليل ووفقا لذلك يمكن أن نفرّق بين الأنهار المتملّكة الأصل والأنهار غير المتملّكة الأصل[13] أو بين أنهار العامة وانهار الخاصّة[14].

ج. أسماء الأنهار والمجاري المائية

تتواتر في المصادر عدة عبارات قريبة من عبارة نهر وتتواتر عبارات أخرى تحيل عليه بصفة مباشرة، ويمكن أن نذكر منها الألفاظ التالية:

الزرنوق[15]: من مادة زرنق، والزرنوق: النهر الصغير كأنه أراد الساقية التي يجري فيها الماء الذي يستقي بالزرنوق لأنه من سببه"[16].

ربيع الماء[17]: الربيع: الجدول. والربيع: النهر الصغير، وهو السعيد أيضا، وفي الحديث: فعدل إلى الربيع فتطهّر[18].

مجرى ماء: والمقصود به الماء الجاري كما في النهر أو النهير أو الجدول أو الترع و القنوات و المجاري المائية و يعني كذلك الطريق الذي يسلكه النهر على الأرض[19].

الخليج[20]: النهر المختلج من الوادي وجمعه خلجان[21].

كما ذكرت المصادر بعض مكونات النهر، نذكر منها على وجه الخصوص:

صبّ الوادي[22]: ونقول المصب: وهو النقطة التي تربط النهر بالبحر.

عدوة النهر[23]: نقول عَدوة النهر وعِدوته : جانبه و حافته و الجمع عِدى وعُدى[24].

الشفير[25]: شفير الوادي، أعلاه وهو شفّته والشط تحت الشفير[26].

المخرج[27]: وهو النقطة التي ينبع منها النهر.

وعموما حضرت عبارة نهر حضورا قاموسيا مشتركا مع عدة عبارات أخرى وكانت في أغلب الأحيان بعيدة عن الدقة[28]، ولا شك أن خصوصية المصنفات التي اعتمدنا نصوصها هي التي حددت السياقات التي وردت ضمنها هذه العبارة. فكتب الجغرافيا كان وصفها للأنهار في الحدود التي تسمح بإبراز أهمية هذا المورد المائي في حياة القرى، حيث تستعمل مياهها للسقي والشرب[29]. أما المصنّفات الفقهية فقد فصّلت القول في الحديث عن أنواع مياه الأنهار من الناحية الشرعية و أوجه ملكيتها وحدودها وأطنبت في الإفتاء حول النزاعات التي تثار حول المياه خلال فترات السقي، لذلك كان اهتمامها بالمصطلحات اهتماما عرضيا[30].

2- العيون

ـــ تدرج العيون ضمن منشآت المياه المستخرجة من باطن الأرض[31]، وهي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض و يسيح على أديمها في شكل مجاري مائية تختلف من حيث العذوبة ومن حيث الاهمية[32]. وتتواتر عبارة عين بشكل ملحوظ في المصنفات الفقهية خاصّة، غير أنها تذكر في غالب الأحيان إلى جانب الآبار بناء على انطباق نفس الأحكام الشرعية على البئر وكذلك العين. فترد في صيغ من قبل "الآبار والعيون"[33]، "الآبار(...) وكذلك العيون"[34] " البئر أو العين"[35].

ومن هذا المنطلق فإن للعبارتين دلالات مشتركة بينهما وتعبّر إحداهما عن الأخرى. كما ترد عبارة عين مصحوبة ببعض النعوت التي تفيد وفرة الماء فيها كـ "العين الحية "[36] أو تحيل إلى عذوبة مائها ودوام جريانه كـ "العين المأمونة"[37] أو تصنّف بالنظر إلى وجه ملكيتها وطبيعة الانتفاع بمياهها فنجد عبارة "عين مملوكة" أو "عين مشتركة "[38].

وقد تناولت المصنفات الفقهية عيون الماء ضمن إطار تشريعي تقسم فيه العيون إلى قسمين:

- **العيون الطبيعية أو الراشحة**: وهي غير المستحدث من العيون وإنما "مما أنبع الله تعالى و لم يستنبطه الآدميون[39] ولمن أحيا أرضا بمائها أن يأخذ قدر كفايته فإن تقدم فيه بعضهم على بعض كان لأسبقهم إلى الإحياء أن يستوفي منها شراب أرضه ثم لمن يليه"[40]. وتهيأ العيون الطبيعية غالبا وكما يدل على ذلك اسمها بشكل طبيعي فيما يتمثل في منطقة رشح مائي ومن ثم يتدخل الإنسان لتهيئتها والانتفاع بمائها.

- **العيون المستحدثة** : تنقسم بدورها إلى قسمين:

* ما يستنبطه الرجل في غير ملكه: تكون ملكا لمن استنبطها ولمالكها سوق مائها حيث شاء[41]، شريطة عدم إلحاق مضرة بجاره[42].

* ما يستنبطه الرجل في ملكه: صاحبها أحق بمائها لشرب أرضه فإن كان قدر كفايتها فلا حق عليه فيها إلا لشارب مضطر، وإن فضل عن كفايته وأراد أن يحيي بفضله أرضا مواتا فهو أحق به لشرب ما أحيا[43].

انطلاقا مما تقدّم تبدو إضافة المصنفات الفقهية واضحة فيما يخص العيون ومقارنة بالمصنّفات الجغرافية على وجه الخصوص، فقد أورد الجغرافيون العيون ضمن إشارات عارضة عند وصفهم للمدن والتجمعات السكنية، وإقتصر هذا الوصف على عبارات مقتضبة من قبيل "عين ثرة"[44]. أو "عين عظيمة عذبة"[45]. وهي في مجملها عبارات تعكس وفرة ماء العيون وعذوبته. أو يشيرون إلى العين باسمها المخصوص مثل "عين الشمس" بمدينة باجة[46] أو "عين المنستير" بمدينة قفصة[47]. في حين أوردت المصنفات الفقهية معطيات مفصّلة ودقيقة. وقد تعلّق بعضها بأصناف العيون المشار إليها أعلاه، وتعلّقت معطيات أخرى بقسمة مياهها وإحيائها عندما تغور[48]. إضافة إلى الثراء اللغوي الذي تتميز به هذه المصنفات والذي يبرز في الإحالة إلى العين بعبارات مختلفة من قبيل "ينبوع الماء"[49]، ويبرز كذلك من خلال تواتر عدة عبارات لها علاقة بالعيون، منها على سبيل المثال:

- **خمُّ العين**[50] ، نقول خمامة البيت أو البئر: ما كسح عنها من تراب فالسقي بعضه على بعض[51].

- **غياض العيون**[52]: وردت كلمة "**مغيض**" بمعنى قناة للسقي وغيضون بمعنى رجّاحة لاغتراف الماء وهي عبارة عن خشبة طويلة يعلّق على أحد طرفيها سطل وفي الطرف الآخر قطعة من خشب أو من حجر للمحافظة على التوازن بين الطرفين[53].

3- الغدران

"**الغدير**" من العبارات – المفاهيم التي لم تحظ باهتمام كبير في المصادر، إذ أنها لم تسجّل حضورا ملحوظا وتواترها كان محدودا للغاية حتى أن بعض المصنفات لم تذكر هذه العبارة تماما[54].

ويرد لفظ غدير عادة:

– للإشارة إلى موضع لصيد الأسماك[55]، ونادرا ما يذكر كأحد المنشآت المائية المهيأة لسقي المزروعات والشرب.

– كما ترد الغدران في علاقة بمنشآت مائية أخرى كالأضوات[56] والأحواض وتشترك معها في الأحكام الفقهية، من ذلك أنه يجوز الانتفاع بهذه المنشآت في جميع الوجوه[57].

وتبدو عبارة غدير أكثر وضوحا في المصنفات الجغرافية، إذ ذكرت في إطار وصف القرى والمدن كمصدر من مصادر المياه التي يتغذى بها متساكنو المدينة والريف وينتفعون بها لسقي مزروعاتهم، من ذلك أنه كان يوجد وسط مدينة تماجر "**غدير ماء وحوله غابة زيتون وأعناب**"[58].

كما أمدتنا معاجم اللغة بتعريف دقيق للغدير باعتباره قطعة من الماء يغادرها السيل أي يتركها وهو مستنقع الماء، ماء المطر صغيرا كان أو كبيرا غير أنه لا يبقى إلى القيظ إلا ما يتخذه الناس من عد أو وجد أو صهريج[59].

ويضيف دوزي Dozy أنه المنخفض من السهل حيث تتجمّع مياه الأمطار ونجد فيه بعض الأشجار[60]. وتقع الغدران عادة في مسيل المياه وتتكون من بقايا مياه المطر ولا تتسع مساحتها ولا تفيض مياهها[61].

وما يشد انتباهنا في هذا الإطار تواتر عدة عبارات تشير إلى منشآت مائية قريبة من الغدير أو تعبّر عنه بصفة مباشرة، فالأضيات أو الأضوات والأحواض والبرك والغدران تدخل كلها ضمن المنخفضات الطبيعية التي تستعمل مياهها خاصّة لسقي المزروعات.

ـــ **الأضاة** : هي المنخفض من الأرض المنقور في الصخر والذي يتجمّع به ماء المطر، والأضاة : الغدير، وعند إبن سيّدة الماء المستنقع من سيل أو غيره والجمع أضوات وأضيات[62].

ـــ **البركة** : البركة كالحوض و الجمع برك، قيل سميت بذلك لإقامة الماء فيها و يقول إبن سيّدة البركة شبه الحوض يحفر في الأرض ولا تجد له أعضاء فوق أديم الأرض[63].

ـــ **بحيرة** : مسطّح مائي يشغل هوة منخفضة من سطح الأرض و يحيط به اليابس من جميع الجهات و في أغلب الحالات تكون كمية المياه التي تدخل البحيرة أكبر من تلك التي تفقد بالتبخر، كما أنه عادة ما يخرج منها نهر من ثمة تكون مياهها عذبة[64].

بناء على ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الانتفاع بمياه الغدران سواء للسقي أو للشرب محدود للغاية، لذلك قلّما نعثر على عبارة غدير في المصنفات الفقهية وكتب الجغرافيا، وهي ترد غالبا في أطار الإفتاء في طبيعة وأوجه الانتفاع بماء المنخفضات الطبيعية التي تعتبر مياهها ملكا مشتركا و للجميع الحق في الانتفاع بها[65].

ثانيا: المنشآت المائية المستحدثة

I. الآبار

يعتبر لفظ بئر من العبارات ـــ المفاهيم الأساسية في كتب الفتاوى والنوازل وفي غيرها من المصادر التي تطرقت إلى المياه و مصادر استخراجها[66]. وتعزى هذه الأهمية الى أسباب متعددة. فالآبار توجد في المجال الريفي والمجال الحضري على حد سواء وتبعا لذلك وردت ضمن المسائل التي تهم الريف و المسائل التي تهم المدينة[67]. كما تدرج الابار ضمن منشآت "المياه المستخرجة" في المجال الريفي[68]، وتستعمل مياهها للشرب أو للسقي. وتزداد أهمية هذه المنشآت خاصّة في الأرياف التي تفتقد إلى مصادر مياه أخرى[69]، ثم إن حفر بئر يعتبر أحد أهم شروط إحياء موات الأرض وعمارتها[70].

أ. أنواع الآبار

حددت مصنفات الفقه مختلف أوجه الانتفاع بمياه الآبار بناء على الأحكام الفقهية التي قسمت الآبار إلى:

ـــ **آبار الماشية** : و تنقسم بدورها إلى قسمين :

* الآبار التي تحتفر في الفلوات[71]: يسميها الماوردي آبار السابلة، يكون ماؤها مشتركا وحافرها فيهم كأحدهم[72]. لا يكون فيها بيع ولا عطية وصاحبها الذي احتفرها وورثته أحق بمائها قبل غيرهم ثم ليس لهم منع الناس أن يستقوا بفضلها لأنها تعتبر من آبار الصدقة[73].

* الآبار التي يحتفرها المرء في أرضه لمنفعته ولصاحبها بيعها وبيع مائها[74] وهي كالبئر البادية[75]، أصحابها أحق بمائها طالما أقاموا عليها في نجعهم، فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة ويكون السابق إليها أحق بمائها[76].

- **آبار الزرع**: هي الآبار التي تحتفر لسقي المزروعات، ولصاحبها الحق في بيعها وهو أولى بفضلها، ولا يجبر أحد على أن يبيع فضله لمن يسعى به إلا أن تمور بئر جاره فيخاف على نخله أو زرعه فيقضى له أن يسقى بفضل ذلك الماء حتى يصلح بئره[77].

-**آبـــار الشفة**[78]: والمراد بها الآبار التي تستعمل للشرب لا التي تستعمل لســـقي الأرض ويمكن أن نفرق بين نوعين من آبار الشفة:

* البئر التي يحتفره الرجل في أرضه أو داره ويمكن له بيعها وبيع مائها. على أن صـــاحبها أحق بمائها من الناس[79].

* البئر التي يحفرها الرجل في الصحراء وفيافي الأرض مثل "مواجل طريق المغرب"، وقـــد كان مالك بن أنس يكره بيع هذا الصنف من الآبار من دون أن يحرّم ذلك، وهي مثل آبـــار الماشية فليس لأهلها منع فضلها وأما المارّة فلا يمنعون لشفاههم ودوابهم"[80].

كما أوردت المصادر بعض التصنيفات الأخرى للآبار من ذلك أن أبـــا العبـــاس أحمـــد الفرسطاني (ت 504هـــ/1110م) يقسّم الآبار الى قديمة وأخرى محدثة وأخرى لا يعرف أنها قديمة أو محدثة[81]. أما ابن العوام فيصنّفها حسب الشكل الى "بير مستديرة الأسفل ومستطيلة الفم ويعرف بالعربي، وبير مستطيل الأسفل والفم و يعرف بالفارسي وقد يكون البئر المستدير الأسفل أكثر ماء من المستطيل إذا كانت استدارتة على تلك الاستطالة لأنه يكـــون أوســـع فما"[82].

ب. أسماء الآبار والعبارات الدالّة عليها

- الرّكية: هي البئر القليلة الماء[83].

- القليب[84]: وهو البئر قبل أن تطوى فإذا طويت فهي الطوي، والجمع القلب، وقيـــل هي البئر العادية القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر، وقيل هي البئر القديمة مطوية أو غـــير مطوية[85].

- الجبُّ[86]: وهو البئر مذكّر، وقيل هي البئر لم تطو وقيل هي الكثيرة المـــاء، البعيـــدة القعر، ويضيف ابن دريد قوله "لا يكون جبّا حتى يكون مما وجد محفورا لا مما حفر الناس"[87].

- الحسي[88]: أدرجهما ابن سيّدة ضمن فصل الابار الصغار و نحوها و هو على حـــد قوله مستنقع الماء، و لا يكون إلا فيما سهل من الأرض[89]. وتستعمل هذه العبارة غالبـــا في

الصحراء للدلالة على الآبار غير المبنية و بدون مثابات[90]. فهي بمثابة الحفرة تكون في مجـــرى الوادي وتنتشر خاصّة في السباسب التونسية ومنطقة طرابلس[91].

ومن العبارات التي تحيل على بعض مكونات البئر والتي وردت في المصنفات الفقهية خاصّة يمكن ان نذكر:

- القُفُّ: وردت في النوادر والزيادات بمعنى "الحوض الذي يفرغ فيه الدلو ويجري منه الى الطفيرة"[92].

- الزرنوق[93] : الزرنوقان، هما الحائطان اللذان بنيا من جانبي البئر، وفي المعاجم منارتان على رأس البئر من جانبيهما فتوضع عليهما النعامة[94].

- الطيّ: هو البناء الذي تسند به جدران البئر كي لا تتساقط الحجارة في القاع وينتج عن ذلك ردم البئر[95]، ويعتبر الماوردي أن طي البئر من كمال الإحياء واستقرار الملك، إذ يقول "وإذا استنبط ماؤها (أي البئر) استقر ملكا بكمال الإحياء، إلا أن يحتاج الى طي، فيكون طيّها من كمال الإحياء، واستقرار الملك، ثم يصير مالكا لها و لحريمها"[96] ومن جه أخرى يعطي ابن الرامي أهمية بالغة للطي عند المؤاجرة في البئر[97].

نلاحظ بناء على ما تقدم، حضور الآبار بصفة مكثفة في المصنفات الفقهية، ولئن تناولت هذه المصنفات الآبار من وجهة نظر المشرع، فإنها كشفت عن ثراء لغوي لا نجده في غيرها من المصادر، فذكرت للبئر أسماء مختلفة نعرف دلالتها من خلال السياق الذي ترد فيه، كما أحالت على عدة عبارات قريبة من كلمة بئر أو عبارات تدل على مكوناتها، وهي في مجملها تستدعي الرجوع الى معاجم اللغة لمعرفة المعنى الحقيقي لها.

2. المواجل

تعتبر المواجل من المنشآت المائية التي أشارت إليها مختلف مصادر البحث بدون استثناء إذ نجدها ضمن:

– كتب الجغرافيا: وترد غالبا في إشارات عارضة في سياق وصف الجغـــرافيين للمـــدن والتجمعات السكنية، من ذلك أن البكري يفيدنا بأن مدينة المهدية تحتوي 360 مـــاجلا [98]، كما يخبرنا أن بمدينة تونس سبعة مواجل للماء أقباء على غرار واحد"[99]، أما مدينة شـــقبنّارية ففيها مواجل عظيمة ما تغيّر منها شيئا[100]. ولا تتعدى إشارات الجغرافيين مجرد الإخبار علـــى

وجود ماجل أو أكثر في هذه المدينة أو تلك، وهي تدرج من بين المرافق العامة الأساسية ضمن التجمّعات السكنية.

– كتب التاريخ: تذكر المواجل كإحدى المنشآت العمومية التي يقدم على إنجازها الحكام و أصحاب المبادرات الخيرية، ويفيدنا ابن عذاري المراكشي في هذا الإطار أنه في سنة 245هـ، أخرج أبو إبراهيم ابن الأغلب صاحب إفريقية مالا كثيرا لحفر المواجل وبناء المساجد والقناطر[101]. وفي سنة 252هـ خلال ولاية محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، قام محمد بن حمدون الأندلسي المعافري ببناء الجامع الشريف بالقيروان بالآجر والجص والرخام وبنى فيه جبابا للماء[102]. أما بمدينة صفاقس فقد صدر التدخل الأبرز في هذا الإطار من طرف السلطان الموحّدي الناصر بن يعقوب، فأثناء قدومه الى إفريقية من مراكش لإنقاذ البلاد من يد الميورقي (601هـ/1203م). دخل الى مدينة صفاقس "فوجدها في غاية العطش، واشتكى الناس ما هم فيه من العطش، فأمر ببناء مصانع لطيفة خارج البلد من شمالها، عدّة تلك المصانع بقدر أيام السنة، ثلاثمائة وخمسة وستون، وقال: يكفيهم كل ليلة ماجل، فبقيت على ذلك مدّة وسمّوها الناصرية"[103]. تكمننا الإشارات التاريخية الى المواجل من رصد بعض جوانب السياسة المائية بإفريقية والتطورات التي شهدتها هذه السياسة من فترة الى أخرى. ونظرا لإحالة هذه الإشارات الى مواقع المشاريع المائية فإن اعتمادها سيتيح لنا إمكانية رسم خارطة التوزع الجغرافي للمواجل بإفريقية خلال العصر الوسيط.

– كتب الفتاوى والنوازل: يفتح لنا هذا الصنف من المؤلفات عدة منافذ للبحث في ظاهرة المواجل، حيث أن استقراءها يمكننا من تصنيف هذه المنشآت المائية من وجهة نظر المشرع ودراسة أوجه الانتفاع بمياهها. كما أن تتبّع النصوص يمكننا من رصد المفاهيم التي تحيل على منشآت مائية تشبه المواجل أو مفاهيم أخرى تحيل مباشرة الى المواجل. إضافة إلى ما تتضمّنه من معطيات تتعلّق بشكل المواجل وهندسة بنائها ومواضع حفرها وتزويدها بالماء.

أ. عبارات ذات صلة بالمواجل

الماجل من العبارات والمفاهيم المتعددة الدلالة[104]، حيث تتداخل وتتشابه مع عدة عبارات أخرى إلى درجة يصعب معها الفصل بين المنشآت المائية التي تحيل عليها هذه العبارات[105]. ومنها على وجه الخصوص:

- **الصهريج**: الصهريج واحد الصهاريج وهي كالحياض، يجتمع فيها الماء، ويضيف ابن سيدة: "الصهريج مصنعة يجتمع فيها الماء وأصله فارسي وأصله الصهري على البدل"[106]. وترد عبارة صهريج عموما بهذا المعنى في المصنفات الفقهية وكتب الجغرافيا، إذ نفهم من سياق بعض النصوص أن الصهريج يدخل ضمن منشآت التخزين ويعتبر عادة ملكية عامة يبنيه أهل قرية أو أهل مترل[107] وينتفعون به جميعا[108].

حيث يمكن أن يكون مصب نهر أو وادي تسقى به الأجنة والبساتين كما هو الشأن بمدينة طبنة، التي يصفها صاحب الاستبصار قائلا "وبها بساتين كثيرة النخل، والثمار ولها نهر يشق غابتها ، وقد بني له صهريج كبير يقع فيه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها"[109].

ومن خلال تتبعنا للنصوص، نلاحظ أنه ليس ثمة خصوصيات واضحة يمكن أن نفرق على ضوئها بين الماجل والصهريج، وغاية ما وصلنا إليه في هذا الصدد، أن الصهاريج تتسم بالضخامة[110] وارتبط ذكرها في المصنفات الفقهية خاصّة بالمسائل التي لها علاقة بالمجال الريفي، فالصهاريج تستعمل عموما للري أكثر مما تستعمل للشرب[111].

وذكرت المصادر بعض العبارات التي لها صلة بالصهاريج، يمكن أن نذكر منها:

– **الطفيرة** : ذكرها إبن أبي زيد القيرواني (310- 386هـ) في قوله "ورمُّ القف وهو الحوض الذي يفرغ فيه الدلو ويجري منه إلى الطفيرة وهي محبس الماء كالصهريج وإبار النخل وهو تذكيرها"[112]. كما وردت هذه العبارة في ممالك الأبصار للعمري، إذ يصف دور مدينة فاس العتيقة فيقول "وقدامها طفافير تجري إليها الماء ثم يخرج إلى بركة في وسط الصحن وتسمى البركة عندهم صهريجا"[113].

– **بكار الصهريج**: وردت هذه العبارة أكثر من مرة في كتاب الفلاحة الأندلسية لإبن العوام ونقول بكار الصهريج أي مقدم الصهريج أو بدايته[114] ويضيف دوزي أن البكار هو فوهة الخزان أو الحوض[115].

– **الجب**: وردت هذه العبارة في جل المصادر المعتمدة، فقد ذكرها التجاني في رحلته[116]، كما وردت في البيان لابن عذاري[117]، وتتواتر خاصّة في كتب الفتاوي والنوازل وكتب المسائل الفقهية[118]. ورغم غياب تعريف دقيق للجب، فإنه يمكننا أن نتبيّن الخصوصيات التي تميّزه عن غيره من المنشآت المائية وذلك استنادا إلى سياق النصوص وإلى بعض المسائل التي تهتم بذكر قيمة الجباب في عملية الري والتزود بالماء الصالح للشرب.

فعبارة جب تتداخل في معناها وتتشابه مع عبارتين على وجه التحديد:

– **عبارة بئر**: وقد سبق وأن أشرنا في فصل الآبار إلى ما أوردته مصنفات اللغويين في تعريفها للجب بأن اعتبرته من أسماء الآبار[119]. غير أن التداخل والتشابه مع البئر لم يكن عامّا إذ نجد في بعض النصوص واضحا بين العبارتين، فصاحب النوادر والزيادات يقول في أحد فتاويه " (...) وإذا حفر جبا فله ألا يشرب منه وليس كالبئر"[120]، ولا نشك أن تفريق المشرّع بين الجب والبئر يحيل إلى الاختلاف في الشكل ومواضع الحفر وطرائق الاستغلال.

– **عبارة ماجل**: لم نجد في معاجم اللغة ما يحيل إلى التطابق النسبي بين الماجل والجب في حين قرّبت كتب الفقه بين العبارتين، من ذلك أن ابن أبي زيد أشار إلى "**الجباب التي تجعل لماء السماء**"[121] بمعنى أن الجباب تتغذى من مياه الأمطار، شأنها في ذلك شأن المواجل.

وفي مسألة عن مدى شرعية استيفاء أهل الدور من جب المسجد أجاب الونشريسي "بأن ماء الجب المذكور إنما هو خاص بالمسجد المذكور، فيستعمل فيما حبّس خاصّة، ولا يجوز لأحد أن يستقي منه ليحمله إلى مترله لا بدلوه ولا بدلو المسجد وحبله"[122]. والنص هام في التدليل على وجود جباب للماء في المساجد في حين نعلم أن مساجد أخرى تتزود بالماء من المواجل، إضافة إلى أن استعمال الحبل والدلو لرفع ماء الجب إحالة واضحة إلى نفس الوسائل التي تستخدم لرفع ماء المواجل[123].

بناء على ما تقدم، نلاحظ وجود نقاط تشابه بين الماجل والجب، كما توجد في نفس الوقت نقاط اختلاف يمكن رصدها من النصين التاليين:

ورد النص الأول في النوادر والزيادات ومفاده: "فيمن وجد جبا في أرضه وباب الجب في أرض غيره ، قال: الجب لمن الباب في أرضه لأن منفعته له ومن حظه... فالجب لصاحب الباب"[124].

أما النص الثاني ، فقد أورده ابن الرامي في مؤلفه "الإعلا في أحكام البنين" ومفاده أن "خربة كانت دار فيما تقدم فاشتراها رجل(...) فوجد جبا ووجد عنده فم الماجل ووجد له فم في دار أخرى، فتداعيا إلى القاضي أبي يحي المغوري(...) فأمر أهل المعرفة أن ينظروا إلى الفم الذي يستقي منه هل محدث أحدثه الذي عمل الدار دون الذي الماجل في داره، أو هو قديم؟ فوجدوه كله بناء واحد وليس محدثا وأن قاعة الماجل مجرية إلى الجهة التي منها الاستيفاء فأخبروا بذلك القاضي"[125].

أوّل ما يمكن أن نستخلصه من هذين النصين وجود مراوحة بين عبارتي جب وماجل للتعبير على نفس الظاهرة وهو ما يدل على اشتراكهما في عدة خصوصيات. كما يفيدنا السياق بأن الجب عادة، وكما هو الشأن بالنسبة إلى الماجل، ما يكون مجهّزا بفتحة مبنية مغطاة لحماية الماء من الأتربة والغبار. وهذه الفتحة أحال عليها النص بـ "باب الجب" وتجعل لاغتراف الماء.

أما في ما يتعلّق ببناء الجباب من الداخل فإن المسألة يلفّها بعض الغموض، فقد أشار ابن الرامي إلى "بناء الماجل بالدار"[126]، وأشار كذلك إلى "قاعة الماجل"[127]، وفي المقابل فإن ابن منظور في تعريفه للجب أفادنا بأن "الجب حفرة يستنقع فيها الماء"[128]. وعموما يمكن أن نستخلص من النصوص أن الجباب خاصّة تلك التي توجد بالمدن، تكون مبنية على مستوى الفتحات التي تجعل للاستيفاء أو لاغتراف الماء، وتوجد عادة في صحن الدار.

وما يدعم رأينا هذا قول ابن الرامي: "والعرف عندنا في بناء المواجل (ويقصد هنا الجباب) أن يبذل له بابين : باب يبنى منه ويترل منه يكون واسعا في وسط داموسه وباب آخر يستقي منه ويكون ضيقا في جنب الماجل"[129]، لذلك فإننا لا نستبعد إمكانية أن يكون الجب مطليا من الدخل بملاط سميك وكتيم يمنع الماء من التسرب ويحمي الجدران من التآكل.

ثم إن مثار التراع في المسألة السابقة، امتداد الجب على ملكيتين أو أكثر مما يطرح مشكل من له الحق في الانتفاع بماء الجب ؟ خاصة أن البعض يعمد إلى فتح باب للارتفاق بمائه. وفي هذا الإطار يمكن أن نقف عند الفرق الأساسي بين الجب والماجل. فإذا كانت المواجل تحفر في الغالب بصفة عمودية فإن حفر الجباب يكون عموديا ثم يمتد أفقيا، لذلك عادة ما نجد فيه أكثر من باب ويرتفق بمائه أكثر من منتفع ومن أماكن مختلفة[130].

وينضاف إلى عبارتي "جب" و"صهريج" عدة عبارات أخرى تذكر في نفس السياقات التي ترد فيها عبارة مواجل، نذكر منها خاصة:

– خزان : من العبارات المتعددة الدالة، ترد في المصادر لتحيل إلى الآبار والصهاريج وكذلك إلى المواجل ، فقد ذكر الحسن الوزان مواجل مدينة القيروان قائلا "... ومن وسلات يجلب ماء الشرب إلى القيروان التي ليست فيها عين ولا بئر ماء عذب اللهم إلا بعض الخزانات ، غير أنه توجد خارج المدينة خزانات قديمة تمتلئ ماءا عند نزول مياه الأمطار"[131].

– فسقية: غاية ما توصلنا اليه في خصوص هذه العبارة أنها وردت في بعض المصادر للإحالة الى مواجل مدينة القيروان[132]. وورد تعريف لها في معجم البلدان الليبية مفاده "الحوض يجتمع فيه الماء وجمعها فساقي، وكثيرا ما تبنى هذه الفساقي في أرض البادية قريبة من مجاري المياه ليجتمع فيها ماء الأمطار للشرب منها، وتعرف في اللهجات الدارجة في المغرب بهذا الاسم، والكلمة دخيلة في اللغة العربية"[133].

كما أحالت المصادر إلى المواجل بعبارة "مستنقع الماء"، إذ عرف إبن منظور الماجل بقوله "وقيل لمستنقع الماء ماجل والماجل الماء الكثير المجتمع"[134]، وأشار الونشريسي من جهته إلى "مستنقع ماء البيت والدار الذي يوجد في الساحة"[135]. ووردت عبارة بئر أيضا في بعض النصوص لتحيل إلى المواجل من ذلك أن سحنون بن سعيد أشار إلى الماجل بعبارة "بئر المطر"[136].

وخلاصة التحليل فيما يتعلّق بالمواجل أن مصادر البحث تتسم بالثراء اللغوي في خصوص الألفاظ التي تحيل الى هذا الصنف من المنشآت المائية. كما يبدو التداخل جليا بين العبارات– المفاهيم المستعملة، بحيث يصعب تقديم تعريف دقيق ومحدد لها، ويجب دائما الانطلاق من المصادر لمعرفة خصوصيات المنشآت التي تعبر عنها هذه الألفاظ والوقوف عند الفروقات القائمة بينها. أمّا فيما يتعلّق بتواتر عبارة ماجل في مصادر البحث، فذلك يعكس محوريته في "المشهد المائي" بإفريقية، إضافة إلى دوره الأساسي في عمليات الري وتخزين المياه الصالحة للشرب.

3. السواقي

تعتبر الساقية من أكثر العبارات تواترا في المصادر، إذ تذكر خاصّة في المصنفات الجغرافية كإحدى المنشآت المائية التي يجلب بواسطتها ماء الشرب أو مياه الري، على أن هذه المصنفات تستعمل عبارة "قناة" أكثر من عبارة ساقية دون فصل واضح بين العبارتين[137]. كما ذكرت في كتب التاريخ في سياق تتبع الأحداث للإحالة خاصة إلى موقع معيّن. ولعل أدق العينات التاريخية على ذلك "ساقية ممّس" التي كانت مسرحا للمواجهة بين كسيلة وزهير بن قيس البلوي سنة تسع وستين للهجرة وذكرها أبو بكر المالكي في "رياض النفوس" وابن عذاري المراكشي في "البيان المغرب"[138].

كما ارتبط ذكر السواقي أساسا بعمليات السقي، وقد استعمل الفقهاء اللفظ باعتباره معطى لساني قائم بذاته، ولا يختلف معناه عن المعنى القاموسي الشائع لدى اللغويين والمعجميين[139]. ورغم أن هذه المصنفات تفتقر إلى بعض الاصطلاحات الدلالية التي وجدناها في المعاجم[140]، فإن إضافة الفقهاء يمكن أن نستخلصها من سياق النصوص وسنحاول حصرها في ثلاث مستويات أو ثلاثة عناصر.

أ. أصناف السواقي: إذ فرّقت المصنفات الفقهية بين:

- **السواقي الطبيعية**: التي يحدثها السيل[141]عند نزول الأمطار وعبّرت عنها المصادر بالساقية التي أجرى الله الماء فيها أو الساقية التي أجري الماء فيها من غير أن يعملها الذين يسقون بها[142].

وفرّق أبو العباس أحمد الفرسطائي ضمن هذا الصنف بين الساقية الحديثة والساقية القديمة وبين الساقية بحريم والساقية من دون حريم[143].

- **السواقي المحدثة**: وهي التي يقوم بإنشائها مجموعة من الريفيين، يعدّونها لتجري فيها مياه السيل وينتفعون بها في سقي مزروعاتهم[144].

وتجدر الإشارة في هذا الإطار أن هذا التقسيم ينطبق على جميع المجاري المائية، واعتمادنا في ذلك على ما نقله لنا ابن حبيب عن مطرف وابن ماجشون في الأنهار، حيث فرّق بين الأنهار التي أنشأها الناس وبين الأنهار التي أخرجها الله[145].

كما فرقت المصادر بين السواقي دائمة الجريان، وهي السواقي التي تجلب مياه العيون والأنهار[146]، ويوجد هذا النوع من السواقي في الواحات[147] وداخل المدن[148]. والسواقي الموسمية، وهي السواقي التي ترفع من الأودية أو التي تحدثها مياه السيول[149]، وتستعمل هذه السواقي كذلك بصفة موسمية، فيعمد أصحابها إلى كنسها وتهيئتها خلال موسم الأمطار.

ب . أسماء الساقية

- **مجرى الماء**: بمعنى الماء الجاري كما في النهر أو الجدول أو الترع والقنوات ويعني كذلك الطريق الذي يسلكه النهر على الأرض[150]. فمجرى الماء من هذا المنطلق له عدة دلالات، أمّا في المصنفات الفقهية فقد ورد في إطار أحكام عامة تتعلق بمسائل تهم منشآت مائية متعددة لها نفس الخصوصيات.

من ذلك مثلا أن أبا القاسم سئل "هل يقسم مجرى الماء في قول مالك؟ (قال) لم أسمع مالكا يقسم مجرى الماء"[151] دون تخصيص القول أو الإحالة الى مجرى الماء هل هو وادي أو نهـــر أو ساقية.

وترد عبارة مجرى الماء في بعض السياقات لتحيل مباشرة و حصرا الى الساقية فقد "ســئل أصبغ عن قوم لهم مجرى ماء وهم فيه أشراك، وليس الناس عليه أجنّة كثيرة ولبعضهم عليــه جنان[152]، أو جنانان فارتدمت الساقية، كيف تكنس أعلى الجماجم أم على الأنصبة"[153].

– **الخليج**: وهو مدخل معجمي متعدد الدلالة[154]، غير أننا لم نجد لدى المعجميين واللغــويين معنى من معانيه يحيل إلى الساقية، فهو يرمز إلى:

* الشعبة: تتشعب من الوادي، تعبر بعض مائه إلى مكان آخر غير مذهب الوادي، والجمــع الخلج، والشعبة تعني مسيل الماء في بطن من الأرض، له حرفان مشــترفان وعرضــه بطحــة رجل[155].

* جزء من بحر (أو بحيرة): تحيط به الأرض من جميع الجهات عدا جهة واحدة و تتكون مــن الخلجان إما بانكسار في جزء من قشرة الأرض أو بطغيان البحر على أرض هابطــة بعوامــل أخرى[156].

* نهر في شق من النهر الأعظم وجناحا النهر خليجاه[157].

غير أن المصنفات الفقهية فرّقت في بعض الأحيان بين الخليج و الساقية، فقد تحدّث أبــن حبيب عن الخلج والسواقي التي يجتمع أهل القرى في إنشائها وإجراء الماء فيها لمنافعهم مــن طحين أو سقي[158]، واستعملوا أحيانا أخرى عبارة خليج بمعنى الساقية فقد ورد في النــوادر والزيادات قول ابن القاسم عن مالك في "خليج لرجل يجري تحت جدار لرجل فجرى السيل تحته حتى انهدم فطلب رب الخليج ببنائه"[159].

- القناة: تتواتر هذه العبارة بشكل لا يقل أهمية عن عبارة ساقية وتتخذ دلالات مختلفة في معاجم اللغة، فهي تعني فيما تعنيه، القناة التي تجري تحت الأرض وجمعها قني ويقــال لفمهــا الفقير وجمعه فقر[160]. ويقال للكظائم التي تجري تحت الأرض قنوات واحدها قناة. ويقال هي قناة وقنا ثم قني جمع الجمع وهي الآبار التي تحفر في الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويســيح على وجه الأرض، والقناة كظيمة تحفر تحت الارض[161].

وعلى الرغم من تعدد دلالات القناة في معاجم اللغة، فإننا لم نجد صدى لذلك في المصنفات الفقهية، ووردت عبارة قناة عموما للإحالة إلى مجرى الماء،غير أن إضافة هذه المصادر تكمن في الإحالة إلى القناة بعبارات مختلفة منها:

* سرب[162]: وهو القناة الجوفاء التي يدخل منها ماء الحائط، والسرب بالتحريك الماء السائل، ومنهم من خصّ فقال: السائل من المزادة ونحوها: سرب سربا إذا سال فهو سرب وأسرب وأسربه و سرّبه[163].

*القناة الأم:[164] و نفهم من السياق أن المقصود بها قناة كبيرة الحجم، وهي عبارة عن مجمع مياه تنتهي إليه مياه القنوات الفرعية.

* الخندق[165]: المقصود به في معاجم اللغة الوادي. والخندق: الحفير، وخندق حوله حفر خندقا. وقد تكلمت به العرب، قال الراجز: لا تحسبن الخندق المحفور يدفع عنك القدر المقدور[166]. ونفهم من سياق بعض النصوص أنه لعب دور مجمع المياه المستعملة ومياه الأمطار التي تجري في القنوات الفرعية إلى القناة الأم ومنها إلى الخندق. وقد عبر أحد الفقهاء عن هذه الشبكة من المنشئات المائية في قوله "أرى أن يجبر كل من استدت قناته على كنس قناته حتى يمر عليه ماء جاره، هكذا يلزمهم حتى يخرج ماؤهم إلى الأم التي يخرج منها إلى الخندق"[167]. كما وظّفت الخنادق أحيانا لأغراض استراتيجية تتعلّق بتأمين المدينة وضمان مناعتها أثناء الحروب. فزوّدت عدة مدن بخنادق تحيط بها إحاطة السور بالمعصم. وخلال فترات الحرب يقع تعبئة هذه الخنادق بالماء لتعرقل تقدم الجيوش، فتتحول المدن إلى قلاع منيعة يصعب اقتحامها. وقد أفادنا التّجاني في هذا الصدد بأن مدينة قابس يحيط بسورها " خندق متسع يجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدو عليهم فيكون أمنع شيء لها"[168].

ومهما يكن من أمر، فإن دراسة القناة تطرح العديد من الإشكاليات لا يمكن البت فيها دون التطرق إلى المدينة و المجال الحضري عموما[169]. وهو مبحث يخرج عن نطاق دراستنا التي ركّزنا فيها البحث في المفاهيم، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعض الملاحظات مع رصد الاختلافات الواردة بين القناة والساقية.

– نشير أولا إلى أن الانطلاق من النصوص الفقهية لا يسمح لنا بتكوين متصور نظري دقيق ومحدد عن القناة والساقية، نظرا لما يتسم به استعمال العبارتين من عدم الدّقة، إذ يمكن إن

نستخلص من السياق أن العبارتين تردان في بعض النصوص للإحالة إلى نفس الظاهرة، كما تحيل إحداهما على الأخرى وجل اعتمادنا في هذا الإطار على المعاجم خاصّة للتفريق بينهما.

– تتوفر عبارة قناة خاصّة ضمن المسائل التي تهم الدور والأزقة والشوارع في المدن والمسائل المتعلقة بعلاقات الجوار الحضرية عامّة[170]. في حين ترد عبارة ساقية خاصّة ضمن المسائل التي تهم السقي والأرحية وقسمة مياه المطر[171]. على أن هذا الفصل لا ينفي إمكانية تواتر العبارتين ضمن نفس المسألة.

– نستنتج من بعض العبارات أن من السواقي والقنوات ما هو مبني ومغطى ومنها ما هو مكشوف ومحفور، ولا شك أن طبيعة الموقع والمجال هو الذي يحدد طبيعة القناة أو الساقية، لذلك تتواتر عبارات من قبيل، "ساقية مغطاة"، "ساقية مبنية قديمة"[172]، "قنوات محكمة البناء"[173]، "قنوات مبنية بالحجر"[174].

– تخضع صيانة القنوات والسواقي واستغلال مياهها في كثير من الأحيان إلى نفس المبدأ حتى وإن وجدت الأولى في المجال الحضري ووجدت الثانية في المجال الريفي، فانسداد قناة مثلا يستوجب الكنس وتخضع هذه العملية في الحالتين إلى مبدأ التتالي[175].

يمكن أن نستنتج في نهاية التحليل أنه ليس ثمة فصل واضح بين القناة والساقية ولئن التصق ذكر القناة أكثر بالمجال الحضري، في حين تواترت عبارة ساقية ضمن المسائل التي تهم المجال الريفي، فإن الأخيرة تحيل إلى مفهوم أوسع من مفهوم القناة وأشمل.

ج . وظائف الساقية

وهي عديدة ومتنوّعة، فالساقية من المنشآت المائية التي تجلب بواسطتها مياه العيون[176] كما ترفع مياه الأودية بواسطة ساقية[177]. وتعتبر الساقية من المجاري المائية التي قد يكبر حجمها ليصل إلى مستوى الأنهار والأودية لذلك تستعمل في كثير من الأحيان لتشغيل الأرحية وهي من الوظائف الأساسية في المجال الريفي إلى جانب استغلالها كمورد مائي للسقي[178].

وتتجلى أهمّية الساقية في المجال الفلاحي خاصّة باعتبارها الخيط الرابط بين الأجنّة العليا والاجنّة السفلى التي تشترك في الري من نفس المورد المائي[179]، كما تمثل تبعا لذلك أنجع وسيلة لنقل مياه الأودية والأنهار والعيون إلى الأجنّة المزمع سقيها[180]. أما في المجال الفلاحي الواحي، فإن الساقية تمثّل الوحدة الأساسية التي تتكون منها شبكات الري وتوزيع المياه. وحسبنا في هذا الاطار ما أورده البكري حول واحة توزر، إذ يشق هذه الواحة "ثلاثة أنهار تجتمع بموضع

يسمّى وادي الجمال يكون قعر النهر هناك نحو مائتي ذراع، ثم ينقسم كل نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول، وتتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة، تجري في قنوات مبنية بالحجر، على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا. كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع متر يلزم كل من يسقي منها أربعة أقداس مثقال في العام"[181].

يمكن أن نتبيّن في خاتمة هذا البحث أن استقراء مصنفات النوازل الفقهية المتعلّقة بمسائل المياه ومقارنتها بما تضمّنته المصادر الأخرى يحيلنا الى ضرورة طرح إشكالية البعد الاصطلاحي لمفاهيم الماء. إذ أن دراسة المفهوم تعتبر أداة تنظيمية تمكننا من تبويب المادة التاريخية والجغرافية والنوازلية المتوفرة لدينا وتوظيفها ضمن محاور اهتمام نرصد ضمنها الاستعمالات الاصطلاحية المتعددة لهذه المفاهيم. كما أن التعمّق في هذه الدراسة يمكننا من إبراز خصوصية اللسان الإفريقي والمغاربي عموما على مستوى التسميات التي تطلق على المنشآت المائية ومعرفة الأصول الحضارية لهذه التسميات وتتبع انتشارها. ولا شك أن تراكم الدراسات في هذا الاطار سيسمح أيضا بإنجاز معجم المصطلحات المائية وهو ما سيمثل إضافة نوعية ومرجعا أساسيا بالنسبة للمهتمّين بهذا المبحث.

– الهوامش:

I الماوردي (أبو الحسن)، الأحكام السلطانية، أخرج أحاديثه وعلق عليه خالد عبد اللطيف الشيخ العلمي، 2 دار الكتاب العربي، ص 304-311. القيرواني (أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمان أبي زيد)، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، (13جزء)، تحقيق: محمد عبد العزيز الدباغ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999. ج XI.ص 5 وما يليها.

2 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، قدّم له وحققه محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الاسلامي، بيروت 2002، ج IV، ص 358 وما يليها.

3 الامام مالك (ابن أنس)، المدونة الكبرى، رواية الامام سحنون، 6 مجلدات، دار صادر – بيروت، (د.ت.) المجلد الرابع، ص 289، 413.

4 محمد بن سحنون، كتاب الاجوبة، حققه: حامد العلويني، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ص 328. مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجّي، محمد زنيب، محمد الخضر، أحمد التوفيق وأحمد بتجلون، مكتبة المعارف، الرباط-المغرب، 1986، ص 33.

5 الماوردي، م. ن.، ص 309. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، ص 120. الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت 1984، ص 142.

6 البرزلي، م. س.، ج IV، ص 441.

7 الهادي بن وزدو، محمد حسن و أحمد ممو، قانون المياه والتهيئة المائية بإفريقية خلال العصر الوسيط، مركز النشر الجامعي، تونس 1999، ص 111. ابن أبي زيد، النوادر والزيادات، م. س.، الجزء XI، ص 26. الونشريسي، المعيار المغرب والجماع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب (15جزء)، تحقيق:جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج V، ص 153.

8 الونشريسي، م. ن، ج VIII، ص 402.

9 يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة 1964، ص 62.

10 لطفي دبّيش، المصطلح الجغرافي خلال القرن الاوّل هجري، شهادة تعمّق في البحث، جامعة تونس الاولى، 1987.

11 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 309.

12 الماوردي، م. ن.، ص 309-310.

13 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م. س.، ج IV، ص 436-437.

14 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممو، قانون المياه، م. س.، 32.

15 ابن أبي زيد القيرواني، م. س.، ج VII، ص 307.

16 ابن منظور، لسان العرب (18 جزء)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988، ج XI، مادة: زرنق، ص 140.

17 ابن أبي زيد القيرواني، م. س.، ج VII، ص 307.

18 ابن منظور، م. س.، ج VIII، مادة: ربع، ص 104.

19 يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، م. س.، ص 34.

20 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 21.

21 ابن سيّدة، المخصص، السفر العاشر، ص 31.

22 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممو، قانون المياه، م. س.، ص 11.

23 ابن أبي زيد القيرواني، م. س.، ج XI، ص 70.

24 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XV، مادة: عدا، ص 40.

25 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م. س.، ج IV، ص 419.

26 ابن سيّدة، المخصص، م. س.، السفر العاشر، ص 106.

27 ابن أبي زيد القيرواني، م. س.، ج XI، ص 76.

28 نجد في المصنفات الجغرافية نفس هذا التذبذب في إستعمال المصطلح. راجع: لطفي دبّيش، الصطلح الجغرافي خلال القرن الاول هجري، م. س.، ص 120-125.

29 راجع:

LAGARDERE (V), « droits des eaux et des installations hydrauliques au Maghreb au XIème et XIIème siècle dans le MI'YAR D'AL-WANSARISI », In *C.T.*, n° 145-148, 3ème-4ème trimestre . 1ère-2ème trimrstre, 1988-1989, PP. 91-101.

30 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م.س.، ج IV، ص 296، 416. الونشريسي، المعيار، م. س.، ج V، ص 12، 111، 153. أبو عمران الفاسي، فقه النوازل على المذهب المالیك (فتاوى أبي عمران الفاسي)، جمع وتحقيق: محمد بركة، مطبعو إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، 2010. صص 156-157.

31 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 315.

32 الزبيدي، تاج العروس، ج IX، ص 288-289.

33 ابن أبي زيد القيرواني، م. س.، ج XI، ص 22. مالك بن أنس، المدونة، م. س.، ج IV، ص 290.

34 مالك بن أنس، م. ن.، ج IV، ص 209.

35 مالك بن أنس، م. ن.، ج V، ص 424.

36 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 14.

37 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م.س.، ج IV، ص 421.

38 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 27.

39 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 315. ابن أبي زيد القيروان، م. ن.، ج XI، ص 61.

40 الماوردي، م. ن.، ص 215.

41 الماوردي، م. ن.، ص 315-316.

42 إبن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: فريد بن سليمان، تونس 1999، ص 135.

43 ورد في الاحكام السلطانية للماوردي تعريفا دقيقا للأرض الموات يقول فيه: " والموات عند الشافعي، كل ما لم يكن عامرا، ولا حريما لعامر، فهو موات وإن كان متصلا بعامر. وقال أبو حنيفة: الموات ما بعد من العامر و لم يبلغه الماء. وقال أبو يوسف: الموات كل أرض إذا وقف أدناها من العامر مناد بأعلى صوته لم يسمع أقرب الناس إليها في العامر". الماوردي، الاحكام السلطانية، ص 305، 316. البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م. س.، ج IV، ص 436.

44 البكري، المسالك والممالك، قدّم له وفهرسه: أدريان فان وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، ج II، ص 685.

45 الحميري، الروض المعطار، حققه: إحسان عبّاس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت-لبنان، 1975، ص 346.

46 البكري، م. ن.، ج II، ص 718.

47 مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، ص 152.

48 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، صص 12، 16. الونشريسي، المعيار، م. س، ج VIII، ص 40.

49 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 29.

50 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج VII، ص 307.

51 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XII، مادة: حمم، ص 189.

52 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 23.

53 راجع:

DOZY (R), Supplément aux dictionnaires arabes, Librairie de Liban-Beyrouth, 1981, TII, p.

وتتوافق هذه الآلة مع "الغرغاز" المعروف بإفريقية، وهو ويتكون الغرغاز بصفة عامة من ذراع خشبية طويلة معلقة على محور ارتكاز مثبت بعارضة خشبية مرتكزة على عمودين من الخشب أو من الحجارة . ويحمل طرف الجزء الأقصر منه حجرة متوسطة الحجم أو كتلة من الطين تلعب دور الثقل. ويعلق الدلو في الطرف الاخر بواسطة حبل يحدد طوله حسب عمق البئر. وتقضي عملية سحب الماء بشد الدلو من طرف المشرف على الغرغاز حتى يغط في الماء، ثم يرفعه بعد امتلاءه بمساعدة الثقل المشار إليه ويفرغه في حوض التجميع؛ وقد تبيّن من خلال البحث المقارن أن هذه الآلة التي تحمل تسمية الغرغاز أيضا بإقليم توات (إقليم تيميمون حاليا) الذي يمتد بالجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية، هي نفس التقنية التي عرفت بمنطقة ورغلة بالمغرب الاقصى وتسمى "الغرور". وتسمى كذلك الدالية بمنطقة العراق حيث عرفت انتشارا واسعا منذ الفترة القديمة. أما في الأندلس فقد عرفت أيضا بـــــ"المنجنون" إضافة الى التسمية الأولى وشاع استعمالها خاصة خلال القرنين السابع والثامن هجري/ 13-14 م.

LAOUST (E), *Mots et choses berbères*, Librairie maritime et coloniale, Paris, 1920, p 434-436. SHAFI (M), «Contribution of Arabs to irrigation- a spatial analysis», pp. 215-226.

ضمن ندوة، إسهامات العرب في علم المياه والري.م. س.

بنحمادة (سعيد)، الماء والانسان في الاندلس خلال القرنين السابع والثامن هجري/ XIIIو XIV م: إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة، بيروت 2007.ص 64.

54 نذكر هنا على وجه الخصوص معيار الونشريسي والإعلان في أحكام البنيان لابن الرامي، إذ أننا لم نعثر على عبارة غدير في المسائل والنوازل التي تخص المياه ضمن هذه المصادر.

55 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 19. مالك بن أنس، المدونة، م. س.، ج IV، ص 289.

56 ورد في لسان العرب، الأضاة بمعنى الغدير، والأضاة أيضا: الماء المستنقع من سيل وغيره. ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: أضأ، ص 90.

57 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممو، قانون المياه، م. س.، ص 29.

58 الحميري، الروض المعطار، م. س.، ص 120. البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 743.

59 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج IV، مادة: غدر، ص 263.

60 راجع:

DOZY (R), op. cit., T II , p. 202.

61 لطفي دبّيش، المصطلح الجغرافي، م. س.، ص 125.

62 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممّو، قانون المياه، م. س.، ص 29.

63 إبن منظور، لسان العرب، م. س.، ج X، مادة: برك، ص 399.

64 يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، م. س.، ص 70.

65 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممّو، قانون المياه، م. ن.، ص 29.

66 نخص بالذكر في هذا الاطار كتب الجغرافيا، التي ذكرت في سياق وصفها للمدن والارياف مصادر تزودها بمياه الري ومياه الشرب، ومثلت الابار أكثر المنشآت المائية إنتشارا. غير أن ذكره للآبار كان في أغلب الاحيان ضمن إشارات عرضية لا تتجاوز ذكر بعض النعوت المتصلة بالماء، مثل "بئر لا تنزف" "آبار عذبة" أو بالإشارة الى اسمها المخصوص كـ"بئر الجمّالين" و "بئر الزيتونة". كما خصص ابن العوام الاشبيلي في كتابه الفلاحة الاندلسية فصلا للآبار درس فيه أنواع الابار وكيفية حفرها والاستفادة من مياهها. البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 710، 743. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 86. أحمد ممّو، فصل من كتاب الفلاحة الاندلسية لابن عوام، ضمن مجلة الحياة الثقافية عدد 11، 1980، ص 139-140.

67 راجع:

HENTATI (N), « L'eau dans la ville de l'occident musulman d'après les sources juridiques malikites », In, *R.H.M.*, n° 102-103, Mars 2001.

68 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 309.

69 يمكن اعتبار أرياف مدينة تونس كمثال على ذلك إذ يقول الحسن الوزّان " إلا أن لبعض أهالي المدينة ممتلكات في الضواحي القريبة يزرعون فيها قليلا من الشعير والقمح، ولّما كانت هذه الاراضي مفتقرة الى السقي فإم لكل منها بئرا يؤخذ منها الماء في قنوات محكمة البناء" الحسن الوزّان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجّي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية، ج I، ص70.

70 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م. س.، ج IV، ص 452.

71 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 5.

72 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 313.

73 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، صص 5-7.

74 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 7.

75 البئر البادية : المعروف بئر بدىء، وبدأ البئر إحتفرها فهي بدىء أي حادثة وهي خلاف البادية القديمة التي لا يعلم لها حافر ولا مالك. ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: بدأ، ص 224.

76 الماوردي، الاحكام السلطانية، م. س.، ص 312.

77 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 7.

78 مالك بن أنس، المدونة، م. س.، ج IV، ص 290.

79 مالك بن أنس، م. ن.، ج IV، ص 290.

80 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج X، ص 8.

81 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممّو، قانون المياه، م. س.، ص 159.

82 ابن العوام، كتاب الفلاحة، مدريد 1802، ج I، ص 142.

83 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، 10.

84 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، 6.

85 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: قليب، ص 689. ابن سيّدة، الخصص، م. س.، السفر X، ص 35.

86 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، 108.

87 ابن سيّدة، الخصص، م. س.، السفر X، ص 35.

88 التجاني، الرحلة، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس 1958، ص 133.

89 ابن سيّدة، المخصص، سفر X، ص 94.

90 مثابة البئر: حجر منقور مثبت حول فوهة البئر.

91 راجع مقال ديبوا ضمن دائرة المعارف الإسلامية حول البئر:
DESPOIS (J), art. BI'R, In *E.I.*, TII, p. 1268.

92 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XI، مادة: قفف، ص 289.

93 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج VII، ص 370.

94 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XI، مادة: زرنق، ص 140.

95 ابن العوام، كتاب الفلاحة الاندلسية، ص 139.

96 الماوردي، الأحكام السلطانية، م. س.، ص 112.

97 ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، م. س.، ص 176.

98 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 681.

99 البكري، م. ن.، ج II، ص 695.

100 الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1984، ص 348.

101 ابن عذاري المرّاكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تاريخ إفريقية والمغـــرب من الفتح الى القرن الرابع هجري، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت– لبنان، د. ت.، ص 112.

102 ابن عذاري المرّاكشي، م. ن.، ج I، ص 114.

103 محمود مقديش، نزهة الأنظار، م. س.، ج II، ص 178–179.

104 تكتب كلمة ماجل بثلاث طرق، ماجل، ماجن ومأجل، غير ان العبارة لأولى هي الأكثـــر تـــواتر في مختلف المصادر، ومن خلال تتبعنا للسياق الذي ترد فيه هذه العبارات يمكن القول أن تغير رسم كلمة ماجل لا يعني بالضرورة تغير الظاهرة المشار إليها ، فعبارة مأجل أشار بها ابن عذاري الى فسقية الأغالبة التي أنشأه بمدينة القيروان على باب تونس بأمر من أبي ابراهيم احمد سنة 246هـــ. و أشار نفس المصدر الى نفس هذه الفسقية بعبارة ماجل كما هو الشأن في عدة مصادر أخرى. أما عبارة ماجن فقد وردت في مصنف المازري في فتوى طرحت عليه حول ماء الدار المكتراة، ووردت العبارة في فتاوى البرزلي، وأشار ابن حوقل الى مواجل مدينـــة صفاقس قائلا: "ومواجنها مالحة الطعوم، حافظة لما استودعت"، في حين اننا لم نجد هذه العبارة في معاجم اللغة و ذكر ياقوت الحموي، أن ماجن هو مخلاف في اليمن في مدينة صهر؛ من هذا المنطلق فأن المصـــادر قلمـــا تستعمل عبارتي مأجل و ماجن و لأن كونا نجهل دوافع استعمال احدى العبارتين عوض مأجل فاننا لا نميل الى الاعتقاد بان هناك اخلاف بين العبارات الثلاثة. ابن عذاري المرّاكشي، م. ن.، صص 112، 134. المازري، فتاوى المازري، م. س.، ص 228. البرزلي، جامع مسائل الأحكام، م. س.، ج IV، ص 321. ابن حوقل، صورة الارض، تحقيق: م. ج. دي خوي، طبعة بريل، لندن 1967، ص 73. يـــاقوت الحمـــوي، معجـــم البلدان، ج V، ص 39.

105 نشير في هذا الاطار الى أن الترجمة الفرنسية لمؤلف الإدريسي (القرن 6 هـــــ) "نزهـــة المشـــتاق في اختراق الأفاق" تضمّنت إشارة في التعليق تفيد بأن عبارة ماجل تنتمي إلى لهجة المغرب العربي، وهي تدل تبعا لذلك على أصالة المنشآت التي تحيل عليها، والتي لن نعثر عليها الى حد الآن إلا في المغرب الشرقي، أي مجـــال إفريقية.

SOLIGNAC (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des Steppes tunisiennes du VII ou XIV siècle » ,*Annales IEO*, 1952,TX. Alger.P. 34.

106 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج II، ص 312.

107 وقد تبنى الصهاريج أيضا من طرف السلاطين والولاة، إذ يفيدنا إبن الابّار (595–658 هـــــ) أنه لّما تولي زيادة الله بن إبراهيم بن أحمد الحكم وإنتقل الى رقادة، " حفر بها حفيرا سمّاه صهريجا طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع وأجرى اليه ساقية وسمّاه البحر". ولعل ضخامة هذه الصهاريج وما تتطلبه من إمكانيات مالية ضخمة تبرز الصبغة العمومية التي تتسم بها. إبن الابّار، الحلة السيراء، الجزء الاوّل، حققه وعلّـــق علـــى حواشيه: حسين مؤنس، ط. I، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1963، ص 175.

108 الونشريسي، المعيار المغرب والجماع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب (15جزء)، تحقيق:جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981. ج V، ص 171.

109 مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، نشره وعلّق عليه: سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية 1985، ص 172.

110 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 695، 711. ابن الابّار، الحلة السيراء، م. س.، ج I، ص 175.

111 الونشريسي، المعيار، م. س.، ج V، ص 147.

112 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج VII، ص 307.

113 العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، حققه مصطفى أبو أحمد، الدار البيضاء 1988، ص116-118.

114 أحمد ممّو، ابن العوام وكتاب الفلاحة الاندلسية، م. س.، صص 140، 142-143

115 DOZY (R), *Supplément*…, op. cit., T1, p. 346.

116 التجاني، الرحلة، م. س.، ص 231.

117 إبن عذاري المرّاكشي، البيان المغرب، م. س.، ج I، ص 144.

118 إبن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، صص 7، 108. الونشريسي، المعيار، م. س.، ج VII، ص 55. الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممّو، قانون المياه، م. س.، ص 101.

119 إبن سيّدة، المخصص، م. س.، السفر X، ص 95. إبن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: جبب، ص 250.

120 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 8.

121 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 7.

122 الونشريسي، المعيار، م. ن.، ج VII، ص 55.

123 البرزلي، جامع مسائل الاحكام، م. ن.، ج IV، صص 407-408.

124 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. ن.، ج XI، ص 108.

125 ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، م. س.، ص 42.

126 ابن الرامي، م. ن.، ص 42.

127ابن الرامي، م. ن.، ص 42.

128 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: جبب، ص 250.

129 ابن الرامي، م. ن.، ص 42.

130:راجع HANTATI (N), *op. cit.*, p. 178.

131 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م. س.، ج I، ص 87.

132 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 677.

SOLIGNAC (M), *op. cit.*, pp. 32-46.

133 الزاوي الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، ليبيا، 1986، ص 254.

134 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XI، مادة: مجل، ص 616.

135 الونشريسي، المعيار، م. س.، ج VII، ص 405.

136 مالك بن أنس، المدونة، م. س.، ج VI، ص 445.

137 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص707. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، م. س.، ص137.

138 المالكي، رياض النفوس، م. س.، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، بيروت-لبنان، 1983، ج I، ص 45. إبن عذاري المرّاكشي، البيان المغرب، م. س.، ج I، ص 32.

139 يعرف الزبيدي الساقية بأنها النهر الصغير من سواقي الزرع، وهو في الغالب نفس المعنى المتداول في كتب الفقه. الزبيدي، تاج العروس، ج X، ص 180.

140 لعلّه من المفيد هنا الاشارة الى أن الساقية عبارة تطلق على ما يستقى عليه بالسواني، " والسانية الغرب وأداته، يقال أعرني سانيتك، وأيضا الناقة يستقى عليها، وهي الناضحة أيضا، والجمع سواني، والساقية بهذا المعنى يعود اختراعها الى العهد البطلمي. هذا وتشير بعض المعطيات الاثرية الى وجودها في مصر القديمة الفرعوينة. وتتباين السواقي حجما بتباين الامصار وتتركب من قواديس تختلف أحجامها وأعدادها حسب طبيعة الفصل وكمية الماء وبعد منسوبه في مستوى الارض الزراعية. وتثبّت هذه القواديس بحبال على الدولاب، ويتحرك هذا الاخير بجهد حيوان، فتتحول طاقة دفع الحيوان الى الدولاب عن طريق ترسين أحدهما أفقي والآخر عمودي. الزبيدي، تاج العروس، م. س.، ج X، ص 180.

141 السيل: الماء الكثير السائل، اسم لا مصدر وجمعه سيول ومسيل الماء وجمعه أمسلة، وهي مياه الامطار إذا سالت. ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج XI، مادة: سيل، ص 551.

142 ابن أبي زيد القيروان، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 75.

143 الهادي بن وزدو، محمد حسن وأحمد ممّو، قانون المياه، م. س.، ص 125.

144 ابن أبي زيد القيروان، م. ن.، ج XI، ص 75.

145 ابن أبي زيد القيروان، م. ن.، ج XI، ص 78.

146 ابن أبي زيد القيروان، م. ن.، ج XI، ص 91.

147 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 707. مؤلف مجهول، الاستبصار، م. س.، صص 172، 209.

148 البكري، م. ن.، ج II، ص 729.

149 الونشريسي، المعيار، م. س.، ج V، ص 11.

150 يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، م .س.، ص 440.

151 مالك بن أنس، المدونة، م. س.، ج V، ص 468.

152 الجنان: البستان، وهو يستعمل في المغرب والاندلس للدلالة على المفرد، إن جاء على صيغة الجمع شأنه في ذلك شأن الأرياض ويجمع جمع مؤنث فيقال جنانات. ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 16 (الهامش).

153 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 16. إبن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، م. س.، ص132.

154 لطفي دبّيش، المصطلح الجغرافي، م. س.، ص 54.

155 ابن سيّدة، المخصص، م. س.، السفر X، ص 106.

156 يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، م. س.، ص 219.

157 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج II، مادة: خلج، ص 257.

158 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 79.

159 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 97.

160 ابن سيّدة، المخصص، م. س.، السفر X، صص 33-34.

161 وتسمى هذه التقنية حسب المناطق الجغرافية بالخطارات والفقارات والخرائق والافلاج، وقد ظهرت في البداية في منطقة وادي الرافدين على يد شعوب الشرق القديم ثم انتشرت في عدة مناطق أخرى. لمزيد التعمّق راجع: محمد علي زرقة، الافلاج (القنوات): أنظمة الري ومياهها الخفية: أعقد وأقدم الانظمة العربية في تاريخ الحضارة، دار الحصاد، دمشق 1999، ص 61. عبد العزيز الاعرج، *فقارات توات-تيميمون بيت التغذية وتوزيع المياه ودورها في حركية المجتمع ونشاطاته*، ضمن الندوة الدولية الثالثة: الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط، نشر محمد حسن، تونس 2009، صص 97-121.

R. CAPOT-REY, A. CORNET et B. BLAUDIN DE THE, *glossaire des principaux termes géographiques et hydraugéologiques sahariens*, Alger 1963, pp. 39-40. GOBLOT (H), *Les qanats, une technique d'acquisition de l'eau*, Paris 1979. p. 119.

162 الونشريسي، المعيار، م. س.، ج VIII، ص 403. ج X، ص 274.

163 ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج I، مادة: سرب، ص 466.

164 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 18.

165 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 21.

166ابن منظور، لسان العرب، م. س.، ج X، مادة: خذق، ص 93

167 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 18.

168 التجاني، الرحلة، م. س.، ص 87.

169 راجع:

GOBLOT (H), *op. cit., p. 119* . HANTATI (N), *op. cit.*, p. 36.

170 ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، م. س.، ص 128 وما يليها.

171 الونشريسي، المعيار، م. س.، ج VIII، ص 379 وما يليها.

172 الونشريسي، م. ن.، ج VIII، ص 396-411.
173 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م. س.، ج I، ص 70.
174 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 707.
175 الونشريسي، م. ن.، ج VIII، ص 383-401.
176 ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، م. س.، ج XI، ص 91.
177 البرزلي، جامع مسائل الأحكام، م. س.، ج IV، ص 438.
178 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 75.
179 ابن أبي زيد القيرواني، م. ن.، ج XI، ص 76.
180 البرزلي، جامع مسائل الأحكام، م. س.، ج IV، ص 438- 439.
181 البكري، المسالك والممالك، م. س.، ج II، ص 707.

سلطانات على الحقيقة، نظرة تاريخية لحكم المرأة العربية

د.ة/ آمنـــــة بن منصـــور
المركز الجامعي عين تموشنت

كانت المرأة ولا تزال مرفأ الأمان للرجل إذا ضربت الرياح شراع سفنه، والملاذ الآمن إذا تقاذفته الأمواج، وقد ظلت لوقت طويل ينظر إليها على أساس أنها ظاهرة تستدعي الدراسة بالبحث والتحليل والتأريخ، حتى بلغ ببعضهم أن سأل: هل هي بشر أم لا؟ وهل تستحق الحياة أم لا؟

– المرأة في المشرق:

لعل حال المرأة العربية كان أفضل بكثير من حال المرأة عند غير العرب، فمع وأد بعض العرب لها، لم ينظروا إليها على أنها من غير البشر أو على أنها شيطان أو حيوان، ففي "عصر ما قبل الإسلام نجد نساء عربيات اشتهرن بالكرم والشجاعة والأدب، كوالدة حاتم الطائي وابنته سفانة المشهورتين بالكرم وفكيهة بنت قتادة المشهورة بالوفاء"[1]، "وقد شاركت المرأة العربية الرجل في معظم أمور الحياة ومهامها، كما شاركته في الحروب، وكانت منهن المقاتلة الصامدة أو المحرضة الشجاعة "[2].

ثم جاء الإسلام فأكرم المرأة غاية الإكرام، وأنزلها منزلة عالية تليق بها، وإن كان فضل لرجل فالفضل كله لأمه التي كانت سببا في وجوده في الحياة، ومن إكرام الله تعالى للمرأة أن أنزل سورة كاملة باسمها و لم ينزل سورة باسم الرجال، بل وزاد على ذلك أن وضح أن الرجل والمرأة خلقا من نفس واحدة، فلا فضل له عليها في الأصل والمنبت، يقول تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**)[3]، وآخر ما استوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام خيرا كان بالنساء.

وقد ظلت المرأة محافظة على مكانتها الاجتماعية في العصر الأموي، بفضل تلك العصبية العربية، ولكنها أيضا ظلت بعيدة عن الحياة السياسية لا تؤثر فيها إلا بالقدر الضئيل جدا الذي لا يتجاوز النصح أو الإيعاز...

وسرعان ما تبدلت الأمور في العصر العباسي، حيث أصبح للنساء دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية على حد سواء، و لم تكن المرأة الحرة هي صاحبة السبق للتدخل في الشؤون السياسية بالنظر لطبيعة المجتمع العربي المحافظ المتشدد، إنما سبقتها إلى ذلك الجواري اللواتي جلبن معهن عاداتهن وانفتاحهن على المجتمع الذكوري من بلدانهن.

ومن هؤلاء النسوة الخيزران زوجة الخليفة العباسي المهدي التي كان لها الأمر والنهي، وكان الرجال يغدون إلي بيتها قبل أن يذهبوا إلى الخليفة نفسه، كما أدت دورا عظيما في خلافة ولدها الهادي واستبدت بالأمر حتى شاركته شئون الدولة مثلما كانت تفعل أيام أبيه المهدي[4].

- المرأة في الأندلس:

كانت المرأة الأندلسية "تتمتع بحرية أكبر من المرأة في المشرق، فلم يكن طريقها شائكا وعرا، ولا ضيقا حرجا، بل كان واضحا قويما... وكانت النساء تخرج إلى المسجد الجامع في قرطبة، وإلى سواه من معاهد العلم"[5].

كما سمح لها علمها وأدبها واحترام الرجل لها، بأن تختلط بالرجال وتقابل العلماء والشعراء [6](*).

وقد استحظى كثير من ملوك بني أمية الجواري الروميات والصقالبيات، وبذلوا لهن أفضل ما يتمنين، ولكنهن لم يفسدن العنصر العربي لأنهن لم يكن بالكثرة التي تمكنهن من غلبة الرجال على أمرهم، غير أنه كان لهن أثر في سياسة الدولة وإن لم يكن يظهرن إلا من وراء حجاب[7]؛ ومن ناحية أخرى فإن "من الاسبانيات من كن يتظاهرن بالإسلام ولكنهن في الواقع لم ينسين نصرانيتهن ولا اسبانيتهن، ومنهن من كن يتجسسن على الخلفاء وينقلن لقومهن دقائق الأمور، وكان ذلك عاملا مهما في إخراج العربي من الأندلس"[8].

ويمكن القول بأن المرأة الأندلسية "وصلت حالا ترفع معها وتضع، كما قال ابن زيدون في حديثه مع ولادة:

أرخصتني من بعد ما أغليتني * وحططتني من بعد ما أعليتني[9]**

إلى هنا لم يكن للمرأة الأندلسية دور سياسي بارز، غير أن الأمور بدأت تأخذ مسارا مغايرا بدءا من الفترة التي حكم فيها الحكم المستنصر، فقد بلغ حب هذا الخليفة الأموي للسيدة صبح البشكنسية أم ولده هشام، مبلغا كبيرا وكان لها أثر بارز فيما بعد مما جعل الباحثين والمؤرخين يذهبون إلى أنها السبب في انفراط العقد الأموي.

فقد عملت صبح على تقريب محمد بن أبي عامر من القصر ومن الخليفة بوجه خاص، ومن جهته استغل الفتى العامري بذكائه ودهائه هذا القرب ليثبت أقدامه في الزهراء، "وقال غير واحد إنه صنع يومئذ قصرا من فضة لصبح وحمله على رؤوس الرجال ، فجلب حبها بذلك، وقامت بأمره عند سيدها"[10] فقربه منه، وأوكل له العديد من الأعمال، و "لم يكن ابن أبي عامر يدع فرصة إلا ويغتنمها كي يزداد إعجاب صبح به، وصاحبه التوفيق فاختارته لإدارة أملاكها الخاصة هي أيضا"[11].

عرف محمد بن أبي عامر من أين تؤكل الكتف فتقربه من السيدة صبح من شأنه أن يقربه زلفى من المستنصر، فهي مالكة قلبه، وقد كان له ذلك وهل كان هناك من هو أقوى من سلطة المرأة إن كانت مقربة أو أثيرة لدى أولي الأمر؟

كانت صبح سلطانة في حياة الحكم وكلمتها مسموعة، فلما مات كانت خير معين لمحمد بن أبي عامر في تولي زمام أمور الحكم، ومهما يكن فإن هذا الرجل العظيم استطاع إركاع ملوك قشتالة وجليقية وليون دهرا من الزمن، أفلا يكون لها نصيب في هذا المجد؟

ومن جهة ثانية فقد كان لزواج المنصور بن أبي عامر بأسماء بنت غالب[**]، دورٌ في تأمين جانب الجيش الذي كان غالب على رأسه، فهي إذن زيجة سياسية.

ويبدو أن أثر المرأة السياسي بدأ يظهر فعلا بعد انفراط العقد الأموي، وبخاصة بعد انقسام الأندلس إلى دول وطوائف، ولعلنا نذكر في هذا المقام أحد ملوكها: المعتمد بن عباد الذي حكم إشبيلية بعد أبيه المعتضد، وقد تزوج اعتماد الرميكية "وكان مفرط الميل إليها حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه على حروف اسمها"[12] و"قد كانت أهواؤها ورغباتها مؤدية إلى سعادة زوجها وشقوته "[13].

وإذا كان الدور الذي قامت به صبح على الصعيد السياسي متمثلا في تقريبها المنصور من سدة الحكم، فإن اعتماد أدت دورا مباشرا في الحياة السياسية، لما كان لها من تأثير كبير على

حياة المعتمد وعلى "الحياة العامة... يشهد بذلك ما تحمله النقوش في ذكر اسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية سنة 472هـ"[14]، ليس هذا فحسب فقد "أبغضها الفقهاء ورموها بأنها ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب عليه أهل إشبيلية بذلك وبتعطيل صلوات الجمع عقودا، ورفعوها إلى أمير المؤمنين"[15].

ومن تأثيرها كذلك في الجانب السياسي إيعازها للمعتمد بقتل وزيره ابن عمار "بسبب هجائه لها وإن لم يكن سببا حقيقيا فقد أوجدت أسبابا سياسية متمثلة في استغلال ابن عمار لمكانته الرفيعة عند المعتمد، فحاول اقتسام ملكه عندما وثب على مرسية، فنبهته لذلك الخطر فقتله"[16].

ومن النساء اللواتي أثرن على حياة الرجال من الناحية السياسية بطريقة غير مباشرة، ولادة بنت المستكفي، فنحن نعرف أثر التنافس في حب ولادة بين الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس، وما جره هذا الحب على ابن زيدون من سجن ومعاناة بسبب مكائد غريمه الذي كاد له عند ابن جهور، ولولا هذا الغرام ما ذهب شاعرنا إلى إشبيلية ولما حظي بقرب المعتضد ثم المعتمد[17].

وهكذا "فقد برزت المرأة في المجتمع الأندلسي أمام المسرح تارة، ومن ورائه تارة أخرى، وقد ظهر دورها جليا في زمن الموحدين حيث استأثرت النساء في أواخره بشؤون التولية والعزل، حتى كانت حول كل امرأة من المشهورات حاشية تدبر المكائد وتستأثر بالوظائف والمنافع، وكان لها في الحالين أثرها المشرق والسالب"[18].

كما عرف عهد بني الأحمر "نساء اشتهرت أسماؤهن في ميادين السياسة... نذكر منهن مريم أم إسماعيل التي كانت محظية لدى يوسف الأول وكان لها الدور البارز في خلع محمد الخامس، كما تعرفنا إلى الصراع على النفوذ والسلطة بين عائشة الحرة زوجة أبي الحسن علي بن الأحمر وحليلته ثريا، وهذا أوقع الخلاف بين طلاب العرش، ودفع ملك بني الأحمر نحو الهاوية"[19].

وبعد "فقد كان آخر صوت سمع في أجواء الأندلس هو صوت المرأة العجوز، أم أبي عبد الله الصغير وهي تؤنب ابنها الملك المتخاذل، الذي ضيع آخر معقل للمسلمين وسلم مفاتيح غرناطة للعدو، قائلة:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا * لم تحافظ عليه مثل الرجال**[20]

– المرأة في عصر المماليك:

لا يخفى علينا أن أول امرأة أرادت –واستطاعت– الوصول فعلا إلى كرسي الحكم دون وسيط أو حجاب هي شجرة الدر، وهي وإن كانت تسبح ضد التيار الرجولي الذي يرفض الفكرة إجمالا فإنها استطاعت تحقيق طموحها ولو لأيام، ورغم تزلفها للعامة بأن تلقبت تارة بالمستعصمية نسبة إلى الخليفة العباسي، وتارة بالصالحية نسبة إلى زوجها وثالثة والدة السلطان خليل...[21] إلا أن ذلك لم يشفع لها، ولم يطفئ نار الغضب عند العوام الذين يرفضون فكرة أن تسوسهم أو تحكمهم امرأة، لا سيما وأن موقف الإسلام واضح في هذا الأمر.

وقد بلغت سخرية الخليفة العباسي من توليها الحكم أن قال: "إن كانت الرجال عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير لكم رجلا"[22].

ومع ذلك يُشهد لها فعلها العظيم وتفكيرها السديد حين أخفت خبر وفاة زوجها الصالح نجم الدين أيوب، لتجنب المسلمين الخسارة والهزيمة أمام الحملة الصليبية التي شنها لويس التاسع على مصر.

ولكنها الفطرة التي ترفض أن تتولى أمور البلاد والعباد امرأة وبخاصة إذا كانت البلاد بحجم مصر، فالمعروف أن في تلك الفترة كانت الدولة العباسية في أواخر أيامها، وهو الأمر الذي جعل شجرة الدر تفكر في التنازل لرجل يكون الواجهة والصورة التي ترضي العامة، وتكون الكلمة الأولى والأخيرة لها خلف الستار على عادة زوجات وجواري الأمراء السابقين. إنه عز الدين أيبك التركماني أحد كبار أمراء المماليك في مصر وقتها...

هكذا أدت المرأة العربية دورا فاعلا في الحياة السياسية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وسواء كانت زوجة أو جارية أو حبيبة فإنها استطاعت أن تملك قلب الرجل بحنكتها ودهائها، توجهه بما يتماشى مع رغباتها وأطماعها، فكانت في أحايين سببا لعلوه وعلو البلاد، وفي أحايين أخرى سببا في نزوله وضياع العباد.

– الهوامش:

I- محمد جميل بيهم: المرأة في التاريخ والشرائع، بيروت ، 1992 : 102

2- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها : 1: 113-114

3- سورة النساء، الآية 01

4- ينظر عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب و الاسلام، ج2، بيروت،191، ص396 و عبدالمنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ج1، ط3، القاهرة، 1984، ص 156

5- المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها : 3 : 128-129

6- الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية : فوزية عبد الله العقيلي: 58

*- بالغت بعض النساء الأندلسيات في استغلال الحرية التي أعطيت لهن في الأندلس ، و كانت " أول من سنت للنساء سنة الانكشاف و الاستخفاف ولادة بنت المستكفي بالله سليلة بيت الملك الأموي – المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها : 3 : 130

7- ينظر المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها : 3:128 و الحياة الاجتماعية في الأندلس : 46

8- الإنسان الأندلسي بين واقعه العربي و ما طمح إليه : ظاهر أبو غزالة : 149

9- الحياة الاجتماعية في الأندلس : 46

10- نفح الطيب : المقري : 3: 88

11- المسلمون في الأندلس : دوزي : 2: 74

** - كانت للوزير عبد الرحمن بن موسى بن حدير فطلقها على عهد الحكم ، فخلف عليها المنصور بن أبي عامر ، و كانت أريبة من صوالح النساء - الذيل و التكملة : 8 : 479

12- الحلة السيراء ج 2 ص 62

13- المسلمون في الأندلس : 3: 92

14- الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين : 317

15- تاريخ الفكر الأندلسي : آنخيل جنالث بالانثيا : 95

16- الحياة الاجتماعية و الثقافية في الأندلس : 75-76

17- ينظر : الحياة الاجتماعية في الأندلس : 46 ، و تاريخ الفكر الأندلسي : 82

18-الحياة الاجتماعية في الأندلس : 50

19- غرناطة في ظل بني الأحمر : 103

20- الحياة الاجتماعية في الأندلس : 50

21- ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج 2ص 263

22- نفسه : ج1 ص 368

الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني
(1519ـ1830م)

أ.ة/ فوزية لزغم
جامعة ابن خلدون، تيارت

وجد بالجزائر خلال العهد العثماني العديد من الأطباء الأوربيين من جنسيات مختلفة حظي الكثير منهم بتقدير الحكام ورجال الدولة، الذين أغدقوا عليهم بالأموال مقابل خدماتهم الطبية. فلماذا لجأ رجال الدولة من دايات وبايات ووزراء وغيرهم كزعماء القبائل، وحتى من السكان البسطاء إلى هؤلاء الأطباء؟ هل في ذلك دليل على قلة عدد الأطباء بالجزائر، أم يدل على أنّ كفاءة الأطباء الجزائريين كانت أقل من كفاءة الأطباء الأوربيين؟

إنّ المادة العلمية التي توفرها المصادر المحلية حول هذا الموضوع شحيحة جدا، وهو ما يدفعنا إلى الاعتماد على مصادر غربية معاصرة دخل أصحابها الجزائر لأغراض مختلفة، بعضهم كانوا أطباء. إلا أنّ كتابات بعض الرحالة والقساوسة والأسرى وحتى القناصل وغيرهم، تعبر عن موقف عدائي تجاه المسلمين. الأمر الذي يجعل الدارس في حرج. فمن جهة يجد نفسه غير قادر على الاستغناء عنها، ومن جهة لا يمكنه التسليم بأحكامها المتحيزة. وللتغلب على هذه الإشكالية وتجاوزها يتطلب التسلح بالمنهج العلمي لغربلة المعومات المتوفرة وفرز الغث من السمين منها. وهو ما نسعى لتحقيقه في هذا البحث مع الاعتراف بصعوبة المهمة في ظل غياب مصادر محلية نرجع إليها للمقارنة والموازنة.

ومن الكتابات الأوربية الأكثر موضوعية وحيادا ما كتب من طرف علماء مستكشفين لم تكن لهم خلفيات معادية للوجود العثماني، و لم يتأثروا بالمخططات الاستعمارية الهادفة للسيطرة على البحر المتوسط. كما هو الحال بالنسبة لغالبية الرحالة والعلماء الألمان والاسكندنافيين والهولنديين والروس، وإلى حد ما الانكليز والأمريكان[1]. وعليه فإننا محظوظون لأن عددا من مصادرنا في هذا البحث كتبت بأقلام مؤلفين ممن ينتمون إلى هذه القوميات وفي مقدمتهم بعض الأطباء الألمان كالطبيب الرحالة هابنسترايت، والطبيب الأسير بفايفر، ولكن هذا لا يعني أننا نسلم بما جاءوا به تسليما مطلقا.

– الطب بالجزائر خلال العهد العثماني:

وردت العديد من الملاحظات في مصادر مختلفة حول وضعية الطب بالجزائر آنذاك وسوف نعرض بعضها. من ذلك رأي هلتون سامبسون (Sompson Hilton) الذي قضى أربع سنوات بالجزائر واختلط بسكان الريف، وصاحب أطباء الجزائر في قوله بأنّ:

"حرفة الطب بالجزائر يرثها الابن عن أبيه، ولهم كتب قيمة في هذا الميدان... وهي حرفة سرية، أصحابها ماهرون في علم ثقب العظام، أو استبدال عظام الإنسان بعظام الحيوان... ولهم دراية أيضا بطب العيون... ونسبة نجاحهم في هذا الميدان مرتفعة رغم بساطة هذه الأدوات الجراحية، ولهم دراية فائقة بعلم النبات، يجمع الطبيب بنفسه الأعشاب من الغابة، ثم يجففها أو يقطرها، ويزنها ويمزجها ويحضرها للمرضى"[2].

يعتبر هلتون الأوربي الوحيد الذي كان رأيه إيجابيا عن الطب بالجزائر. أمّا بقية الأوربيين الذين زاروا الجزائر خلال فترات مختلفة من الوجود العثماني فقد ذهب جلهم إلى أنّ الطب كان متخلفا وبدائيا. من ذلك وليام شالير قنصل أمريكا بالجزائر، الذي ذهب إلى أنه لا جدوى من الحديث عن حالة العلوم بالجزائر "حيث أنها غير موجودة، ومتى كانت موجودة، فهي محتقرة، بل إنّ الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز..."[3].

ووصف القسيس لابي بواري (L'Abbé poiret) طريقة العلاج عند سكان الريف في شرق الجزائر بكونها تقليدية جدا وبعيدة عن كونها صحيحة. ومنها الحجامة التي يعتقد بفاعليتها كثيرا سكان المنطقة في القالة، كما كانوا يؤمنون بالخرافات والتمائم التي يعطيها لهم المرابطون لعلاج مرضاهم[4].

وتحمل بعض الآراء مبالغة كبيرة في وصف وضعية الطب، حتى وإن طغت على كتابات أصحابها الموضوعية كرأي الطبيب والرحالة الألماني هابنسترايت الذي حضّر للداي عبدي باشا دواء واحدا بطلب منه، وعلل ذلك بقوله: "ما دمت لا أستطيع أن أقنع هؤلاء الناس، بأن كل مرض من الأمراض يتطلب دواءً خاصا، فهم يعتقدون بأنّ دواء واحدا كفيلا أن يشفي كل الحالات المرضية "[5].

لقد نقلت النصوص السابقة حتى يقف القارئ عليها بنفسه، لا سيّما وأننا لا نستطيع أن نتجاهل هذه الآراء تجاهلا كليا لمعاضدة بعض المصادر المحلية لها بحيث لا يختلف رأي حمدان

خوجة عن الآراء السابقة حينما يتطرق إلى التداوي في البوادي عند سكان السهول[6]" قائلا بأن العلاج:

"عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا يعرفون مبادئ التطبيب، وبالنسبة لهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات، ومن العادة أنهم في مثل هذه الحالات يلجؤون إلى الحمية" [7].

ولعل أصدق تعبير عن وضع الطب والأطباء بالجزائر هو ما ذهب إليه الطبيب الرَّحالة الإنجليزي شو Shaw الذي أكَّد على تدهور وضعية الطب بالجزائر. كما في بقية الولايات العثمانية، وخلص إلى القول بأنّ: "الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما أَلِفَهُ العُرف " [8]. ولكنه اعترف بقدرة بعض الأطباء الجزائريين على المعالجة ببعض الأعشاب[9].

– الأطباء الجزائريون:

كان عدد المشتغلين بالطب في الجزائر قليلا؛ إلى الحد الذي جعل بعض الرحالة الأوربيين يجزم بعدم وجود طبيب واحد بالجزائر، من ذلك لوجيي دي تاسي Laugier de Tassy، الذي ذهب إلى أنّ: "العرب لا يعرفون طبيبا غير الطبيعة"، وبأنه "لا يوجد أي طبيب لا في مدينة الجزائر ولا في أي ناحية من المملكة "[10].

ويشير الدكتور شاو إلى أنه لم ير إلا عددا قليلا من الأطباء الذين يعملون بالرازي وابن رشد وأطباء عرب قدماء آخرون، والترجمة الاسبانية لديوسكوريد هو تقريبا الكتاب الوحيد الذي قرؤوه [11]، وكان شاو قد التقى بطبيب الداي ووصفه بكونه رئيس بقية الأطباء.

إنّ أقوال هؤلاء لا تتعارض مع ما ذهب إليه الدكتور ناصر الدين سعيدوني في قوله:

"أنّ مهنة الطب تكاد تقتصر في العهد العثماني، في الموانئ البحرية ومنها ميناء مدينة الجزائر، على بعض الأطباء الأوربيين الذين اعتادوا معالجة بعض الشخصيات واكتسبوا من جراء ذلك احتراما وتقديرا لمعارفهم الطبية"[12].

والحقيقة أنه لم يكن بالجزائر أطباء بمستوى كفاءة الأطباء الأوربيين المتخرجين من المدارس الطبية. إنّما كان بها بعض من يمارسون الطب، الذين يفضل بعض الباحثين تسميهم بالمتطببين وأطباء الأعشاب أو المداوين، وحتى هؤلاء كان عددهم محدودا في أغلب الظن.

ولعل أهم سبب لقلة الأطباء بالجزائر هو عناية المؤسسات التعليمية بالجزائر بتدريس العلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها كاللغة والنحو والبيان وغيرها، وإهمال هذه المؤسسات تـــدريس العلوم العقلية بما فيها الطب، وهو ما أدى إلى قلة المشتغلين بهذه لعلوم. مع العلم أن الجزائر لم تنفرد بهذا الحال بل كان هذا حال كل العالم الإسلامي آنذاك[13]. وعلى سبيل المثال لا الحصر ما لاحظه ابن حمادوش في تطوان: "... وأما في الطب، فلم أر من يبحث عنه فضلا عن مـــا يتقنه في تطوان..." [14].

ويعد الشيخ عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش المتوفى سنة 1197هـــــ أشـــهر طبيب في الجزائر خلال العهد العثماني. وقد قامت دراسته للطب على جهوده الخاصة، فلا نجد من أساتذته في الطب إلا بعض العشابين[15]. وقد تميز عن معاصريه باهتمامه بالعلوم العقلية، بحيث اهتم بالطب والصيدلة والفلك والحساب وغيرها.

ألف عبد الرزاق بن حمادوش كتبا في الطب[16] وصنع مستحضرات طبية. وقد نوه بمكانته العديد من المؤرخين الجزائريين والغربيين كالدكتور أبي القاسم سعد الذي يرى بأنّه: "جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية"، ويضيف قائلا: "... وإذا عرفنا أنه كان في القـــرن الثاني عشر (18م) معاصرًا لعهد الاستنارة في أوربا، أدركنا أنه كان عندئذ أقرب في تفكيره واهتماماته إلى العلماء الأوربيين منه إلى العلماء المسلمين الخاملين"[17].

كما نوه به كل من غبريال كولان Gabriel Colin ولوسيان ليكلير Lucien Leclerc، وقد اعتبره هذا الأخير آخر ممثل للطب العربي لانفراده وتميزه عن غيره من الأطباء والقـــائمين على العلاج والذين مارسوا حرفة التداوي في الجزائر العثمانية[18].

هذا، وقد وجد بالجزائر أطباء ومتطببون آخرون، منهم: أحمد بن بلقاسم الذي كان جراحا ماهرا من منطقة تافرنت، وكان معاصرا للحاج أحمد باي، آخر بايات قسنطينة. وكان الحكام العثمانيون يلجؤون إليه في عمليات جراحية عديدة[19]. ومنهم من ترك مؤلفات في الطـــب كالشيخ أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني والمتطبب محمد بن علي باديس الصنهاجي[20].

هذا؛ وقد كان بالجزائر موظف يدعى الباش جراح، وهو الذي كان يتكفل بصحة الحكام وأعيان الأتراك والأسرى. وكان يجري بعض العمليات الجراحية، كما كان يشـــرف علـــى صيدلية الجنينة، وعلى الأطباء الأتراك الذين كانوا يأتون من مصر أو تركيا للتكفـــل بصـــحة الانكشاريين[21].

والواقع أنَّه على الرغم من عدم وجود أطباء متخرجين من مدارس طبية، إلا أنه وجد بعض الأطباء التقليديين المهرة الذين أحرزوا نجاحا في معالجة بعض الأمراض بالطرق التقليدية البسيطة التي يعرفونها، ولكن كان عددهم قليلا، ويبدو أن كفاءتهم لم تبلغ كفاءة الأطباء الأوربيين المتخرجين من الجامعات المتخصصة في الطب.

– الأطباء الأوربيون بالجزائر:

نظرا لقلة المتطببين بالجزائر وثق الجزائريون حكاما ومحكومين بالأطباء الأوربيين، الذين اكتسبوا احتراما وتقديرا لمعارفهم الطبية. وذلك ما أكده هابنسترايت بقوله بأن الجزائريين "يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصارى في هذا الشأن، ويدعوهم بالعلماء تعبيرا عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم"[22].

كان دايات الجزائر وكبار المسؤولين في الدولة يهتمون بشؤون صحتهم الخاصة؛ ويتخذون لهم أطباء كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. كما كانوا حريصين على اتخاذ أطباء أكفاء، ولهذا لجؤوا إلى الأطباء الأوربيين. ومن الدايات الذين استفادوا من خدمات الأطباء الأوربيين الداي علي خوجة الذي أتى بالطبيب الإسباني خوان فرنندز دي لاس هراس Dr juan Fernandez de las Heras بعد اشتداد وطأة الطاعون في جانفي 1818م، كما كان لبعض البايات أطباء يرعون صحتهم من ذلك الباي كليان بوكمية الذي كان له عام 1713م طبيب هولندي يسمى سانسون Sanson يشرف على صحته[23].

ونجد في رسالة لأحمد باي قسنطينة لمدير الباستيون بالقالة في أوائل رجب 1185هـ (1771م) يطلب طبيبا "... ابعث لنا الطبيب الذي هو عندكم للحاجة به، ويأتي معه بجميع الأدوية الصالحة لجميع الأمراض..."[24].

كما وجه صالح باي قسنطينة لنفس الغاية رسالة إلى مقر الشركة الفرنسية في مرسيليا يطلب طبيبا كان يعمل في الباستيون، ثم انتقل إلى فرنسا. جاء في رسالته المؤرخة بأوائل رمضان 1201هـ (1786م): "... وميلان المذكور هو الذي كان طبيبا في القالة سابقا لأنّنَا نعرفوه طبيب جيد، وإلا غيره من الأطباء الملاح غاية..." [25].

كان هؤلاء الأطباء يحصلون على مبالغ مالية هامة مقابل خدماتهم الطبية. بحيث كان أحد الزعماء بالشرق الجزائري وهو الشيخ عبد الله شيخ منطقة المعزولة بضواحي القالة يدفع ما قيمته 250 جنيه كل ثلاثة أشهر مقابل استفادته هو وعائلته من خدمات أطباء البستيون.

كما تسلم هابنسترايت الطبيب الرحالة الألماني بالإضافة إلى تسهيل مهمته العلمية التي جاء من أجلها إلى الجزائر"ثلاثة أكياس من النقود من صنف القروش"[26] من طرف الداي عبدي باشا[27] مقابل خدماته الطبية له ولابنه آغا العرب. ووصف هابنسترايت المبلغ المقدم له: "وبالفعل كانت هذه الهدية جديرة بمقام من قدمها وهو الداي". وفي موضع آخر يقارن هابنسترايت ما كان يحصل عليه من أموال بكيس من القروش أعطي لأحد الجنود الأتراك "... وهو مبلغ غير ذي بال، إذا ما قورن بما أحصل عليه كطبيب أجنبي يرعى صحة الداي"[28].

وقد تدل العبارة الأخيرة على أنّ الداي اتخذ هابنسترايت طبيبه الخاص على الرغم من قصر المدة التي قضاها في الجزائر والتي لم تتجاوز عشرة أشهر. حيث قضى جلها خارج مدينة الجزائر، ولكن لا ندري الكيفية التي كان يتحصل بها على هذه الأموال. هل كان يدفع له المال مقابل كل خدمة طبيبة أم أنها كانت على شكل راتب شهري؟ وتجدر الإشارة إلى أن هابنسترايت تسلم من الداي مقابل دواء حضره له، عندما همَّ بمغادرة الجزائر نهائيا ثلاثة أكياس من القروش وهي التي أشرنا إليها آنفا.

ومن ناحية أخرى فقد كان أهالي الجزائر عامة يعرفون تفوق الأوربيين في ميدان الطب ولهذا كانوا يحترمونهم ويسعون في الحصول على خدماتهم الطبيبة. فقد ذكر القسيس بواري: "أن سكان القالة كانوا يقدرون الأطباء الأوربيين الذين يتواجدون بالصدفة عندهم، ويستقبلونهم بحفاوة؛ وأنهم بمجرد رؤيتهم لطبيب أوربي يتهافتون عليه لطلب الكشف عليهم حتى ولو كانوا أصحاء؛ رغبة منهم في عدم تفويت الفرصة"[29].

وهو ما صادفه بنفسه عندما قام بزيارة شيخ المعزولة علي باي برفقة جراح البستيون. حيث يقول في ذلك: "بمجرد أن علم الأهالي بذلك أحاطت بنا مجموعة كبيرة منهم وطلبوا منا أن نكشف عليهم، فذهبنا إلى خيمهم واحدا واحدا. ولكنهم كانوا كثيرين فوجدت نفسي مجبرا أنا أيضا أن أشارك الطبيب في عمليات الفحص بعدما أفهمهم الطبيب أنني على نفس درجة كفاءته"[30].

إن ما ذهب إليه بواري فيه شيء من المبالغة شأن كتابات القساوسة. ولكن ما لا يمكن رفضه هو أن سكان الجزائر كانوا يقبلون على الأطباء الأوربيين، وذلك ما أكده الطبيب الرحالة هابنسترايت الموصوف بالموضوعية[31] في عدة مواضع من رحلته[32].

وقد جاء هابنسترايت إلى الجزائر في مهمة علمية وظل بها لمدة عشرة أشهر. وقد كان هو والوفد الذي يرافقه في الرحلة محل تقدير من طرف سكان الجزائر, ويعلل هابنسترايت ذلك بكونهم أجانب يمتهنون حرفة الطب: "أصبحنا محل تقدير لكوننا أجانب ولأننا نمتهن حرفة الطب أو التداوي بالأعشاب. فقد اعتادوا على تسميتنا بالباربيرو. ومرد ذلك أنهم كانوا يروننا في أغلب الحيان نحمل في أيدينا زهورا ونباتات" [33].

كان سكان الجزائر يطلقون على الأطباء الأوربيين كلمة باربيرو Borbiero وذلك ما أكده هابنسترايت في عدة مواضع من رحلته، وكلمة باربيرو في لغة الفرانكا[34] يقصد بها المشتغل بالطب أو المداوي بالأعشاب، وغالبا ما يرادفها في اللسان الدارج كلمتا حلاق أو مزين لارتباط ممارسة الطب بالحجامة[35]؛ هذا ويمكننا أن نقسم الأطباء الأوربيين إلى أربعة أصناف، هي:

- الأطباء الأحرار الذين كانوا يدخلون في خدمة كبار المسؤولين بالجزائر.
- الأطباء الموظفين بالمؤسسات والشركات الأوربية بالجزائر.
- الأطباء الرحالة الذين كانوا يزورون الجزائر لأغراض علمية.
- الأطباء الأوربيون الأسرى بالجزائر.

أ. الأطباء الأوربيون الأحرار

لقد استقر بعض الأطباء الأوربيين بالجزائر ودخلوا في خدمة كبار رجال الدولة مقابل مبالغ مالية طائلة. من ذلك على سبيل المثال: ما أشار إليه الأسير القنصل الأمريكي بالجزائر كاثكارت، الذي ذكر بأن باي قسنطينة قدم في شهر ماي 1788م إلى مدينة الجزائر حاملا الضريبة التي يقدمها البايات مرة كل ثلاث سنوات، وهي المعروفة في المصادر المحلية بالدنوش، وكان من ضمن المرافقين للباي في رحلته هذه طبيب مسيحي حرّ. ووصفه بأنه: "شاب اسمه جان جي، وهو قريب لمونص جيمون أحد كبار التجار الفرنسيين هنا، وقد كان في خدمة الباي مدة تسع سنين، حيث يكسب مبالغ مالية طائلة سنويا، وهو يتمتع بحظوة خاصة لدى الباي" [36].

والمعلوم أنّ باي قسنطينة في السنة المذكورة هو صالح باي، الذي وَلّاه الداي محمد باشا ولايتها سنة 1771م، وظل بها إلى أن عزل بعد وفاة الداي 1792م.

هذا؛ وتجدر الإشارة إلى أن المصادر لم تسعفنا لمعرفة ما إذا كان اتخاذ المسؤولين للأطباء الأوربيين الأحرار أمرا شائعا أم أنه اقتصر على بعض الشخصيات فحسب؟. وذلك لأننا وجدنا إشارات عابرة لأطباء أوربيين ولكن يتعسر علينا في بعض الأحيان معرفة وضعيتهم في الجزائر من كونهم أحرارا أو أسرى.

ب. الأطباء الأوربيون الموظفون في المؤسسات الأوربية بالجزائر

لقد كان الأطباء من ضمن الموظفين التابعين لبعض المؤسسات الأوربية كالقنصليات والشركات التجارية مثل الباستيون، الذي كان أطباؤه بما فيهم الجراحون يقدمون خدماتهم الطبية لجميع المرضى في مناطق الامتيازات.

كما كان السكان المجاورون للباستيون يستفيدون من خدمات أطباء البستيون حيث كان يسمح لهم -إلى جانب تطبيبهم للمرضى من موظفي الشركة- بأن يكون لهم زبائن من سكان مناطق الامتيازات. فقد كان طبيب البستيون غالبا ما يُرْسَلُ في طلبه من طرف رؤساء القبائل المجاورة، بل وحتى من طرف باي قسنطينة شخصيا أو كبار موظفيه. وهو ما أشارت إليه عدة رسائل[37] بعث بها بايات قسنطينة وعدد من زعماء القبائل إلى مدير الباستيون يطلبون فيها إيفاء أطباء لمعالجة أنفسهم أو لمعالجة أبنائهم.

تعود عدد من هذه الرسائل إلى صالح باي قسنطينة من ذلك رسالته إلى وكيل الباسيتيون عام 1774م، وأخرى إلى عام 1775م، التي يطلب فيها إرسال الطبيب الفرنسي المقيم في القالة ليعالج ولده. كما وجه صالح باي رسالة إلى وكيل الباستيون عام 1787م يطلب إرسال الطبيب الفرنسي المقيم في القالة إلى قسنطينة.

وقد وجدت رسائل من صالح باي يطلب أطباء لمعالجة بعض موظفيه. من ذلك رسالتين إلى وكيل الباستيون إحداهما مؤرخة بعام 1782م، والأخرى بعام 1785م يطلب في كليهما إرسال الطبيب الفرنسي المقيم في القالة إلى قسنطينة ليعالج أحد موظفيه. وقد جاءت الدعوة في الرسالة الأولى لمعالجة الحاج مسعود بن زكري؛ بينما ورد في الرسالة الثانية طلب من الطبيب ليعالج الحاج محمد بوعباية قائد الزمالة في قسنطينة[38].

وهناك رسائل بعثت بها بعض الشخصيات المهمة إلى وكيل الباستيون يطلبون إيفائهم بأطباء. من ذلك رسالة الحاج حسين بن عبد الله الخليفة إلى وكيل الباستيون عام 1789م يطلب إرسال الطبيب الفرنسي المقيم بالقالة إلى قسنطينة ليعالجه[39].

وتعود خمس رسائل إلى الشيخ علي باي شيخ المعزولة بن الحاج عبد الله[40] إلى وكيل الباستيون. من ذلك أربع رسائل إلى وكيل الباستيون عام 1792م، في ثلاثة منها طلب الأطباء لمعالجة أبنائه. ففي إحداها أرسل في طلب الطبيب الفرنسي المقيم في القالة ليعالج ولده التومي، وفي أخرى طلب إرسال الطبيب الفرنسي المقيم في القالة ليعالج ولده حسين[41].

وقد حدثت بعض المشاكل بسبب تردد الأطباء الأوربيين على منازل السكان لتقديم خدماتهم الطبية. وذلك ما نجده في رسالة صالح باي إلى وكيل الباستيون عام 1779م، التي ضمنها أمرا للفرنسيين بعدم دخول ديار المسلمين، لإقدام قائد عنابة على قتل امرأة بسبب اتهامها بالفاحشة مع طبيب القالة الفرنسي[42].

إنّ ما تحمله الرسالة الأخيرة ليس غريبا لغيرة الجزائري المفرطة على المرأة من ذويه، لا سيما من الأوربي حتى ولو كان طبيبا وهذا ما أورده هابنسترايت:" وقد ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته، وعندما طلبت منه أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن تموت على أن يراها أحد" [43].

ويبدو أن الصلة التي كانت تجمع السكان بالأطباء الأوربيين كانت قوية إلى الحد الذي جعل بعض الأطباء يعتنق الإسلام. فقد تلقى إبراهيم وكيل الحرج في الفاتح من رجب 1240هـ (1824م) رسالتين ترد الإشارة في كليهما إلى أنّ طبيب أوربي يقيم في عنابة ويتردد على قسنطينة لمعالجة المرضى يعتنق الإسلام في قسنطينة[44].

ومن أشهر الأطباء الأوربيين الموظفين في الجزائر العثمانية الكاهن الانجليزي شاو، الذين كان يعمل في القنصلية البريطانية بالجزائر. ولكن ليس لدينا ما يثبت تقديمه لخدمات طبية للجزائريين، ولا ما ينف ذلك. إلا أن مكوثه بالجزائر مدة طويلة تربو على اثنتي عشرة سنة تجعلنا لا نستبعد أن يكون هو الآخر قد قدم خدمات طبية لرجال الدولة في الجزائر.

ج. الأطباء الأوربيون الرحالة

زار الجزائر خلال العهد المدروس عدد من الأطباء الأوربيين كلفوا بمهام علمية. من ذلك الطبيب وعالم النبات الألماني هابنسترايت[45] الذي دخل الجزائر سنة 1732م وظل بها حوالي عشرة أشهر. وقد كلف من طرف ملك بولونيا برئاسة بعثة علمية إلى شمال إفريقيا، للتعرف عن كثب على نباتات المنطقة، والعمل على جمع عينات منها لفائدة القصر الملكي[46].

رحلة هابنسترايت مهمة من ناحيتين من حيث المادة العلمية التي تقدمها سيما لموضوعنا، ومن حيث اتصاف صاحبها بالموضوعية، وقد أكد على الصفة الأخيرة ناصر الدين سعيدوني الذي وصفها بكونها: "أقرب ما تكون إلى الاعتدال والموضوعية والنظرة المتزنة بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها..."، وبأنها" جاءت وصفا دقيقا لأوضاع تلك الأقطار(الإيالات المغربية) وتعبيرا صادقا عن آرائه، إذ لم يهتم فيما سجله إلا برصد الواقع كما تعرَّف عليه"[47].

أما من حيث المادة التي تقدمها فيتجلى ذلك بالمقارنة مع رحلة أخرى تزامنت معها وهي رحلة الطبيب بايسنال Jean-André peyssonnel المعنونة بـ: "رحلة في أيالتي تونس والجزائر"، بحيث زار هذا الرحالة الجزائر خلال سنتي: 1724م- 1725م، وعلى الرغم من أنه طبيب إلا أنه لم يول الطب أي اهتمام.

وأول ما فعله هابنسترايت في الجزائر هو مقابلته داي الجزائر عبدي باشا وإعلامه بالمهمة التي قدم من أجلها إلى الجزائر. وهي القيام بأبحاث علمية يجمع فيها النباتات والحيوانات النادرة. فأجاب الداي الوفد العلمي بأنّ بلاده مفتوحة لهم في رحلتهم، وأنهم يستطيعون الاعتماد على حمايته[48].

كان هابنسترايت والوفد الذي يرافقه في الرحلة محل تقدير من طرف السكان، ويعلل ذلك بكونهم أجانب يمتهنون حرفة الطب. أيقن هابنسترايت بأنّه من المضر لمشاريعه في البحث رفض وصف الأدوية لبعض كبار الشخصيات وخاصة آغا العرب، وهو ابن الداي الذي عرف المفعول الجيد للوصفات التي كان يقوم بتحضيرها له. وقد قدم له الآغا هدايا تتمثل في بعض الحيوانات النادرة. وأمر بأن تبحث له عن حيوانات نادرة أخرى. وهو نفس السلوك الذي أبداه معه الآخرون:" فكلما قدمت خدمة لأحد إلا وحاول لأن يظهر لي عرفانه بالجميل بتقديم هدايا كالتي قدمها لي الآغا..." [49]. كما سمح آغا العرب لهبنسترايت بمرافقته في رحلته الاعتيادية مع المحلة داخل البلاد لجمع الضرائب من الفلاحين[50].

ولما أراد هابنسترايت مغادرة الجزائر شكر الداي على مساعداته، وطلب منه الإذن في مواصلة سفره نحو تونس، فأذن له "شريطة أن يترك له الأدوية التي كان لها مفعول في معالجة ابنه، وتعليمه كيفية استعمالها، فقام هابنسترايت بتحضيرها له "، وسلم الوصفة الخاصة بها لحرسه الشخصي ليتمكن من استخدامها في معالجة ما يلم به وبأصدقائه من الأمراض..." [51]، وقد كافأه الداي بـ: "ثلاثة أكياس من النقود من صنف القروش".

وهكذا فإن معارف هابنسترايت الطبية ساعدته على النجاح في مهمتـــه، ومكنتـــه مـــن اكتساب صداقة الداي وابنه آغا العرب. وفي رسالة هابنسترايت الموجهة إلى الملك والمؤرخـــة بأول جوان 1732: "إن رغبتكم في الحصول على حيوانات نادرة وخاصة منها التي لا زالت على قيد الحياة تتطلب السفر إلى الأقاليم الجنوبية لهذا البلد (مقاطعة التيطـــري)... فكانـــت مناسبة سعيدة بالنسبة لي أن يقوم آغا الصبايحية الذي كنت قد عالجته بجولته الاعتيادية داخل البلاد لجمع الضرائب من الفلاحين... وبالفعل فقد تمكنت من الحصول علـــى إذن الـــداي بمصاحبة المحلة، وقد زودني برسالة موجهة إلى كل الحكام الخاضعين لسلطته تطلب منـــهم أن يوفروا لي رفقة تقوم بحمايتي أثناء قيامي بأبحاثي، لقد غادرت مدينة الجزائر في 22 أفريـــل (1732) مع بعض من رافقوني في رحلتي، وقد أرسل معي الداي دليلا وفارسا (صـــبايحي) ليكونا في صحبتي..." وممن رافقه في رحلته: "الطبيب شاو Dr Shaw كاهن القنصلية الإنجليزية الذي تحصل هو أيضا على رخصة السفر" [52].

وترد في رحلة هابنسترايت نصوصا مهمة حول اتصال السكان به، منها: "وقد لاحظت أنّ حمل باقة من النباتات في اليد هو بمثابة جواز مرور معروف ووسيلة ممتازة لضمان السلامة، لأنّ من يذهب للبحث عن النباتات يُنظر إليه هناك بأنّه متطبب أو مداوي بالأعشاب... وفي هذا الصدد قدمت خدمات للمرضى الذين عرضوا علي حسبما أمكنني ذلك، وقد اســـتعملت في ذلك بعض النباتات الشائعة التي تنمو بناحيتهم وأوضحت لهم كيفية استعمالها، فقـــد كـــان يدفعني إلى ذلك إيماني بأن نعمة الخالق جعلت الدواء الذي يحتاجونه في شكل نباتات تنمو عند أقدامهم، وكانت أتعابي كطبيب في هذه المعالجات لا تتجاوز غالبا تقديم كأس من الماء البارد أو تناول قليل من الحليب اللّذيذ..." [53].

هذا وقد تزامنت الفترة التي زار فيها هابنسترايت الجزائر مع الاحتلال الاســـباني الثـــاني لوهران. ولهذا كان الأوربيون يتخوفون من رد فعل الأهالي، ويتخوفون من الخروج بـــدون حراسة. بل أن هابنسترايت كان يقدم خدمات للسكان كعمل إنساني من جهة وللتودد إليهم حفاظ على حياته من جهة أخرى، وذلك ما نلمسه في هذه الفقرة: "... هذا وقـــد اتخـــذت لنفسي قاعدة في ممارسة الطب في البلدان غير المتحضرة أن لا أرفض تقديم العون لأي شخص ما دمت قادرا عليه، لأنّ الامتناع موقف يتصف بالخطورة، بينما الإقدام على المعالجة دون ترو يعتبر حماس واندفاع غير محسوب العواقب، وهذا ما تطلب مني القول عند بداية معالجة المريض

بأن نتيجة علاجه غير أكيدة، ودفعني إلى التستر عن مهنتي كلما أمكنني ذلك، وإن مـــزاولتي لهذه المهنة بنجاح كانت من أجل الحفاظ على حياتي، وليس من أجل كسب النقود".

يبين هابنسترايت في عدة مواضع من رحلته احترام سكان الجزائر له لأنه طبيب، وبأنه كان يرد على حسن ضيافتهم بأن يقدم لهم بعض الأدوية: "سكان تلك الجهات من بربر وعـــرب كانوا يخصوننا بكميات أوفر من الطعام... ولكوني طبيب... فقد كان الطعام يقدم لي مباشرة بعد الآغا، وقد كلفتني هذه المعاملة بعض الأدوية التي كنت قد حضرتها مسبقا، فقد كنت أقوم بتوزيعها على المرضى من جنود المحلة أو سكان تلك البلاد"[54].

وقد أشاد هابنسترايت بحسن الضيافة التي حظي هو ورفاقه في بضواحي عنابة عندما قصد شيخ أحد الدواوير للمبيت: "استطعنا النوم بأمان لأنّ حسن الضيافة إحدى خصال العـــرب، فيسهرون جيدا على حراسة الأجانب... وبالمناسبة وزعنا على مستضيفينا بعض الأدوية الـــتي طلبوها منا" [55].

د. الأطباء الأوربيون الأسرى

يضم طاقم السفينة عادة طبيب أو طبيب جراح، وعندما يتم أسر السفن الأوربية من طرف البحارة الجزائريين يكون هؤلاء الأطباء من بين الشخصيات التي يتم بيعها أو افتداؤها بـــثمن معتبر، وذلك ما أكده هابنسترايت في قوله: "تشكل تجارة الأسرى المسيحيين أحد مصـــادر الدخل الرئيسية. فكل أسير له قيمة محددة حسب مكانته. فالقابودان وهو قائد السفينة، يتطلب إطلاق سراحه دفع ألفين وخمسمائة قرش، بينما معاونه وكذلك صانع السفن أو الجراح فيدفع عن كل واحد منهم ألف وخمسمائة قرش"[56].

ومعظم الأطباء الذين اتخذهم الدايات والمسؤولون أطباء خاصين بهم كانوا قد حُمِلـــوا إلى الجزائر كأسرى عند التزاع البحري. والأمثلة على ذلك كثيرة: نذكر منها: أنّ الباشا بابـــا علي كان له طبيب جراح فرنسي وقع أسيرا[57]. كما اشترى صـــالح بـــاي في 22 شـــوال 1195هـــ (1780م) طبيبا إيطاليا يدعى باسكوال غاميزو Pascual Gamizo بألف محبوب وهي تعادل حوالي 4000 فرنك، وكان هذا الأخير على متن مركب حربي نابوليتاني عندما وقع أسيرا في شوال 1191هـــ/1777م ضمن أسرى الحاج محمد الإسلامي رايس[58].

وقد كان الجراحون الأسرى يجبرون على تنفيذ عقوبة قطع أطراف المجرم، وذلك ما يشير هابنسترايت من أنّ من الجرائم الكبرى كالإنقاص من العملة: "اليهودي أو النصراني الـــذي

ينقص من العملة تقطع يديه ويشنق ويُطاف بجثته على ظهر حمار في أرجاء المدينة، وهذه العقوبة نفذت حديثا وأرغم الجراحون من الأسرى على القيام بالإجراءات المتعلقة بها..."[59].

ونجد في كتاب "التشريفات" قائمة تضم أسماء عدد من الأسرى من الضباط والأطباء منهم أحد عشر طبيبا وجراحا. وللأسف فإن كتاب التشريفات لم يخبرنا إلا عن بيع واحد منهم لصالح باي وهو الذي أشرنا إليه، وسكت عن البقية، منهم عدد من الأطباء البرتغاليين كجوزيف ألبرت Joseph Albert الذي سجن سنة 1180هـ(1766م)، وفرانسيسكو فينيارد Francisco Vignard الذي سجن في 9 ذي الحجة 1214هـ (1799م)[60].

وفي عام 1200هـ (1785م) أسر عصمان رايس دراو وصالح رايس الجيجلي الربان الليفورني خوسيفو مونتارد Josefo Montardi وعدد من معاونيه، ومنهم طبيبه دونستيا جيكومو Giccomo-Missavali Donastia، ومن ضمن أسرى حميدو في رجب 1217هـ (1802م) طبيب إسباني اسمه خواكينو أونونيو داكيوتو Juaquino Antonio Dakioto[61].

ومن بين الأطباء الأسرى بالجزائر الألماني سيمون بفايفر صاحب كتاب "مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر" الذي جيء به أسيرا إلى الجزائر سنة 1825م، وظل أسيرا بها مدة خمس سنوات بحيث حرر وأطلق سراحه عند الاحتلال الفرنسي.

عمل بفايفر في مطبخ قصر الخزناجي لمدة سنتين، ولما علم هذا الأخير بما كان تعلمه بفايفر في بلده؛ جعله طبيبه الخاص بعدما تمكن من معالجته[62]. مع أن بفايفر لم يكن يعرف كثيرا من فروع الطب، وذلك ما يؤكده هو بنفسه: "كنت أعرف أن كثيرا من فروع الطب مجهولة لدي تماما، وأن خبرتي القليلة لا تسمح لي بأن أحمل لقب طبيب." [63].

ويذكر بفايفر بأن الوزير سأله عن المهنة التي تعلمها سابقا في أوربا فأجابه بأنه تعلم "فن الجراحة، فسُرَّ بذلك سرورا كبيرا"، وقال له: "إنَّها مهنة تدر الأموال على صاحبها خاصة في الجزائر، حيث لا يوجد طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربي"[64].

كانت مهمة بفايفر" تنحصر في معالجة الوزير وغيره من أفراد القصر إذا أصيبوا بمرض "... وكان الداي (حسين داي) الذي لم يكن له طبيب خاص يستشيره إما بواسطة الوزير أو بواسطة أحد خدامه كلما حلت به وعكة"، ثم في فترة لاحقة تمكن من التعرف عليه شخصيا.

وباتخاذ بفايفر طبيبا خاصا احتل مكانة مرموقة في القصر، وتغيرت حياته تماما، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ومنذ تلك اللحظة أصبحت كأني انتقلت إلى حياة أخرى، فتركت مغارة الفئران، وسكنت غرفتين كبيرتين في القصر"، وكانت الغرفتين مزينتين ومجهزتين بالأثاث والزرابي، وارتدى بفايفر ملابس رفيعة وتمتع بالمأكولات اللذيذة، وكلف بخدمته خادمان، ولخص وضعه الجديد بقوله:" ولم أكن أفتقد شيئا إلا حريتي...".

أحضر الخزناجي لبفايفر بأمر من الداي صيدلية صغيرة، وآلات الجراحة من باريس، إلا الكتب فلم يحضرها له[65]، وعندما ألح على الوزير في حاجته إلى الكتب سيما الكتب الخاصة بالجراحة، أجابه بأنه لا يستطيع أن يحضر له شيئا منها، إلا إذا كان في حاجة إلى كتب عربية أو فارسية أو تركية فإنه يحضر له الكثير منها، وأرسل له في الحال معلما تركيا لتعليمه مبادئ اللغة العربية والتركية[66]؛ كسب بفايفر ثقة الوزير بفضل تفانيه في خدمته، بدليل قوله محدثا نفسه: "وفي إحدى المرات قلت لنفسي أنه على استعداد للاستجابة لأي رجاء آخر، وأنه سيطلق سراحي بمجرد أن يعثر على طبيب يحل محلي..." [67].

ويذكر بفايفر أنه كان الطبيب الوحيد الذي يعالج المرضى والجرحى في الدور والثكنات عند الاحتلال، وكان يساعده بعض الممرضين[68]، ولهذا خاطبه الوزير قائلا -بعد أن أخبره بكثرة الجرح - : "نظرا لأننا ليس لدينا أطباء فقد طلب مني الباشا أن أرسلك إلى الثكنات التي حمل الجرحى إليها، وإني على يقين من أنك لن تبخل على أولئك المساكين بمساعدتك"، ووعده بالمكافأة عند انتهاء المعركة، فأجاب بفايفر طلبه مشترطا عليه ضمان حريته له، فرد عليه الوزير في الحال بقوله:" أنت حر، وسوف أكافئك مكافأة السلطان، إن أنت اعتنيت بالجرحى عناية كاملة"[69].

من خلال ما سبق يتبين أننا لا نستطيع أن نتجاهل آراء الكتاب الأوربيين القائلين بتدهور الطب في الجزائر خلال العهد العثماني سيّما وأن فيها عدد من الكتاب الموضوعيين، ومع معاضدة بعض الكتابات المحلية لآرائهم، بل أن الواقع نفسه بعضها من قلة عدد الأطباء والمرافق الطبية، ولكن حسبنا أن نشير إلى أن بعضها يحمل مبالغة واضحة، كما أن هؤلاء الرحالة أتوا من عالم متقدم بعد عصر النهضة، فطبيعي أن يروا الطب في الجزائر بذلك التدهور لمقارنتهم له بما في بلدانهم.

الحقيقة التي لا سبيل من الاعتراف بها وإنكارها أن عدد الأطباء في الجزائر كـــان قلـــيلا، بالإضافة إلى كونهم أقل كفاءة من الأطباء الأوربيين، وهذا ما جعل رجال الدولة يلجأون إلى هؤلاء، ولكن عدم وجود أطباء جزائريين متخرجين من مدارس طبية، لا ينفي وجود بعـــض الأطباء التقليديين المهرة، والمداوين أو أطباء الأعشاب ممن مارسوا مهنة الطب وبعضهم ورثها عن أبائه بل أن بعض المصادر الأوربية نفسها تشير إلى نجاعة بعض الطرق التي كان يستخدمها بعض المداوين الجزائريين في العلاج.

– الهوامش:

I رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـــ/ 1732م)، ترجمـــة وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني. تونس: دار الغرب الإسلامي. (ط1)، 2008. ص: 11.

2 عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر، ص: 274.

3 مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا بالجزائر 1824م، ص: 81.

4 L'Abbé poiret, *Lettres de barbarie*. p: 134.

5 هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 77.

6 يعرف حمدان خوجة، سكان السهول بأنهم" أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع" . المرآة، تعريب: محمد العربي الزبيري. الجزائر منشورات Anep، 2005. ص: 31.

7حمدان خوجة، المصدر نفسه. ص: 36.

8 Shaw, L 'Algérie un siècle avant l'occupation française (Au 18e siècle), témoignage de Shaw. Traduit par : J. Mac. Carthy .Paris: Editions Imprimerie de Carthage.(2eéd) , 1968. p:48.

9 Ibid, p: 51.

10 Laugier de Tassy, p: 82

11 Shaw,Op-cit. p:47.

12 سعيدوني، رحلة هابنسترايت، ص: 23، هامش: 1.

13 لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية. الجزائر: دار سنجاق الدين، (ط1)، 2010. ص: 68.

14 عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال أو« رحلة ابن حمادوش »، تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، 1983. ص: 71.

15 لزغم فوزية، المرجع السابق. ص، ص: 71، 71.

16 من مؤلفات ابن حمادوش في الطب:" الجوهر المكنون من بحر القانون" وهو في أربعة كتب، من أشـــهرها الجزء الرابع وهو بعنوان " كشف الرموز"، ومن كتبه أيضا " تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج".

17 أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثاره. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. 1982. ص: 40.

18 يذهب ليكلير إلى:" أنّ الأطباء كانوا مطلوبين بقوة في الجزائر".Lucien Leclerc, p:211 .

19 فلة موساوي القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1518- 1871م)، دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر. جامعة الجزائر، 2003- 2004. ص – ص: 193- 195.

20 ألف الأول منهما عام 1116هـ كتابا بعنوان " إعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة"، كما ألف عام 1132هـ كتاب بعنوان " مبين المسارب في الأكل والطب مع المشارب". أما الثاني منهما فقد ألف كتابا بعنوان: " المنافع البينة وما يصلح بالأربعة أزمنة".

21 القشاعي، المرجع السابق. ص: 241.

22 هابنسترايت، المصدر السابق. ص: 77.

23- غادر الداي علي خوجة قصره واستقر بالقصبة نتيجة تخوفه من الوباء، كما قام بطرد الطبيب الإسباني أسانتي. ولم يشفع في الطبيب الفرنسي توسال (Dr Tousel) الذي أرغم على مغادرة الأيالة الجزائرية. فلة قشاعي، المرجع السابق. ص، ص: 240، 241.

24 رسالة رقم 43، ضمن المجموع رقم: 1641- المكتبة الوطنية الجزائرية؛ وينظر أيضا: خليفة حماش، كشاف الوثائق عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنيتين بالجزائر وتونس. ضمن المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية. زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. ع: 13، 14. أكتوبر 1996. ص: 314.

25 Lettres écrite en arabe.

26 يعرف هابنسترايت القرش بأنها: " تعتبر أصغر نقود الجزائر، والتي لها نفس قيمة الريالات الفرنسية القديمة (Écus)...". هابنسترايت. المصدر السابق. ص: 77.

27 كان الداي عبدي باشا (1724- 1732م) قبل توليه دايا على الجزائر، آغا الصبايحية العرب، كما حكم بايلك التيطري. انظر: ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي. الجزائر: بيت الحكمة، (ط1)، 2009. ص، ص: 61، 62.

28 سلم هذا الكيس لأحد المنتصرين في مباراة بين جنديين تركيين، وكانت تنظم هذا النوع من المباريات في مدينة الجزائر بمناسبة العيد الأضحى. هابنسترايت. المصدر السابق. ص- ص: 77- 80.

29 L'Abbé poiret, Op-cit. P.133.

30 L'Abbé poiret, Op-cit. pp: 94-95.

31 من خلال قراءتنا لرحلة هابنسترايت تتضح موضوعية صاحبها، وهو الأمر الذي وقف عليه مترجم الرحلة الدكتور ناصر الدين سعيدوني.

32 كان الجزائريون" يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصارى في هذا الشأن، ويدعوهم بالعلماء تعبيرا عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم..."هابنسترايت، المصدر السابق. ص: 77.

33 هابنسترايت، المصدر السابق. ص: 23.

34 لغة الفرنكا هي خليط من لغات شعوب البحر المتوسط.

35 ناصر الدين سعيدوني، في تعليق له في هامش رحلة هابنسترايت. هامش 1، ص: 23.

36 كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر: إسماعيل العربي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982. ص- ص: 116- 118.

37 هذه الرسائل ضمن المجموعة رقم 1641 بالمكتبة الوطنية الجزائرية .

38 الرسائل رقم: 51، 53، 56، 75، 84، ضمن المجموع رقم 1641.

39 رسالة رقم 90، ضمن المجموع رقم: 1641، ؛ وينظر أيضا: خليفة حماش، المرجع السابق، ص: 317.

40 علي باي شيخ منطقة المعزولة ابن الشيخ عبد الله تولى المنصب عام 1785م، وظل به إلى أن عزل منه عام 1793م.

41 الرسائل رقم: 85، 96، 107، 109، 113 ضمن المجموع رقم: 1641.

42 ، الرسالة رقم 66، ضمن المجموع 1641

43 هابنسترايت، المصدر السابق.ص: 47.

44 الرسالة الأولى من محمد باي وهي برقم 50 ضمن المجموع رقم 1903 بالمكتبة الوطنية. والرسالة الثانية من الرئيس دحمان في القل وهي تحت رقم 2 من المجموع رقم 3206.

45 هابنسترايت (المتوفى سنة 1757م) عين بعد عودته أستاذا للطب في لايبريغ . هابنسترايت، المصدر السابق. ص: 23.

46 هابنسترايت، المصدر نفسه. ص: 23.

47 ناصر الدين سعيدوني، في تقديمه لرحلة هابنسترايت. ص- ص: 13- 16.

48 هابنسترايت، المصدر السابق. ص، ص: 21، 22.

49 المصدر نفسه، ص: 23، 24.

50 المصدر نفسه، ص: 53.

51 المصدر نفسه، ص: 77.

52 المصدر نفسه، ص، ص:53،54.

53 يصف هابنسترايت اتصال السكان به بدون مبالغة، ووصفه يختلف عن وصف القسيس لابي بواري. هابنسترايت، المصدر السابق. ص، ص: 56، 57.

54 المصدر نفسه. ص، ص: 57، 58.

55 المصدر نفسه. ص: 83.

56 المصدر نفسه. ص : 42.

57 Laugier de Tassy, Op-cit. p: 82

58 Albert De Voulx, *Tachrifa*t. Alger : Imprimerie de Gouvernement, 1852. p: 90.

- هابنسترايت، ص: 39- 40. 59

60 منهم الجراح جيورجي دزانكـــري (Georgy Dzankari)، وخواكينـــو كـــارديرو (Juaquino Cardéro)، وسيمون بيدرو (Simon Pedro). ولويس جوزيف (Louis Joseph)، وجوزيف أليدا (Joseph Alida)، وخوان كارديرو (Juan Cardéro). مواضع متفرقـــة مـــن كتـــاب التشـــريفات الصفحات: 88، 89. 94. 97.

.861 De Voulx, Op-cit . p:92 ; 9

62 سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب: أبو العيد دودو. الجزائـــر: الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974. ص- ص: 3-5.

63 المصدر نفسه، ص: 91.

64 المصدر نفسه. ص: 25.

65 المصدر نفسه.ص- ص: 26- 29.

66 المصدر نفسه. ص، ص: 48، 51.

67 المصدر نفسه. ص: 54.

68 المصدر نفسه. صفحات متفرقة: ص:7، ص: 104، ص: 88.

69 المصدر نفسه. ص، ص: 86- 87.

زاوية الشرفة 1709ـ1848م
نموذج للمؤسسات الاجتماعية بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني

أ/ ياسين بودريعة
جامعة البويرة

– مقدمة:

لقد تأسست بمدينة الجزائر في العهد العثماني مؤسسات ذات طابع ديني واجتماعي وخيري عرفت بالزوايا، وقد تعددت أسباب تأسيس مثل هذه المؤسسات فمنها ما يرجع إلى سبب اجتماعي مثل زاوية بوطويل التي كانت تأوي المشردين، ومنها لأسباب دينية وخيرية مثل كل الزوايا التي أسست اقتداء بالأولياء مثل زاوية عبد الرحمن الثعالبي خارج مدينة باب الواد، وزاوية عمر التنسي قرب زاوية عبد الرحمن الثعالبي وغيرهما، و هناك أسباب تعليمية مثل زاوية كجاوة قرب سوق الجمعة، كما تأسست زاويا خاصة بفئات اجتماعية خاصة كزاويتي الأندلس الخاصة بفئة الأندلسيين الذين هاجروا إلى مدينة الجزائر بعد سقوط الأندلس، وزاوية الشرفة وهي خاصة بفئة الأشراف.

من الصعب إضافة معلومات جديدة حول مثل هذه المواضيع من خلال المصادر والمراجع فقط، لذا كان الاعتماد على الوثائق الأرشيفية الموجودة بمؤسسة الأرشيف الوطني بالجزائر هو الحل الأمثل و في نفس الوقت الأصعب لمعالجة موضوع زاوية الشرفة من مختلف جوانبه، حيث اعتمدنا أساسا على سجلات المحاكم الشرعية[1] حيث قمنا بفرز كل الوثائق التي تخص الزوايا ومنها تمكنا من الحصول على معطيات هامة فيما يخص زاوية الشرفة، من جهة أخرى قمنا باستغلال معطيات هامة تتعلق بالعائدات المالية التي كانت تتحصل عليها الزاوية من خلال عملية كراء الأوقاف التابعة لها و المصاريف التي كانت تقوم بها لتغطية نشاطاتها أو صيانتها، وهذا السجل يغطي فترات زمنية متقطعة نتيجة فقدان جزء منه يمتد إلى غاية 1825.

– مصطلح الشريف:

قبل الحديث عن زاوية الشرفة لابد من الإشارة إلى مفهوم مصطلح الشريف عموما و مفهومه بمدينة الجزائر خصوصا في العهد العثماني. فكلمة الشريف جاءت من كلمة الشرف وهو الحسب بالآباء ويقال رجل شريف ورجل ما وجد له أباء متقدمون في الشرف وجمعها شرفاء وأشراف[2]، وقد كان الأشراف هم رؤساء القبائل ذات الشأن والجاه حيث كان بأيديهم تدبير شؤون أهل المدينة، وبعد مجيء الإسلام صار الانتساب إلى بيت النبي علامة شرف خاص وهذا بسبب تأثير أراء الشيعة، كما أصبحوا يسمون بأهل البيت وهذه التسمية وردت في القرآن الكريم حيث يقول الله عزّ وجلّ: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)[3] ويرى الشيعة أنّ المقصود بأهل البيت هم آل علي و فاطمة بنت الرسول[4].

إنّ الشريف بمدينة الجزائر في العهد العثماني هو كل من يستطيع إثبات أنّ له نسب ينتهي إلى علي وفاطمة، ويرى "لوجي دو تاسي" أنّ هذا ليس معناه أنه كان يملك وثيقة تثبت هذا النسب وإنما يرث هذا النسب أبا عن جد[5]. أما بعد تأسيس زاوية الشرفة فقد أصبح من مهامها إثبات أو خلع النسب الشريف[6]. وقد كان لميزة النسب الشريف خصوصية في المجتمع لذلك نجد أن الناس كانوا يحاولون إثبات هذا النسب بكل الطرق ومنها الإدعاء بأنهم جاءوا من مدينة مكناس، أو مدينة فاس أو الساقية الحمراء[7] حيث شاع ادعاء الشرف في هذا العهد بكثرة حتى أنك لا تجد عالما أو صالحا قد اشتهر أمره بين الناس إلاّ و اسمه مقرون بعبارة الشريف الحسني وقد تميّز الأشراف بمدينة الجزائر بلبس عمامة خضراء[8]، وقد أصبح الأشراف من الفئات المتميزة في مدينة الجزائر.

كان للأشراف بمدينة الجزائر نقابة خاصة ويسمى رئيسها "نقيب الأشراف" ومن أشهر العائلات التي تولت نقابة الأشراف بمدينة الجزائر عائلة المرتضي وعائلة الزهّار، وقد كان نقيب الأشراف يتمتع بمكانة مرموقة لدى رجال الدولة حتى أنّه كان من بين الذين يمضون تعيين الباشا الجديد، إلى جانب المفتي والقاضي وأعضاء الديوان والأعيان[9].

– إشكالية التسمية:

لقد ورد اسم الزاوية بثلاث أسماء مختلفة وهذا في مختلف المصادر و المراجع التي تناولتها وقد جاءت أسماءها على هذا ا النحو "زاوية الشرفة"، "زاوية الشرفاء"، "زاوية الأشراف" ونلاحظ أن كل هذه الأسماء وردت في عقود الحبس الخاصة بالزاوية ففي وقفية قامير بنت الحاج محمد عنبرجي، وعمها الحاج أحمد الحرار، ورد اسم الزاوية باسم الأشراف وقد جاء على هذا النحو"... وبعد وفاة الوالدة قامير المذكورة يرجع منابها الذي هو ثلث الجلسة المذكورة حبسا ووقفا على زاوية الأشراف..."[10] كما ورد اسم الزاوية باسم الشرفاء في عقد وقفية الحاج أحمد بن براهيم و شقيقته فاطمة و قدا جاء على هذا النحو"...فيرجع ذلك حبسا ووقفا على زاوية الشرفاء الكاينة بسوق الجمعة داخل البلد المذكور..."[11]، كما ورد اسمها باسم "الشرفة" عدة مرات، وفي الحقيقة فإن هذه الأسماء كلها تعبر عن كون الزاوية خاصة بأشراف مدينة الجزائر[12].

– تأسيس زاوية الشرفة:

لقد كان تأسيس زاوية الشرفة على يد أحد حكام الجزائر وهو الداي بكداش محمد[13] وهذا للمكانة المرموقة التي حضي بها أشراف المدينة لدى الحكام، وهذا سنة 1121هـ/1709م قرب سوق الجمعة، وقد نقل دوفولكس وثيقة التأسيس وترجمها إلى الفرنسية وقد كان سبب تأسيس الزاوية حسبما جاء في الديباجة هي المكانة التي يحتلها آل الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة أنّ الله امتدحهم في القرآن (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا)[14]، كما قام الداي بوضع الخطوط العريضة لتسيير الزاوية وهي عبارة عن تسع نقاط:

1. لا يسكن الزاوية إلاّ عزاب الأشراف.

2. المستخدمون للزاوية يتم تعيينهم من فئة الشرفاء وهم الإمام، والمعلم والمؤذن، والشاوش. وإذا لم يوجد معلم من الشرفاء، يعين أحد العلماء الأتقياء.

3. الوكلاء هم المشرفون على مداخيل ومصاريف الزاوية و تستعمل هذه المداخيل في الصيانة والترميمات الأساسية، وفي شراء حصير للمسجد والزيت الذي يستعمل في الإضاءة، ودفع أجور المستخدمين، وهم: الإمام، والمعلم والمؤذن، و قارئ الحزب، والشاوش، ويعطى ما

يتبقى من المداخيل لفقراء الأشراف المولودين بالجزائر ولا يأخذ الوكلاء شيئا من الأمـــوال إلا إذا كان في حاجة ماسة إليها وفي هذه الحالة يضاف إلى قائمة الفقراء المتصدق عليهم.

4. لا تقتصر الصدقات على الرجال فقط بل تعطى للنساء والأطفال أيضا.

5. لا يتدخل نقيب الأشراف في تسيير الزاوية وإنما يعتبر من أعيان الأشـــراف وهـــذا الشرط اعتبرته الدكتورة غطاس بمثابة عزل الزاوية عن نفوذ و سلطة نقابة الأشراف[15].

6. جماعة الأشراف تجتمع مرة واحدة في العام بزاويتهم بحضور أحد الأعضاء من نسل مؤسس الزاوية إن وجد.

7. إثبات أو خلع صفة "النسب الشريف" لا يتم إلا بموافقة مجلس الشرفاء البارزين بعد التدقيق في نسب الشخص، وفي حالة نزع صفة "نسب شريف" من شخص ما لا تنزع هـــذه الصفة من ذريته، أمّا فيما يخص الوكالة فتبقى في ذريّة السيد الشريف الحسني أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد بن علي بن سعيد البونصي أبدا ما تناسلوا في الإسلام[16].

8. إذا مات أحد المنحدرين من نسل الوكيل و كان قد أوصى بأن يدفن في الزاويـــة لا أحد يعترض على هذا الأمر، أما إذا أراد أحد الأجانب أن يدفن في الزاوية فيمنع إلاّ في حالة تخصيص جزء من إرثه لفائدة الزاوية[17].

9. يتم تخصيص مناسبة المولد النبوي لتحضير وجبات توزع على فقراء الأشراف؛ كما قام الداي محمد بكداش بتعين الوكيل على الزاوية وهو أبو عبد الله سيدي محمد بن ســـيدي الحاج محمد بن علي بن سعيد الشريف الحسني[18].

– أوقاف زاوية الشرفة: نالت زاوية الشرفة حظها من الوقف مثلها مثل باقي زوايا مدينة الجزائر، والملاحظ أنه خلال عملية فرز وثائق سجلات المحاكم الشرعية وسجلات بيت المـــال والبايلك أن عدد الزوايا التي أوقف عليها سكان المدينة كان ستة زوايا فبالإضافة إلى زاويـــة الشرفة هناك زاوية كجاوة وزاوية القشاش، زاوية بوطويل، زاوية الأندلس، زاويـــة مـــولاي حسن[19] ومن خلال إحصاء عدد عقود الحبس الخاص بكل زاوية وجدنا أنّ زاويـــة الشـــرفة أكثرهم حبسا ب 11 عقدا، تليها زاوية كجاوة ب 8 عقود ثم زاوية القشاش ب 5 عقود، وفي الأخير نجد زاوية مولاي حسن بعقد واحد.

وإذا عدنا إلى الأوقاف الخاصة بزاوية الشرفة نجد أنّ معظمها أحباس ذرية بينما نجد عقدين فقط يخصان حبس خيري[20] وتوجد أربع عقود تحصلنا عليها ملخصة في إحدى سجلات بيت المال والبايلك، والملاحظ أنّ الأشخاص الذين قاموا بالوقف على الزاوية لم يكونوا فقط من الأشراف بل كانوا من فئات اجتماعية مختلفة مثل العسكر محمد بلكباشي وحسن بلكباشي، كما نجد أنه هناك ثلاث نساء أوقفن على الزاوية و هن فاطمة شقيقة الحاج أحمد بن براهيم، وقامير بنت الحاج محمد عنبرجي، والسيدة خديجة وفيما يلي جدول بعقود الحبس الخاصة بزاوية الشرفة.

جدول رقم I عقود الحبس الخاصة بزاوية الشرفة[21]

العلبة	اسم المحبس	نوع التحبيس	ماهية الحبس	السنة
110-109 وثيقة 57	الحاج أحمد بن إبراهيم وشقيقته فاطمة	دويرة قرب القصبة	ذري	أوائل شعبان 1239هـ/1823م
125-124 وثيقة 10	الحاج أمحمد بن الحاج علي	شطر الجنة مع رقعة بمرسى االذبان	ذري	أوائل رجب 1145هـ/1732م
133-132 وثيقة 74 عقدان	قامير بنت الحاج محمد عنبرجي	ثلث جلسة حانوت بالمقايسية	خيري	أوائل جمادى I 1210هـ/1795م
	الحاج أحمد الحرار ابن حسن ابن الفلكاجي الشريف	ثلثين من جلسة حانوت بالمقايسية	ذري	أوائل جمادى I 1210هـ/1795م
2/133-134	محمد بلكباشي	نصف دار بسويقة عمور	ذري	أوائل شوال 1121هـ/1709م

وثيقة 22 عقدان	حسن بولكباشي	نصف دار بسويقة عمور	خيري	أوائل شوال 1121هـ/1709م
2/133- 134 وثيقة 31	الحاج عبد الرحمن الشريف الحرار	شطر حانوت لصناعة الحرارين بسوق الشماعين	ذري	ربيع الأول 1210هـ/1795م
2/133- 134+ وثيقة 2/38	الحاج محمد الفراصدي ابن محمد	دار بير الجباح	ذري	أواسط محرم 1130هـ/1717م
بيت المال و البايلك علبة 16		دار بحومة السوق	مجهول	رجب 1248هـ/1832م
بيت المال و البايلك علبة 16	السيدة خديجة	ثلاث أرباع من دار قرب القهوة الكبيرة	مجهول	صفر 1146هـ/1733م
بيت المال و البايلك علبة 16	نفيسة بنت عبد الرحمن الفنارجي	دار بصباط العرس	مجهول	ذي القعدة 1153هـ/1740م
بيت المال و البايلك علبة 16	محمد الشريف بن بلقاسم الجيجلي	دار قرب كوشة ألولي أحمد بن يوسف	مجهول	ربيع الثاني 1124هـ/1712م

– أملاك زاوية الشرفة:

لا تعبر عقود الحبس الخاصة بالزاوية أو أي مؤسسة أخرى بصفة حقيقية عن أملاك الزاوية يرجع هذا بالأساس إلى عدة معطيات منها أن معظم عقود الحبس في أغلبها ذرية، وكذا ضياع الكثير من الوثائق مع دخول الجيش الفرنسي مدينة الجزائر ولقد كان الحل في سجلات البياليك حيث توفرت لنا معطيات هامة بشأن أملاك ومداخيل زاوية الشرفة وقد وردت هذه المعطيات في أحد سجلات البايلك[22] وهي ذات أهمية كبيرة خاصة لكونها تغطي فترة هامة من سنة

1176هـ/1762م إلى غاية 1241هـ/1825م، رغم وجود بعض الثغرات، ومن المعطيات التي أمدنا بها السجل، عدد أملاك زاوية الشرفة، وتطورها وطريقة كرائها وعائداتها، مما سمح بمعرفة حجم المداخيل السنوية للزاوية، أما الفترات الزمنية المتناولة في السجل فهي:

- من 1176هـ/1762م إلى سنة 1190هـ/1776م
- ومن سنة 1195هـ/1780م إلى شهر رجب 1201هـ/1786م
- من سنة 1221هـ/1806م إلى غاية شهر رجب 1241هـ/1825م

لقد تضمن هذا السجل نوعين من المعطيات:

– **النوع الأول:** عبارة عن بيانات لتحصيل مداخيل كراء الممتلكات التابعة للزاوية، من سنة 1182هـ/1768م إلى غاية سنة 1189هـ/1775م حيث نجد طريقة أخذ المبالغ مع ذكر اسم الكاري وفي بعض الأحيان طبيعة الملكية، و قد كانت العملة المستعملة هي الريال، وذكرت عملات أخرى لكن في كل مرة تحول إلى الريال و فيما يلي مثال عن طريقة نقل المعطيات كما هو مسجل بالسجل:

" الحمد لله بيان ما قبض أيضا من كراء الزاوية سنة 1182هـ.

9.25 من عند الكزار تسع ريالات و ربع دراهم

33 ثم من عند قويدر العزر ثلاثة و ثلاثون ريال دراهم

12.75 ثم من عند رجل[كذا]، سلطان و نصف"

إلى أن يصل إلى نهاية السنة فيسجل ذلك مع المجموع المتحصل عليه:

" 302 تمت السنة و استهلت سنة 1183"[23]

وبالتالي كانت مداخيل "زاوية الشرفة" سنة 1182هـ/1768م 302 ريال دراهم صغار.

– **النوع الثاني** عبارة عن بيان تحصيل كراء كل ملكية على حده، فقد وفرت معطيات عن الملكية، و تاريخ أول كراء، والعائدات المالية من الكراء شهريا، واسم الكاري والعملة النقدية المستعملة، وغيرها من المعطيات الهامة، حيث تم تتبع مراحل كراء الملكية منذ السنة الأولى للكراء إلى غاية سنة 1240هـ/1825م وفيها تم تناول كل تفاصيل كراء الوقف و المبالغ

المقتطعة من مبلغ الكراء في حالة وجوب إصلاح ذلك الوقف وهذا لاستدامة منفعتـــه، مثـــل ترميم الوقف كاستبدال الأبواب غير الصالحة أو تصليح زجاج النوافذ وما إلى ذلك.

لقد بلغ عدد أوقاف "زاوية الشرفة" عام 1176هـــ/1762م وقفا واحدا عبارة عن بيت بفندق كجاوة كان مدخوله السنوي 12 ريالا دراهم ثم ارتفع العدد إلى أربعـــة في الســـنة الموالية، ليرتفع إلى 17 وقفا ابتداء من سنة 1231هـــ/1816م، وقد كان أكبر مبلغ تحصلت عليه الزاوية من كراء الأملاك التابعة لها كان في سنة 1818م لما بلغ 609 ريالا و في فيمـــا يلي جدول يوضح عدد أملاك الزاوية و مداخيل زاوية الشرفة.

جدول رقم: (2) أملاك و مداخيل زاوية الشرفة[24]

السنة	عدد الأملاك	المداخيل السنوية بالريال	السنة	عدد الأملاك	المداخيل السنوية بالريال
1177هـــ/ 1763م	5	-------	1221هـــ/1806م	14	446.74
1178هـــ/ 1764م	10	212.25	1222هـــ/1807م	14	472.11
1179هـــ/ 1765م	11	230.37	1223هـــ/1808م	15	512.47
1180هـــ/ 1766م	13	276.12	1224هـــ/1809م	15	537.74
1181هـــ/ 1767م	13	273.49	1225هـــ/1810م	15	537.24
1182هـــ/ 1768م	14	302	1226هـــ/1811م	15	539.12
1183هـــ/ 1769م	14	127.25	1227هـــ/1812م	15	516.24
1184هـــ/ 1770م	14	468.72	1228هـــ/1813م	15	572.5

540.5	15	1229هـ/1814م	363.59	14	1185هـ/ 1771م
495.12	16	1230هـ/1815م	340	14	1186هـ/ 1772م
542.5	17	1231هـ/1816م	344	14	1187هـ/ 1773م
551.74	17	1232هـ/1817م	244.74	14	1188هـ/ 1774م
609	16	1233هـ/1818م	423.22	14	1189هـ/ 1775م
506.37	16	1234هـ/1819م	394.48	14	1190هـ/ 1776م
547.5	17	1235هـ/1820م	291	14	1195هـ/ 1780م
522.87	17	1236هـ/1821م	294	14	1196هـ/ 1781م
531.12	17	1237هـ/1822م	352.5	14	1997هـ/ 1782م
532.61	16	1238هـ/1823م	385.75	14	1198هـ/ 1783م
497.11	16	1239هـ/1824م	336.75	14	1199هـ/ 1784م
534.74	16	1240هـ/1825م	372	14	1200هـ/ 1785م

3.مصاريف زاوية الشرفة

لقد حددت وقفية التأسيس طريقة صرف أموال الزاوية حيث حددها في الصيانة والترميمات الأساسية، وفي شراء حصير للمسجد والزيت الذي يستعمل في الإضاءة، ودفع أجور المستخدمين، وهم: الإمام، والمعلم والمؤذن، وقارئ الحزب، والشاوش، ويعطى ما يتبقى من المداخيل لفقراء الأشراف المولودين بالجزائر، ونلاحظ أنّ الوكلاء على الزاوية قد التزموا إلى حد بعيد بهذه البنود إلا أنه توجد مصاريف أخرجتها الزاوية لم تتحدد في وقفية التأسيس يرجع هذا بالأساس إلى تأثر الزاوية بطبيعة المجتمع الذي تعيش فيه منها المصاريف التي كانت تخصصها للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والصدقات التي قدمتها للأسرى من الأشراف الذين عادوا إلى الجزائر.

أ. أجور خدام الزاوية

لقد وردت المعطيات الخاصة بمصاريف زاوية الشرفة على خدامها في نفس السجل السابق ذكره، يتناول الفترة الممتدة من سنة 1177هـ/1763م إلى غاية 1190هـ/1776م ثم من سنة 1195هـ/1780م إلى غاية 1199هـ/1784م، واستنادا إلى هذا السجل عرفنا المستخدمين الذين كانوا يخدمون الزاوية وأجرهم الشهرية، والغريب أنّه ورد من بين الذين يأخذون أجرة شهرية ابن بكتاش والمقصود ابن الداي محمد بكطاش رغم أنه لم يرد هل كان يأخذ الأجرة بصفته عاملا، ورغم حصوله على أجر ثابت كل شهر إلا أننا نعتبرها صدقة تقدم له بما أنه ابن مؤسس الزاوية و الدليل على ذلك كلمة "إرفاق" التي تذكر عند الصدقة على الفقراء في السجل، وقد جاء عنوان إحدى أوراق السجل على هذا النحو: "الحمد لله بيان مصروف الزاوية المبروكة من حين أنعم الله علينا بخدمة سادتنا الأشراف سنة 1177 وجعلنا إماما وحزابين ووكيلة وشاوش ومدرس وإرفاق إلى ابن بكتاش"[25]، وقد ابتدأ ذكر هذه المصاريف ابتداء من سنة 1178هـ/1764م، وفي هذه السنة صرفت الزاوية حوالي 130.44 ريالا على خدامها.

جدول رقم: (18) أجور خدام زاوية الشرفة سنة 1178هـ/1764م[26]

الخدام	الأجر الشهري بالريال دراهم
الإمام	3.37
الحزابون	نصف ريال لكل واحد
الشاوش	2.5
الوكيلة	نصف ريال
ابن الداي محمد بكتاش	1
المدرس	3
المجموع	10.87

وبالطريقة نفسها كانت توزع الأجور الشهرية على هؤلاء المستخدمين، والملاحظ أنّ الأجر الشهري لبعض المستخدمين لم يكن ثابتا حيث في كل مرة يتعرض لتغييرات طفيفة مما يؤثر في مجموع ما تصرفه الزاوية على المستخدمين في كل شهر، وكمثال على ذلك ومن خلال السجل نلاحظ أنه في سنة 1180هـ/1766م أصبح أجر الإمام 4 ريالات ابتداء من جمادى الثانية بدلا من 3.37 ريالا، وبالتالي أصبح مصروف الزاوية الشهري على خدامها هو 11.62 ريالا بدلا من 10.87ريالا[27].

ب. مصاريف الصيانة

لقد تنوعت مصاريف الصيانة بين صيانة الزاوية وصيانة أملاكها بهدف استدامة منافعها، حيث كانت بالإضافة إلى التبييض، هناك الإصلاح و الترميم، كما شملت هذه المصاريف صيانة العقارات التابعة للزاوية وهذا حتى تستديم منفعة الأوقاف التابعة لها، ويبدو أنّ المصاريف لم تكن ثابتة بل ترجع حسب حاجة الزاوية من صيانة، و الشيء الثابت في عملية الصيانة هو التبييض أو طلاء الجدران بالجير الذي تقوم به الزاوية وجل المؤسسات الدينية و الاجتماعية بمجتمع مدينة الجزائر احتفاء بالمولد النبوي الشريف.

ب. 1. مصاريف صيانة أملاك الزاوية

إنّ الهدف من صيانة الأملاك التابعة للزاوية كما قلنا سابقا هو استدامة منفعتها، ومن المهم أن نعرف أنّ صيانة الأملاك كانت تقع على عاتق الزاوية ويبدو أنّ تلك المصاريف تقتطع من أموال الكراء مباشرة فعندما يقوم الكاري بإصلاح أي شيء داخل الملكية يقوم بإخبار وكيل الزاوية الذي يراعي قيمة ذلك الإصلاح عند قبض ثمن الكراء، ونلاحظ أن السجل الذي تناول مصاريف الزاوية قد سجل بدقة متناهية قيمة كل صيانة أو ترميم بذكر اسم الملكية وطبيعة الصيانة والمبلغ الذي تطلبته تلك العملية ومما جاء بالسجل حول تلك المصاريف سنة 1195هـ/1781م:

" الحمد لله بيان ما صرفنا على الزاوية سنة 1195

85.25 ثم ما صرفنا على دار الفنارج

12.37 ثم باب غرفة دار الفنارج

1.87 ثم لحداد الباب المذكور خمسة أثمان بوجة

2.25 ثم بنيان الباب المذكور جير و تراب" [28].

ب.2. مصاريف صيانة الزاوية

وفيما يخص المصاريف التي كانت تخص الزاوية نفسها فاستنادا إلى السجل دائما نجد معطيات هامة عن طبيعة تلك المصاريف وقيمتها مثل "بناء قواديس في الزاوية" بمبلغ ريال وثمن ريال، وترقيع بلاين للبغل بثلاثة أثمان بوجة وهذا سنة 1195هـ/1781م، بالإضافة ما تتطلبه الزاوية من إعادة الطلاء والتي كانت تتم بالجير، وكذا مصاريف شراء الحصير و غيرها من متطلبات الزاوية وفيما يلي أمثلة عن مصاريف صيانة الزاوية استنادا إلى السجل دائما:

" 86.12 ثم بنيان في الزاوية و دار العزر و دار (كذا).

1.12 ثم ترقيع باب علو فوق الزاوية.

60.62 ثم تبيان عرصات الزاوية و غيرهم فيها.

6 ثم حصور للزاوية بريالين بوجة.

ثم جير للغلالة خمسة أثمان بوجة" [29]

ج–مصاريف الأعمال الخيرية

المقصود هنا الصدقات التي كانت تقوم بها الزاوية حيث كانت تقدم لفقراء الأشراف كما هو منصوص عليه في وقفية التأسيس، وقد وردت في السجل الذي بين أيدينا معطيات هامة حول مصاريف الصدقات وذلك بذكر اسم المستفيد وفئته الاجتماعية أي الانتماء إلى فئة الأشراف وقيمة المبلغ الذي استفاد منه فنجد مثلا الصدقة التي قامت بها الزاوية للحاج قاسم الشريف الذي كان في الأسر وقد جاءت على هذا النحو:" 6 **ثم إرفاق بالحاج قاسم الشريف الأسير يوم قد**" والمقصود حصوله على مبلغ ستة ريالات وهذا سنة 1781م.

كما نجد المبلغ الذي تخصصه الزاوية كصدقة في شهر رمضان، وكذا للاحتفال بالمولد النبوي الشريف كل سنة وهو مبلغ هام حيث تخصص مبلغ مالي وقيمة ثلاث أفراد[30] حيث كانت من عادة أهل مدينة الجزائر طهي الكسكس[31] وتقديمه للفقراء مع اللحم ليلة المولد النبوي وبطبيعة الحال فالفقراء المقصودين بالنسبة لزاوية الشرفة هم فقراء الأشراف ففي مولد سنة 1184هـ/1770م صرفت الزاوية ما قيمته 50 ريالا على ثلاث أفراد وحوالي 35 ريال خصصتها للصدقة. وقد وردت في السجل على هذا النحو: "35.12 ثم صدقة في مولد 1184 وثلاث أفراد ب خمسون ريال"[32]

– مصير زاوية الشرفة

إنّ زاوية الأشراف التي كانت تضم مسجدا، ومقبرة، ومساكن، و مطاهر، بالإضافة إلى بعض الأملاك الموقوفة عليها، لم يكن مصيرها أحسن حالا من كثير من المؤسسات الموجودة بعد دخول الجيش الفرنسي مدينة الجزائر حيث وفي سنة 1832 أراد الفرنسيون أخذها فقاموا بتعطيلها وبيعها زاعمين أن وكيلها قام ببيعها رغم أن وقفية تأسيس الزاوية تنص على أنّ الزاوية هي ملك للأشراف جميعا وليس لوكيل زاوية الأشراف[33]، وأخيرا تمت مصادرتها سنة 1848م، وهدموها ووسعوا بها مكاتب إحدى الإدارات[34] .

– خاتمة:

لقد احتل الأشراف بمدينة الجزائر مكانة هامة حيث أصبحوا من الفئات الاجتماعية المتميزة وقد كان لهم دور كبير حتى في تعيين الحكام، فقد كان نقيب الأشراف ممن يحضرون مراسيم تعيين الحاكم الجديد لأيالة الجزائر، ونظرا لهذه المكانة تم تأسيس زاوية خاصة بهم من قبل

الداي محمد بكداش الذي وضع لها الخطوط العريضة في طريقة تسييرها منها تعيين الوكيل وطريقة صرف الأموال خدامها وما إلى ذلك مما سبق ذكره، لقد كان الهدف من هذه الدراسة هو توفير معطيات حول هذه الزاوية حيث أنّنا خرجنا من هذه الدراسة بمعطيات هامة وعرفنا أنّ الزاوية كانت زاوية دينية بما أنها تضم مسجدا، وقراء للحزب، وزاوية تعليمة كان بها مدرس يأخذ أجرة شهرية، وزاوية خيرية كانت تصرف جزءًا كبيرًا من عائداتها المالية على الفقراء.

ملحق

عقد تحبيس خاص بزاوية الشرفة

المصدر: سجلات المحاكم الشرعية/ العلبة 132-133

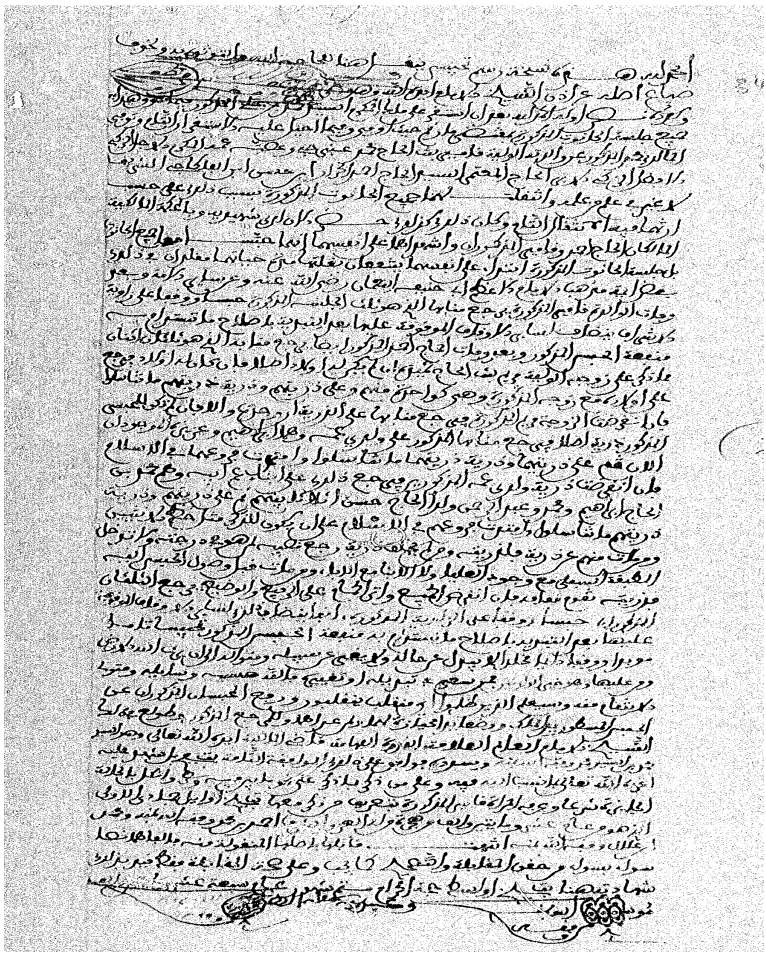

- الهوامش:

1. غطاس عائشة،"سجلات المحاكم الشرعية و أهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر-العهد العثماني-، إنسانيات عدد3، 1997، ص ص 69-85

2- ابن منظور، لسان العرب، تعليق علي المشيري، الجزء 7، دار إحياء التراث العربي مرجع سبق ذكره، المجلد 7، ص 90.

3 -الآية 33 من سورة الأحزاب.

4 -دائرة المعارف الإسلامية، مج 13، مركز الشارقة للإبداع الفكري، دبي 1998، ص 267.

5- LAUGIER DE TASSY., Histoire de royaume d'Alger, avec l'état présent et son gouvernement, de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce, Amsterdam,1725, p 99.

6-DEVOULX, A.,(Les édifice religieux de l'ancienne Alger,in revue africaine, année1868,p105.

7-لقد اشتهرت بعض المدن الإسلامية بكونها ملجأ آمن للشيعة الفارين من اضطهاد الخلفاء سواء في العهد الأموي أو العهد العباسي، ويرجع هذا بالأساس لكونها بعيدة عن مركز الخلافة و لا تصلها جنود الخلافة و عادة ما تكون هذه المدن هي مدن أطراف الخلافة الإسلامية مثل مدن اليمن ومدن المغرب و منها مكناس، و فاس. و منه هنا نلاحظ أن الكثير من الجزائريين يدّعون النسب الشريف وهذا بإرجاع أصولهم لهاته المدن ومازلت هذه الظاهرة سائدة إلى اليوم.

8les chérifs tirent leur origine de Mahomet ils portent un turban vert cette distinction n'appartient qu'a eux seuls, voir :

-MORGAN, J., Histoire des états barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine des révolution et l'état présent des royaumes d'Alger, de Tunis, de Tripoli et de Maroc, traduit de l'anglais, tome2 paris, MDCCVII, P150.

9-حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص 132.

10-م.ش.ع132-133

11-م.ش.ع 109-110.

12-للمزيد حول موضوع الزوايا أنظر:

-بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال و البايلك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2007

13-الداي بكطاش محمد هو أحد دايات الجزائر، حكم بين سنتي 1706-1710م كان من أهل العلم و الأدب، أنظر:

-نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية 1965،ص 110

14- الآية 33 من سورة الأحزاب.

15- غطاس عائشة، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700م-1830م) مقاربة اجتماعية- اقتصادية، ج1 أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2002.، ص 138.

16-DEVOULX, A.,(Les édifices…)Op.cit,in revue africaine, année1868, p105.

17- Ibid, p 106.

18-DEVOULX, A.,(Les édifices…)Op.cit,in revue africaine,année1868,p104.

19-لقد قمنا بذكر فقط الزوايا التي لم تكن تابعة لأضرحة الأولياء.

20- الوقف الخيري هو ما أخذ فيه برأي المذهب المالكي بحيث تعود الفائدة منه إلى مرجعه أو الجهة التي يعود ليها، أما الوقف الذري أو الأهلي فهو ما اعتمد فيه على المذهب الحنفي الذي يسمح أن ينتفع الواقف بمردود وقفه و عقبه من بعده حسب ما هو مسجل و منصوص عليه في وثيقة تأسيس الوقف. للمزيد أنظر :

-ناصر الدين سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر دلالات اجتماعية ومؤشرات اقتصادية ، مجلة دراسات إنسانية، عدد خاص بأعمال ندوة الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص ص33-67

21-لقد تم إعداد هذا الجدول استنادا إلى سجلات المحاكم الشرعية و بيت المال و البايلك.

22- البايلك، سجل 335.

23-البايلك، سجل 335، ورقة 26.

24- تم إعداد هذا الجدول استنادا إلى سجل البياليك، رقم 335.

25- البايلك، سجل 335.

26-تم اعداد هذا الجدول استنادا إلى سجل البايلك رقم 335

27 -للمزيد حول مصاريف الزاوية على خدامها أنظر:

-بودريعة ياسين، مرجع سبق ذكره، ص 176.

28- البايلك، سجل 335، ورقة 1

29- البايلك، سجل 335 ، ورقة 1. أنظر كذلك:

-بوديعة ياسين، سبق ذكره،ص 179

30 -ثلاث ثيران

31 بوديعة ياسين، سبق ذكره،ص 186

32 البايلك، نفس السجل.

33-يقول أوميرا أن الوكيل باع الزاوية لأحد الأوروبيين و هذا يؤكد أنّ مسلمو مدينة الجزائر غير متعصبين أنظر:

-AUMERAT., (La propriété urbaine a alge, in revue africaine,année ,1898, p189.

34-سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي ، ج5 الطبعة الأولى 1998، ص115، أنظر أيضا:

-سعيدوني ناصر الدين، دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 99.

الفلاحة في بلاد المغرب خلال القرنين 18 و 19م

أ/ محفوظ سعيداني
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

لقد ركّزت الكتابات التاريخية الخاصة بالفترة العثمانية ببلاد المغرب على الجانب السياسي والعسكري البحري، مع تقصير واضح في الجوانب المتعلقة بالنشاط الاجتماعي والثقافي. وفي هذه المقالة سوف نحاول استدراك جزء من هذا النقص بالتطرق إلى موضوع اقتصادي يخص الولايات المغربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني. ولكي نتمكن من تحديد الإطار الجغرافي للمنطقة الخاضعة لموضوع الدراسة فقد أطلقنا عليها اسم: بلاد المغرب العثماني.

أولا: طبيعة ملكية الأراضي في المغرب العثماني: لقد كانت الأراضي الفلاحية في البلدان المغاربية خلال الفترة العثمانية تنقسم إلى:

أ. **الأراضي الموات:** هي الأراضي غير المستغلة لا ينتفع بها أحد، لكونها عادة بعيدة عن السكان لذا. فهي في حيازة أو ملك البايلك أو الدولة، ومن أحياها فهي له[1] وساد هذا النوع في نهاية القرن 18م في المنطقة الشبه الجافة بالخصوص فأصبحت مناطق رعوية بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات التي حولت مساحات من الملكية الخاصة والمشاعة إلى أراض موات[2].

ب. الملكيات الخاصة: انتشر بضواحي أو فحوص الحواضر كالجزائر وقسنطينة وتونس وطرابلس الغرب، والمناطق الجبلية ذات المبدأ القبلي كطرارة شمال تلمسان، والونشريس، والظهرة، والتيطري، والأوراس، والواحات الصحراوية وسهول معسكر[3] والنواحي الشمالية والشرقية لساحل التونسي وبعض السهول الداخلية وبالواحات وبجوار الحواضر والقرى في تونس[4].

وقد استغلها أصحابها مباشرة أو عن طريق نظام الخماسة[5] كبساتين للخضر والفواكه والحبوب ومن ملاكها موظفي الدولة وبعض الميسورين واعيان المدن وهي أراضي يخرج عنها

العشر من المحاصيل، باعتبارها أراض أسلم عليها أصاحبها[6]، ولهم حرية التصرف فيها بالبيع والشراء[7].

ج. الملكيات المشاعة: انتشر هذا النوع من الأراضي منذ القرن 11م بسبب استقرار القبائل البدوية وتوطن العشائر الجبلية بالمناطق التي استحوذت عليها أو أعطيت لها من طرف الحكام، وتعرف بغرب الجزائر بأراضي السبيقة وأراضي العرش بالوسط وأرض عربي أو أرض قبائل العرب بتونس[8] وأراضي اللهدة بطرابلس الغرب[9].

ويوجد هذا النوع في الجنوب الوهراني وجهات التيطري الجنوبية وأطراف بايلك قسنطينة مثل قبائل النمامشة والحنانشة والحراكتة وأولاد عاشور وأولاد مقران[10] وبالسهول الواسعة بالوسط الغربي والجنوبي التونسي مثل أولاد سعيد[11] ودواخل إقليمي طرابلس وبنغازي (برقة) مثل قبائل الحرابي وأولاد سليمان[12].

وأراضي العرش هي ملك لقبيلة أو عرش معين، يسمح لكل أسرة تابعة لـه، أن تحرث وتزرع قطعة منه سنة أو سنوات ولا تصير ملكا خاصا لها بأي طريقة كانت، وهي مشاعة غير مقسمة تتوارثها القبيلة جيلا عن جيل أي لهم حق الاستغلال مدى الدهر، ويقوم بمهمة توزيع أراضيها شيخ الدوار أو الدشرة أو العشيرة، وإذا كانت القبيلة خاضعة للدولة أو مراقبة من طرفها يتولى القائد أو الشيخ المعين من طرفها مهمة إقرار ما تعارف عليه أفرادها[13].

د. أراضي البايلك (الدولة): ويماثل وضعها القانوني نوعية الأراضي الخراجية التي فتحت عنوة وأصبحت تحت تصرف بيت المال، إلا أن الأحداث التي عرفتها المنطقة والظروف التي تميزت بها لم تساعد على تطبيق الأحكام الإسلامية المتعلقة بالأراضي الخراجية، فأصبحت هذه الأرض تابعة مباشرة إلى الدولة وتحت تصرف الحكام، وتوسعت أراضي الدولة ما بين القرنين 16م و19م إما عن طريق المصادرة أو الشراء أو نهاية عقب الشخص أو رحيل السكان عليها بسبب الامتناع عن دفع الضرائب أو عصيان الأوامر أو جدب المنطقة، مثلما وقع لقبيلتي بني عامر وفليتة بناحية وهران نتيجة محالفتهم للاسبان[14]، وقبيلة أولاد مساهل بماجر بتونس[15] وقبائل العبيدات بشرق طرابلس الغرب[16].

كما خول للحكام العثمانيين في الولايات المغاربية حق ملكية ما في حوزة الرعية الخاضعة لهم من أرض ومتاع حسبما تقتضيه التقاليد العثمانية. فتحولت أراضي اغلبها سهلية وخصبة منتجة للحبوب إلى يد الدولة، وسهل ذلك وقوعها في الجهات المسيطرة عليها عن طريق

المواصلات الرئيسية المدعمة بالمراكز والقلاع والحصون، مثل نواحي طرابلس الغرب وجهات الشمال الشرقي التونسي وحوض مجردة وسهول عنابة وقسنطينة ومتيجة والشلف ووهـــران وغريس[17] وتقتطع الدولة بعضها إلى القبائل المتعاملة معها لتستفيد من العشر والزكاة وسميت بأراضي المخزن بالجزائر أو ملكية الرقبة بتونس[18].

هـــ. أراضي الوقف أو الحبس: وهي الأراضي الموقوفة على المشاريع الخيرية أو التابعة للحرمين الشريفين أو المرابطين أو الأشراف أو خاصة بالمساجد والزوايا والأضرحة أو إصلاح المرافق العامة من عيون وسواق، حسب الأحكام الشرعية الخاصة بالوقف[19].

وهي على نوعين: وقف خيري ويعود مردوده إلى المصلحة العامة التي حبست من اجلها، ووقف أهلي أو عائلي ويحتفظ فيه المحبس بأرض لا تصرف على الغرض المحبس من أجلـــه إلا بعد انقراض عقبه أو انقطاع نسله، وذلك عملا بأحكام المذهب الحنفي، وهو ما شـــجع في انتشار هذا النوع من الوقف في المغرب العثماني كما أن الوقف لا يباع ولا يشترى ولا يمكن حيازته أو الاستحواذ عليه أو مصادرته وبالتالي فهو أفضل طريقة تمكن أصحاب الأرض مـــن الحفاظ على ممتلكاتهم ولخلفهم من غصب الحكام[20].

ثانيا: السنة الفلاحية ومميزاتها بالمغرب العثماني

قدر المجتمع المغاربي في العهد العثماني ما نسبته 95% ريفي، ولأجل ذلك ارتبط مصـــدر رزقه بالأرض وما توفره وتنتجه من المحاصيل[21]. وساهمت العوامل الطبيعية في إيجاد نوع من التماثل في الإنتاج، فطبيعة المنطقة تتنوع ما بين الشمال والجنوب من حيث التربة والمناخ[22]. فكلما توجهنا جنوبا قلت خصوبة التربة وكميات التساقط، فكان هناك تنـــوع في النشـــاط الفلاحي، الذي يتم خلال السنة الفلاحية الممتد من أكتوبر إلى جويلية[23].

وقد كان استغلال الأرض يتم عبر عدة طرق يراعى فيها خصوصيات المناطق من خـــلال عقود واغلبها شفوية بين ملاك الأرضي أو أصحاب المواشي والأجراء أو العمال. كما كـــان هذا العقد يحترم إلى غاية نهايته، وفيه يحدد الطرفان طريقة العمل إما بالمغارســـة، المســـقاة أو الخماسة والسداد إما باليوم أو الشهر أو العام، وفي بعض المرات يترتب على المـــلاك تقـــديم تسبيقات لهؤلاء العمال وحتى في عقود الرعي بين المالك والراعي[24].

I. المحاصيل الكبرى

إن المنطقة الشمالية لكل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب الواقعة شمال خط المطر السنوي 400مم الممتدة من السهول الغربية للجزائر نحو المنطقة الشمالية والشرقية لتونس إلى سهل جفارة وساحل بنغازي، التي ساد فيها نوع من حياة الاستقرار وملكية الدولة والخواص، قد طغت فيها فلاحة المزروعات الكبرى من حبوب قمح وشعير وبقول[25]وإنتاج الزيتون والشمع[26]، عن طريق العمليات التالية:

الحرث: اتبع الفلاح في دورته الفلاحية ما يمليه عليه المناخ، فالعام الفلاحي ينطلق مع فصل الخريف في سبتمبر وأكتوبر، فيحدد الأرض المحروثة بحرقها وبتساقط الأمطار الأولى يشرع في حرثها وتحضيرها لعملية البذر[27]، مستعملا ما يسمى بالزويجة (استخدام ثورين مخصصين للحرث) في الجزائر وحرث الماشية بتونس، وتقدر بـ 10 هكتارات، وتستعمل الجمال والبغال أو الحمير مع محراث خشبي الذي ينتهي بقضيب حديدي، وكانت مناطق أخرى تعتمد على مبدأ التويزة أو المعونة (العمل الجماعي) أثناء الحرث والبذر والحصاد[28].

البذر: بعد تهيئة الأرض تأتي عملية البذر، وأولى المزروعات التي تبذر مع النصف الأول من شهر أكتوبر القمح والبقول (الفول وغيره) وبعد أسبوعين أو أكثر يزرع الشعير وأنواع من البقول مثل العدس إلى غاية أواسط الشتاء في حدود جانفي، وتتم عملية البذر برمي البذور على سطح الأرض المحروثة لتتكفل فيما بعد الأمطار بتغطيتها فتكون عرضة للطيور، وعملية البذر تتطلب مهارة وخبرة إذ يجب معرفة أين تكثف البذور التي تتوقف على حساب طبيعة الأرض أو نوعية المحصول أو وقت الزرع، ويصاحب ذلك مدائح دينية وقصائد حتى ينسى الفلاح العناء أو التعب أو المشقة في البذر وكذلك حتى عند الحصاد[29].

وبنهاية فصل الشتاء تنطلق عمليات التطعيم والتلقيم بالنسبة للأشجار المثمرة المنتشرة بالمناطق الجبلية والسهلية كغابات الزيتون وغيرها، وتعتبر الأمطار المتساقطة في فصل الربيع المحددة لمدى وفرة المحصول من قلته خاصة في شهر افريل، فبها يستبشر الفلاح بموسم فلاحي وفير أو قليل[30].

الحصاد: وفي أواسط شهر جوان تكون غلال الحبوب قد وصلت إلى مرحلة النضج فتبدأ معها عملية الحصاد، ويتم حصاد الشعير أولا ثم القمح باستعمال المناجل، وما كان يبقي بعد

الحصاد من سنابل متناثرة في الحقول تترك لرعي الحيوانات[31]. وكان هذا العمل الموسمي تقوم به أفواج متنقلة من الحصادين الذين قدموا من مختلف المناطق الجبلية والصحراوية ففي الجزائر كانوا يدعون بـــ "اليجّارة" أي الأجراء[32] وبتونس بـــ "الهطاية"[33] وكـــانوا يفاوضـــون أصحاب الأراضي الفلاحية على أجورهم (نقدا وعينا) ففي سنة 1767/1766م وصـــلت أجرة الحصاد إلى 52.50 ريال دراهم صغار بالجزائر[34].

الدرس والتذرية: وبعد عملية الحصاد يتم جمع المحصول بواسطة شباك تحمل على ظهر الحيوانات إلى المكان المخصص للعملية التالية وهي الدرس بضرب عمـــود في الأرض يوضـــع حوله سنابل القمح والشعير لتدوسها الحيوانات بأقدامها كالبغال والخيول أو الحمـــير...[35] وكانت هذه العملية تمزج بأغاني وقصائد، مثلا من أغاني الدرس في الجنوب التونسي:

إذَا دَرستْ ادْرسْ عَلى البَقَاري رجْليه في الطَرحَة فَرْك وامْذَاري[36]

وتتم عملية الدرس ساعة اشتداد الحر لفصل الحبوب من سيقانها ووصلت أجرة الدراس إلى 27 ريال دراهم صغار بالجزائر[37] وبتونس إلى 28 ريال[38].

وتأتي بعدها عملية التذرية المستغلة لقوة الرياح وهي الأخرى أيضا تمزج ببعض الأشـــعار والقصائد الشعبية المتواترة لتصفية المنتوج من العوالق، مثلما هو الحال في طرابلس الغرب حيث يقولون:

كَان هَبتْ الريَاحْ ذَرى مَا في لّمانهَا خبرْ

كان سكنتْ الرياح غَطى ما في تبربيشْ خيرْ

ارفْعي التبنَ وخلى الحبْ هَيَا يا ريحْ هَيَا يا ريحْ[39]

التخزين: وبعدها يتوجه الفلاح إلى تحضير ما يسمى بالمطامير لتخـــزين المنتـــوج إمـــا للاستهلاك أو تخصيصه للبذر في الموسم القادم، وتحفظ عادة خارج الدوار، في أماكن تختـــار بعناية بعد أن يتم تسديد الديون العالقة ببيع جزء من المحصول ودفع الضرائب المفروضة علـــى الفلاح[40].

غير أن طريقة استغلال الأرض، المبنية على نظام الخماسة[41] في المزروعات فمالك الأرض يأخذ 5/4 والعامل يأخذ 5/1 من المحصول بعد الحصاد واستفاء كل التسبيقات أو المخلفات من ديون العامل، وكذا نظام المغارسة والمسقاة في الأشجار، فهذه العمليات ساهمت في إعطاء

ملاك الأراضي وضعا اجتماعيا واقتصاديا أكثر حظا من هؤلاء العمال، الذين غرقوا تحت طائلة الديون التي تتحمل أعباءها حتى أسرته[42]، وهو ما يجعله خاضعا للمالك، ففي تونس عقد المغارسة يبقي رقبة العامل تحت رحمة المالك، فإذا أخل بأحد شروط الاتفاق يمكن لأمين الفلاحة أن يزج به في السجن، وحتى عقد الرعي الذي يمنع على الراعي فسخه عكس مالك القطيع، وهو ما أوقع هؤلاء الأصناف من العمال تحت رحمة الملاك وأصحاب النفوذ، أي في صورة الإقطاع المغاربي[43].

2. النشاط الرعوي

يمثل أهم نشاط بالنسبة إلى أكثر من نصف سكان المنطقة في الأرياف والبوادي وبالخصوص في المناطق الداخلية حيث يسود المناخ شبه الجاف الموازي لخط المطر السنوي الواقع بين 200-400مم المحصور بين جهات بنغازي (برقة) وطرابلس الداخلية إلى خليجي الحمامات وقابس ومنها نحو مناطق الجنوب الظهرة التونسي فالهضاب العليا الجزائرية ونواحي الأطلس الصحراوي، وصاحب هذا النشاط تفشي حياة الترحال مع المواشي بحثا عن مصادر الكلأ، وغلب على هذه المنطقة الملكيات المشاعة التي تحول بعضها إلى أرض موات أو متروكة تستخدم كمراعي موسمية[44].

الرحلة السنوية: لقد تعارفت القبائل فيما بينها على مناطق نفوذها،مثل سكان منطقة وادي سوف الذين كانوا ينتقلون في مجال جغرافي سنوي محدد مع القبائل المجاورة لهم فقد كانت هذه القبائل تنتقل في فصل الشتاء جهة تبسة وفي الربيع بوادي ريغ والصيف بالزاب والخريف بأرض الجريد[45]، وقبائل الشريعة في شمال قفصة ودريد بين الجنوب الغربي والغرب الشمالي لتونس وغيرهم[46]، ومراعي سكان طرابلس في منطقة السرت المساة بوادي الرمل[47].

وهذه الحدود الطبيعية موروثة منذ القدم وتنتقل القبائل داخلها خلال السنة وتدافع عليها بشراسة وعادة ما تكون هذه النقطة محور حروب بينها مثل الصراع بين قبائل النوائل المستوطنة بأقصى الجهة الغربية لطرابلس الغرب ضد قبائل ورغمة المستوطنة في منتهى عمالة تونس بالجهة الشرقية[48]، وقبائل ريغ في الجنوب الشرقي للجزائر مع القبائل التونسية وقبائل أولاد نايل فيما بينها بالجزائر[49].

وفي شهر أفريل يكون موسم جزّ الصوف، المصاحب لعملية تجديد العقود الرعوية بين الملاك والرعاة[50]. كما تشهد المنطقة عملية انتقال قطعان الماشية نحو المناطق الشمالية وبجوار الحواضر، للقيام بعملية بيع الصوف والبحث عن مصادر أوفر للمواشي، مثلما يحدث في الجزائر حيث فرضت على هؤلاء البدو الرحل ضريبة تسمى بالحصة وهي تسليم مبلغ مالي يقدمونه مقابل تنقلهم إلى التل، كما يدفعون على كل قطيع من الغنم خروفا كمبلغ كراء للأرض التي يرعون فيها، فوفرت هذه الأخيرة ثروة كبيرة للمنطقة[51].

3. الفلاحة الصحراوية

أما المناطق الجنوبية الواقعة على خط توزيع المطر السنوي الذي يقل عن 200مم فبحكم طبيعة مناخها الجاف الذي ساعد على انتشار أراضي الموات التي لا تتلاءم والفلاحة ولا تساعد على الاستقرار، فقد كانت تستقطب القبائل البدوية في الشتاء للبحث عن المراعي والمياه كجنوب برقة وطرابلس الغرب إلى مناطق الجريد التونسي فالزيبان وجنوب الأطلس الصحراوي بالجزائر[52].

وهي أيضا المنطقة التي سكنها الإنسان في الواحات التي ظهرت فيها حياة الاستقرار مع غابات النخيل وأقيمت تحت ظلالها فلاحة القمح والشعير مع أنواع من الخضروات والثمار التي تلبي الحاجيات الضرورية لحواضر تلك المنطقة وكانت تتم عملية سقاية تلك الواحات باستعمال نظام الفقارة، وهو نظام إسلامي عرف منذ القدم ولازال يستعمل لحد اليوم في واحات الجزائر وطرابلس وتونس، فكان الفلاح عندما يغرس شتلة النخيل يضيف معها سبخ الإبل ونفس الشيء يقوم به مع بقية أنواع الخضر والبقول التي يغرسها[53].

والموسم الفلاحي في الواحات ينطلق في فصل الخريف من أكتوبر إلى غاية شهر ماي، ومعه يكون جني التمور[54] وكان الفلاح يعتمد في حرث أرضه على قوة الحيوان من بعير أو أبقار، وتميزت الأرض بهشاشة تربتها وسهولة استغلالها مثل واحات بسكرة، ورقلة وغرداية بالجزائر، وواحات فزان والكفرة بطرابلس الغرب و منطقة الجريد وبجوار جبال مطماطة بتونس[55].

فقد وفرت كميات من التمور مونت الأسواق المحلية وحتى الخارجية وعلى رأسها ما يعرف باسم دقلة نور، كما كانت تعتبر هذه المناطق كمراكز للقوافل التجارية التي تزودها بما تحتاجه من مواد، كما عملت حكومات المنطقة من فرض سيطرتها على المنطقة من خلال الضرائب التي كانت تفرضها عليها[56].

4. سياسة الحكام الفلاحية

تركت الدولة السكان وشأنهم فيما يخص مصالحهم الفلاحية فكانوا يعتمدون على أنفسهم أو يتعاونون مع بعضهم[57]، أما أرضيها فقد استغلتها من خلال تفويض وكيل تركي يقوم بهذه العملية من حرث وبذر وحصاد عن طريق تسخير بعض القبائل لهذه المهمة[58] كما تسهر أخرى على رعاية حيوانات البايلك، مثل مزارع عين الدم بايلك التيطري التي سخرت لها قبائل من عمورة وغريب وغيرهما في عهد عبدي باشا (1724-1732)[59] وحسين بن علي(1705-1735) عندما استغل غابات الزيتون بالحاضرة تونس وتخصيص عدة أعوان للإشراف عليها من عمل وحراسة وبيع[60].

بذلك توافرت منتجات ومحاصيل متنوعة حسب اختلاف المناطق ما بين الشمال والجنوب فغذت الأسواق اليومية والأسبوعية بما تحتاجه والفائض يوجه إلى الخارج تحت نظر ومراقبة الدولة عن طريق سياسة الاحتكار، فكان الباشا بالجزائر أو بطرابلس الغرب أو الباي بتونس هو من يعطى الإذن بتصديره، وفي بعض المرات يكون هو المشترى والبائع الوحيد فيحدد سعر الشراء والبيع، على سبيل المثال لا الحصر الداي بابا حسان (1791-1798) والداي مصطفى باشا (1798-1805م)[61] وحمودة باشا(1782-1814) بتونس[62] ويوسف باشا (1795-1832م) بطرابلس الغرب، فاحتكرت تجارة الحبوب والصوف من طرف رجال الدولة العثمانية في المنطقة[63].

فكانت هذه السمة الغالبة والصورة العامة للحياة الفلاحية لسكان بلاد المغرب العثماني في دورها الفلاحية والتي تشابهت إلى حد كبير أفقيا حسب المناطق ما بين الشمال والجنوب وكانت مصدر لتموين السلطة المركزية بما تحتاجه من مواد فلاحية.

رابعا: مشاكل الفلاحة بالمغرب العثماني لقد عرف هذا الميدان جملة من المشاكل نوجزها فيما يلي:

- **أساليب الفلاحة وأدواتها العتيقة** والمتمثلة في محراث خشبي ومنجل وفرشاة التي ساهمت في عرقلة عملية تطوير الإنتاج من حيث الكمية[64]، كما لم يدخل عليها أي تحسين، أما وسائل الري واستصلاح مستنقعات في السهول فقد ظلت غريبة عن سكان الريف، فسهل

متيجة الخصيب كان يعتبر منطقة غير صحية لانتشار حمى المستنقعات به[65]، وبذلك لم يتوجه الفلاح نحو الفلاحة التجارية وإنما نحو الاستهلاكية بالخصوص.

- **سياسة الحكام الفلاحية** التي لم تهتم بتدعيم الإنتاج بقدر اهتمامها بما يوفره من مداخيل. فلم تنشأ السدود أو الحواجز المائية، فالأمطار تشق طريقها نحو البحر أو الشطوط[66]كما أن هؤلاء الحكام لم يعينوا الفلاح بل زاحموه في عمل الفلاحة لغرض المتاجرة[67]، رغم محاولة حمودة باشا التونسي التحديثية[68].

- **الكوارث الطبيعية والأوبئة:** لقد عرفت الولايات المغاربية خلال الفترة العثمانية عدة كوارث طبيعية، ساهمت في الإخلال بالوضع الاقتصادي للمنطقة. ومن هذه الكوارث على سبيل المثال: وباء الكوليرا (1777-1778م) و (1784-1785م)[69]الذي ألحق أضرارا بالجهات الشمالية للجزائر وتونس وسواحل طرابلس الغرب. كما اكتسح الجراد الجزائر في 1778م[70] وفي 1813م وأتلف المحاصيل الفلاحية[71]. ووباء (1232هـ/1816م-1239هـ/1823م) بالجزائر[72] صاحبه قحط وجفاف مع غلاء في الأسعار سنة 1826م[73]. وفي تونس (1818-1820م) تراجع سكان إلى النصف[74]. ونفس الشيء في طرابلس الغرب سنة 1773م فأوصلت علي الباشا (1754-1793) إلى حد الإفلاس[75]، فتسببت تلك الكوارث الطبيعية في انقطاع ديمغرافي أثر على اقتصاديات المنطقة[76].

- **الصراعات القبلية**. لقد تأججت الصراعات القبلية بين مختلف القبائل المغاربية حول المجال الجغرافي الملائم للمراعي ومصادر المياه خلال الفترة التي نقوم بدراستها. الأمر الذي أدى بالقبائل المهزومة إلى الهجرة والتحول عن مناطقها[77]. ويضاف إليها سيطرة القبائل القوية والحليفة للدولة على الضعيفة كأعيان قبيلة دريد الذين كانوا يتحصلون على إتاوة من واحات الجريد لإعانتهم للدولة، وأيضا ظهور فكرة الصفوف التي أعطت أحلافا عشائرية مثل قبائل صف شداد حليف الباشي ضد صف يوسف حليف الحسيني بتونس[78]، و صف الغرابة في صراع ضد صف أولاد عبدي وصف أولاد سلطان ضد صف أولاد عيار بالجزائر[79] صراع بين أولاد علي والعبيدات بطرابلس الغرب[80]، وقد استغلت حكومات المنطقة تلك الصراعات لصالحها، فتراجعت الفلاحة ونشط الرعي المتنقل في المناطق التي عرفت بقبائل البارود أو أرض الخلاء[81].

- **حركات التمرد ضد الإدارة:** عبر سكان منطقة المغرب العثماني على رفضهم لسياسة الحكام بالثورات وحركات العصيان التي أدخلت المنطقة في عدة أزمات، وكانت سببا في تخريب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتقتيل مئات من العباد[82] كثورة شمال قسنطينة (1804) والغرب الجزائري (1803-1809) ووادي سوف (1818-1823) والتيجانية (1818م)[83].

وبتونس ثورة ماجر سنة 1795م وانتهت بنفي قبيلة أولاد مساهل إلى القيروان[84]، وثورة 1819م التي أخمدها الباي محمود باشا[85]، وطرابلس الغرب حالها لم يكن أفضل من جارتيها فعرفت عدة ثورات فيسنة 1783م[86] وفي 1789م[87] وفي عهد يوسف باشا بسبب التغيير في قيمة النقد[88] وثورة عبد الصمد بن سلطان في ترهونة سنة 1827م، وثورة الساحل والمنشية في سنة 1832م وأدت إلى خلع يوسف باشا من الحكم وكانت من بين إحدى الأسباب التي دعت الدولة العثمانية لتعيد قبضتها على المنطقة[89].

- **الحملات العسكرية:** اهتم حكام بلاد المغرب العثماني ببناء الحصون والقلاع والأبراج وإقامة العساكر والنوبات[90] وفرض ضرائب متنوعة واستعانوا في جبايتها على المحلات العسكرية المدعمة بقبائل المخزن، كحملة ابراهيم القسنطيني باي التيطري (1817-1819م) على أولاد نايل استولى فيها على 2000جمل و10 ألاف خروف، وحملة حسين ابن محمود باي على الجريد سنة 1816م، فهاجر بعض منهم نحو طرابلس والجزائر[91]، نفس الشيء عرفته بعض القبائل الطرابلسية سنة 1783م حيث قدر عددهم بـ 60 ألف بدوي نزحوا نحو تونس والقاهرة هروبا من ثقل الضرائب والاضطرابات[92].

- **الضرائب الفلاحية:** فرض على سكان المنطقة عدة ضرائب تنوعت وتعددت حسب اختلاف المواسم والفصول، فضمنت من خلالها الحكومة العثمانية استمرارية تدفق الأموال إلى خزينتها، أمام تراجع الجهاد البحري منذ القرن الثامن عشر واندثاره في القرن الموالي له، فبنت تلك الحكومات ميزانيتها عليها، وظهرت في شكل الضرائب التالية:

ففي الجزائر تخرج المحلات من مقر البايلك مدعمة بقوة عسكرية من دار السلطان ، وكانت تقدم في شكل ما عرف باسم الدنوش الذي يقدمه خليفة الباي كل ستة أشهر ويقوم الباي بتقديمه بنفسه كل ثلاث سنوات[93]، أما بتونس فكانت المحلات تخرج بقيادة الباي مرتين كل سنة فمحلة الصيف نحو المناطق الشمالية لجباية الحبوب، وفي الشتاء نحو الجنوب

لاستيفاء محاصيل التمر والزيتون، لتظهر تحت اسم الخلاص أو المشاطرة المعروفة بالاتفاق بالنسبة للقياد وطريق المشيخة بالنسبة إلى شيوخ القبائل[94].

ونفس الشيء بالنسبة لطرابلس الغرب من خلال خروج البايات نحو العمالات لاستيفاء الضرائب المفروضة عليها والتي يجمعها مشائخ القبائل[95]، لتتطور وتصبح مبالغ مالية مفروضة على عمال العمالات، وعلى شيوخ القبائل ما عرف بالتقدمة[96] لتدخل المنطقة في عهد يوسف باشا تحت نظام ضريبي جديد عرف بنظام التذاكر، بسبب الضائقة المالية[97] وهو الشيء نفسه عاشته تونس مع باياتها المتأخرين.

ويجب الإشارة إلى أن جزءا من تلك المبالغ المجباة تذهب إلى جيوب جامعيها، إلى جانب ضرائب أخرى أعطيت لها تسميات مختلفة مثل ضيفة الباي والوهبة بتونس[98]وحق الفارس الحصة والغرامة والعلفة وحق الجياد... الخ بالجزائر[99].

وفي الأخير فبهذه الوقائع المتتالية على الايالات المغاربية جعلت الفلاحة تشهد تراجعا وانكماشا مستمرا، ورغم ذلك ظلت مصدر رزق الفرد، ومن أهم الموارد الاقتصادية لما توفره من مداخيل لتلك الحكومات التي ظلت مواظبة على مراقبة الإنتاج الفلاحي وتسخيره لخدمتها، لضمان بقاء حكم تلك الأنظمة وبقاء حكامها في سدة الحكم، وتزويدهم بما يحتاجون إليه، مكتفيا الفرد البسيط بحياة الكفاف والعفاف.

– الهوامش:

(1) محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1975، ص 125.

(2). ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 40.

(3) . نفسه ، ص 41.

(4) . الهادي التجومي، تاريخ تونس الاجتماعي 1881-1956، ط2، النشر دار محمد على الحامي، تونس 2001، ص 23.

(5).حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة، الجزائر 2005، ص 33.

(6). سعيدوني، المرجع السابق ، ص 41.

(7) . M.H.Cherif, Pouvoir et société de la Tunisie de H'sayne ben Ali 1705-1740, T1, publication de l'université de Tunis, Tunis 1986,p 39.

(8) . سعيدوني، المرجع السابق ، ص 42.

(9) . عبد المولى صالح الحرير،" نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القرمانلي الاقتصادية على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19"، عن المجلة التاريخية المغربية، عدد6، جويلية 1976، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس 1976، ص 88

(10) . نور الدين عبد القادر، صفحات من مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص146.

(11) . التجومي، تاريخ تونس...، ص 23.

(12) . صالح الحرير،" نظرة تحليلية ... ص 90.

(13) . سعيدوني، المرجع السابق ، ص 42.

(14) . نفسه، ص 47.

(15) .أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار،ج3، النشرة الثانية، دار التونسية للنشر، تونس، ص 45.

(16) .صالح الحريري، مرجع سابق ص 93.

(17). سعيدوني، المرجع السابق ، ص 46-48.

(18) . إبراهيم بن جمعة بلقاسم، الاقتصاد والمجتمع في الايالة التونسية من 1861-1864، الشركة العامة للطباعة، تونس 2002، ص 66.

(19) . DevoulxA."Notice sur les corporations religieuses d'Alger", in revue africaine, année 1870, p189.

(20) . سعيدوني، المرجع السابق، ص 50.

(21) .G.Esquer, les commencement d'un empire d'Alger, Lib la rose, paris 1929,p 8.

(22) .وليام شالر ، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص 30.

(23) . محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام ادهم،محمدالأسطى، مطبعة الغريب، بيروت بدون سنة النشر، ص 42.

(24) . المختار عثمان محمد العفيف السوري، الأوضاع الاقتصادية لإقليم فزان خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (دراسة تاريخية)، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الدراسية 2007-2008، ص 158.

(25) . سعيدوني، المرجع السابق، ص 13.

(26) . لوسات فلتري، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، سراس للنشر، تونس 1994، ص100.

(27) . فندلينشلوصر، قسنطينة أيام احمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر 1977، ص 89-90.

(28) . بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 75.

(29) . العفيف السوري، الاوضاع ... ص 164.

(30) . شلوصر، قسنطينة...، ص89.

(31) . Daumas.M et Fabar. M , La Grande Kabylie études historiques, libraires de l'université royale de France, Paris 1847, p26.

(32) . المنور مروش، العملة، الأسعار والمداخيل، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر 2009، ص 368.

(33) . بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 54.

(34) . مروش، العملة...، مرجع سابق، ص 368.

(35) . شلوصر، مصدر سابق، ص 90.

(36) . العفيف السوري، الأوضاع الاقتصادية ...، مرجع سابق، ص 171.

(37) . مروش، مرجع سابق، ص 368.

(38) . بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 54.

(39) . العفيف السوري، مرجع سابق، ص 170.

(40) . شلوصر، قسنطينة ...، مصدر سابق، ص 90.

(41.Vayssettes. E,« Histoire des derniers beys de Constantine »,inR.A,V3, A1858, p116

(42) . حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 54.

(43) . بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 75.

(44) . سعيدوني، المرجع السابق، ص 13.

(45). محمد بن محمد بن عمر العدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق : أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2005، ص 108.

(46) . محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج1، ط1، المطبعة الإعلامية، مصر 1302هـ، ص 127.

(47) . العياشي أبو سالم عبد الله، رحلة العياشي المعروفة بماء الموائد، طبعة فاس الحجرية، 1316هـ/1898م، بمصلحة المخطوطات بالمكتبة الوطنية بالحامة، تحت رقم 1342، الجزائر، ص 90.

(48) . الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورثيلانية، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر 1908، ص 651.

(49) . Arnaud, «Notice sur les sahari, les ouled ben aliya, les ouledna il », inR.A, A10, N°55,Janvier 1866, P 113.

(50) . بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 60.

(51) . ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص95- 96.

(52) . سعيدوني، دراسات...، المرجع السابق، ص 14.

(53). العياشي، المصدر السابق، ص 22.

(54) . الحاج ابن الدين الاغواطي. "رحلة الاغواطي في شمال افريقية والسودان والدرعية".ترجمها عن العربية إلى الانكليزية ويليام ب. هودسن عن أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. ابوالقاسم سعد الله. ج2. ط2. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1990. ص251.

(55) . العياشي،المصدر السابق، ص 55.

(56) . Charles Féraud, « notes sur un voyage en tunisie et en tripolitaine », in R.A, A20, N° 119-120,septembre 1876, p510.

(57). د. صلاح الدين حسن السوري،" الضرائب العثمانية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، مشاكل الضغط والتوتر"، عن مجلة البحوث التاريخية ، السنة 6، العدد الثاني، يوليه 1984، منشورات جامعة الفاتح مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، طرابلس 1984، ص 380.

(58). احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 (سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص175.

(59) . Federmann, Henri, « Notices sur l'histoire et l'administration du belik de titri », in R.A, A12, N° 09, Juillet 1865, P 155.

(60) . محمد ابن خوجة، " مرور مائة عام من تأسيس حفلة مولودية رسمية بتونس."، عن المجلة الزيتونية، م1، ج3، المطبعة التونسية، تونس 1936، ص 61.

(61) . سعيدوني، دراسات ...، مرجع سابق، ص36.

(62) . رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1980، ص 263.

(63) . عمر علي بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835م، ط1، مكتبة الفرجاني، بيروت 1966 ، ص 180.

(64). ناجي، المصدر السابق ، ص70- 71.

(65) . حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 59.

(66) . عبد القادر حليمي ، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، بدون دار النشر، الجزائر 1972 ، ص 294.

(67) . علي بن إسماعيل، انهيار ...،مرجع سابق ، ص 180.

(68). الإمام، سياسة حمودة...، 256.

(69) . E. Pellisser, Description de la régence de Tunis, 2eme édition, Edition Bouslama, Tunis 1980, P328.

(70) . عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة محمود علي عمر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1989م، ص534.

(71). خوجة حسان، تاريخ بایاتوهران،مخطوط بالمكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، تحت رقم 1634، ص 21.

(72) . الحاج احمد الشريف الزهار، مذكرات احمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1168-1246هـ/ 1754-1830م)، تحقيق احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 184.

(73). مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 81.

(74) . أبي الضياف، المصدر السابق، ج3، ص 167.

(75) . جان كلود زليتنر، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا (1500-1750 إفرنجي)، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مسراتة 2001، ص 367.

(76) . الإمام، مرجع سابق، ص 256.

(77) . Arnaud, «Notice ..., P18.

(78) . التجومي، مرجع سابق، ص 21.

(79) . ناصر الدين سعيدوني، "الإنسان الاوراسي وبيئته الخاصة(دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة الاوراس قبل وأثناء العهد العثماني)"، عن مجلة الأصالة، العدد 60-61، سبتمبر 1978، مطبعة البعث، الجزائر 1978، ص 143.

(80) . صالح الحرير،" نظرة تحليلية ...، ص91.

(81) . سعيدوني، "الإنسان الاوراسي..."، مرجع سابق، ص 143.

(82) . بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 55.

(83) . سعيدوني، دراسات...، نفسه ص 36.

(84) . أبي الضياف، المصدر السابق، ج3، ص 45.

(85) . الفونصروسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، نقلها عن الفرنسية الد. محمد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قارنوس، بنغازي 1992، ص 333.

(86) ريتشارد، توللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ت. عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، ليبيا،ص 97

(87) . كلود زليتز ،المرجع السابق ، ص 399.

(88). اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، ط1، دار الثقافة، بيروت 1984، ص337.

(89).صالح الحرير، مرجع سابق، ص 95.

(90).الورثيلاني، مصدر سابق، ص 687.

(91) . روسو، الحوليات ...، مصدر سابق، ص 323.

(92).توللي، المصدر السابق، ص 97.

(93) . لمزيد من المعلومات حول الدنوش راجع: احمد الشريف الزهار، مذكرات ... مصدر سابق .

(94) . التجومي، مرجع سابق، ص 15.

(95) . صالح الحريري، مرجع سابق، ص 79.

(96) . حسن السوري، مرجع سابق، ص 368.

(97) . صالح الحريري، مرجع سابق، ص 86-87..

(98) . أبي الضياف، المصدر السابق، ج3، ص 22.

(99) . Federmann, op.cit., p 294.

ملابس المرأة وأزياؤها بمدينة الجزائر في العهد العثماني

د.ة/ شريفة طيان ساحد

معهد الآثار جامعة الجزائر 2

تميزت الملابس النسوية بمدينة الجزائر في العهد العثماني بالتنوع كما أخذت طابعا مميزا رغم اختلاف الطوائف والجماعات، و يمكن معالجة لباس المرأة من خلال التعرف على لباس المرأة الحضرية والتركية الكرغلية واليهودية والبدوية والزنجية حتى تكتمل الصورة ويتضح الطابع العام المميز للباس النسوي بمدينة الجزائر.

– **لباس المرأة الحضرية الأندلسية:** تفضّل المرأة الحضرية الأندلسية ملابس الترف لتظهر أمام النساء الأخريات أكثر أناقة وأحسن منظرا، فخصصت لكل فصل نوعا من القماش الملائم له، ففي فصل الشتاء تلبس الجوخ والقطيفة، وفي فصل الصيف تعوض الأقمشة الخشنة بأخرى خفيفة خاصة الحرير على مختلف أنواعه[1].

يمكن تقسيم ملابس المرأة الحضرية إلى قسمين: ملابس داخلية وملابس خارجية، كما تصنف الملابس الداخلية إلى قسمين:

ملابس عادية: تلبس عادة أثناء القيام بالأشغال المترلية اليومية، والتي تمضي في بعض الأحيان يومها كاملا بهذه الملابس[2].

تتمثل هذه الملابس في قميص قصير قماشه شفاف وخفيف ويصنع في معظم الأحيان من الكتان، أكمامه قصيرة بحيث يبقى ساعداها عاريان لتتمكن من القيام بعملها بكل سهولة[3]، كما تلبس سروالا قصيرا لا يغطي الساقين، مثبت في مستوى النطاق بحزام خاص يعرف باسم التكة[4]، تضع فوقه فوطة ملونة أو مخططة تربط في مستوى النطاق وتبقى مفتوحة من الأمام، وقد تستغني المرأة عن السروال وتكتفي بلبس الفوطة فقط تلف بها أسفل جسمها[5]. وتتزين بأقراط وقلائد وأساور ذهبية أو فضية حسب وضعية كل امرأة[6].

ملابس الزينة: تلبس عادة بعد الانتهاء من الأشغال المترلية وهي ملابس جميلة وثمينة وأنيقة مما يجعلها تتحفظ في الظهور بها عند خروجها من المترل أو عند وجودها في سطح البيت

عكس الملابس العادية التي تظهر بها في هذه الأماكن حتى لا تجلب الأنظار[7]. فيما يتعلق بملابس القدم فكانت تضع داخل البيت بابوشا بسيطا أو مطرزا بالذهب بالإضافة إلى خف بسيط.

تتمثل هذه الملابس في قميص ذي جودة عالية، عريض و طويل يصل إلى غاية القدمين[8]، يحتوي عل أكمام جد عريضة مقسمة بحاشيات من الحرير متعددة الألوان يتوسطها شريط من الديباج التي يمكن تعويضها بشريطات زخرفية، ويحيط بالأكمام دانتلا من الذهب أو الفضة على شكل حاشيات. يصنع القميص عادة من كتان خفيف ورقيق أو من الموسلين، كما يصنع في معظم الأحيان من قماش شفاف ومخطط بألوان متعددة ويطرز بالحرير المتعدد الألوان خاصة حول العنق والأكمام[9] (شكل رقم:2).

غالبا ما كانت المرأة الحضرية تلبس قميصا ثانيا فوق القميص الأول، يضاف إليه سروالا من الكتان أو القطن، عريض وطويل يصل إلى عقب القدم، لونه أبيض في معظم الأحيان[10]، ومما تجدر الإشارة إليه أن سروال المرأة المتزوجة يكون بسيطا وهو بذلك يختلف عن سروال الفتاة الذي يتميز بتعدد ألوانه من جهة ومطرز من جهة ثانية بالإضافة إلى احتوائه على أشرطة من الحرير أو الكتان[11]، ومن عادة المرأة أن تضع سروالا آخرا فوق السروال العادي الذي تلبسه وقت عملها المترلي[12] كما سبق ذكره.

تضيف المرأة الحضرية سترات وصدريات مختلفة الأنواع والأشكال فمنها القصير والطويل أهمها الفريملة والغليلة والقفطان والكراكو المصنوعة من الحرير والديباج والساتان، وقد خصصت هذه الأنواع من الأقمشة لفصل الصيف، أما الأنواع الخشنة كالجوخ والقطيفة فتخصص عادة لفصل الشتاء[13].

تعرف الفريملة على أنها سترة دون أكمام و تتميز بأنها تضغط على الصدر فتجعله بارزا نحو الأمام، كما تلبس في بعض الحالات للتخفيف من شدة شفافية القميص[14]. أما بالنسبة للغليلة فهي سترة تصنع عادة من الديباج والدمشقي والقطيفة والساتان، لها عنق مجوّف وواسع بكثرة[15]، تفتح من الأمام وتغلق في مستوى البطن بواسطة أزرار مختلفة الأشكال مصنوعة من الحرير أو الذهب، تحتوي على أكمام عريضة تمنع ظهور أكمام القميص. تضيف فوطة طويلة من الحرير مشدودة في مستوى النطاق ومربوطة من الأمام[16].

فيما يخص القفطان فغالبا ما يصنع من الحرير أو القطيفة ويشبه إلى حد كبير الغليلة خاصة من حيث الشكل العام. يعتبر القفطان من ملابس الأبهة والفخامة في المجتمع، انتشر ارتداؤه في الجزائر عن طريق العثمانيين.

تلبس المرأة هذه الملابس في المناسبات والأفراح وما يثير الانتباه أنها تضعها فوق بعضها البعض تصل تدريجيا إلى غاية الدسار، وتضيف إليها حزاما من الحرير المتعدد الألوان مزود بخمل من الذهب يربط في الجهة اليسرى[17]؛ ومن بين ملابس البدن يمكن ذكر الجبة التي تلبسها كذلك في الأفراح والمناسبات تكون في غالب الأحيان متعددة الألوان حيث يكون جانب منها أصفر اللون والجانب الآخر أزرق اللون[18].

بالنسبة لملابس الرأس التي تعتبر جزء لا يتجزأ من الملابس الأخرى فتتميز بالكثرة والتعدد، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بطريقة ترتيب الشعر. فقد اعتادت المرأة الجزائرية أن تضفر شعرها على شكل ضفيرتين يتدليان من الخلف ويصلان إلى الحزام، تلف الضفيرتان بحاشيات متعددة الألوان تنتهي في بعض الأحيان بصفيحة من الذهب وثلاثة أشرطة حريرية، كما تضع فوق الضفيرة حاشية مضفورة من الحرير المتعدد الألوان، أو حاشية مذهبة تتدلى فوق ضفيرة الشعر[19]، ويضفر الشعر أحيانا بحيث يتشابك بالجواهر المصنوعة من الماس والتركواز والزمرد ومن أحجار كريمة أخرى[20].

من بين أنواع ملابس الرأس يمكن ذكر الشاشية المصنوعة غالبا من القطيفة، وهي على شكل قصعة تصل إلى غاية الأذنين، مزينة بقطع نقدية ذهبية أو فضية مخاطة بخانات من اللآلئ والأحجار الكريمة المتعددة الألوان غير أصلية في بعض الأحيان[21]. إضافة إلى الشاشية تلبس محرمة ووشاحين أو ثلاثة أوشحة موضوعة فوق بعضها البعض، مزينة بصفائح ذهبية أو فضية ومطرزة الأطراف المسدولة على الكتفين[22].

كانت طريقة تزيين الشعر وكساء الرأس الخاصة بالمرأة الحضرية متشابهة إلى حد كبير بالمرأة المشرقية، فكانت المرأة الفارسية مثلا تجذب شعرها إلى الخلف وتمشطه على عدة ضفائر غليظة تصل إلى العقب، يضاف إليها ضفائر من الحرير أطرافها مزينة بالجواهر والذهب والفضة، كما تضع عصابة متعددة الألوان مصنوعة من الحرير الخفيف يغطي طرفها الرأس لأنها مشدودة في أعلى الجبهة بعصيبة يقدر عرضها بحوالي 2 سم، وتتميز بزخرفتها بالطرز وتغطيتها بالجواهر[23].

من ملابس الرأس أيضا الصرمة وهي عبارة عن تاج من الذهب أو الفضة ومخرّمة كليا، تضع فوقها برقعا شفافا ومطرزا[24]، يضاف إلى هذه الملابس الخاصة بالرأس ملابس أخرى كالبنيقة والتنشيفة تضعهما المرأة عند خروجها من بالحمام[25]. الأولى عبارة عن قلنسوة مصنوعة من الكتان أو القطن ومطرزة من الأمام بالحرير المتعدد الألوان. أما الثانية فهي قطعة من القماش مستطيلة الشكل تغطي المرأة شعرها بها عند خروجها من الحمّام مباشرة وتجفّفه بها، عندها تنزعها لتضع مكانها البنيقة، تصنع التنشيفة عادة من الكتان ومطرّزة بزخارف منسّقة ومنظّمة[26].

لقد أولت المرأة الجزائرية للتنشيفة أهمية إذ قامت بطرزها كليا باستعمال أجمل الألوان وتنفيذ أجود غرز الطرز، وتزيين حوافها بأشرطة مطرّزة أو مخرّمة منفّذة بخيوط بيضاء أو ذهبية تتماشى والخيوط المستعملة في الأشرطة[27].

بالنسبة للحلي عامة فتتألف من الجواهر واللآلئ، ويمكن تمييز الغنية عن البسيطة من خلال الحلي، فتضع الغنية مثلا خمسة أو ستة أقراط مختلفة الأشكال والأحجام في الأذن الواحدة[28]، وتضع أساور مختلفة في معصميها بالإضافة إلى عقود وقلادات في الرقبة[29]، وخواتم وخلاخل ورديف مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس واللآلئ والماس، تلبس الفتاة عقدا يحتوي على قطع نقدية ذهبية يعرف باسم المذبيح، أما المرأة المتزوجة فتضع قلادة مشابهة لعقد الفتاة لكنها مصنوعة من الماس[30]، أما حلي المرآة الفقيرة والبسيطة فهي مصنوعة من المرجان والعنبر الأصفر بالإضافة إلى أساور وخواتم من الفضة[31]، كما تعوض اللآلئ بسبحات من القرنفل[32].

تلبس المرأة الحضرية الأندلسية أيام الأعراس والحفلات أفخم الملابس، وتتزين بأغلى الحلي، إذ تضع غليلة مطرزة بالذهب و الفضة أو عدة غليلات فوق بعضها البعض وسروالا منتفخا من الحرير، وتضع فوطة من الحرير طويلة ذات تخطيطات عريضة تربط من الأمام[33]، كما تلبس بعض النساء خمسة أو ستة قفاطن فوق بعضها البعض حتى تظهر جاههن ومالهن بالإضافة إلى سترات من الديباج و صدريات مطرزة و مزينة بالقياطين[34].

وفيما يخص العروسة فتذكر براوطن.Broughton E حضور أمها في عرس زواج ابنة قاضي الجزائر لرجل تركي كبير السن، أن العروسة أخذت إلى حجرتها من طرف قريباتها ثم أجلست على وسادة وبدأت الفتيات في تبديل ملابسها ومظهرها، وأضفن إليها حليا أخرى

إضافة إلى ما كانت مزينة به وألبست الديباج والحرير والموسلين فوق بعضها البعض، ثم قيدت إلى حجرة العروسين بمساعدة فتاتين ماسكتين رأسها لأن ملابسها وحليها جعلتها ثقيلة لا تستطيع المشي[35]. وقد كانت هذه الظاهرة معروفة أيضا لدى أهل المشرق حيث يذكر فوربن Forbin أنه حضر عرس زواج في أثينا لناس بسطاء وكانت العروسة لطيفة ومرتدية ملابس كثيرة فوق بعضها البعض مما جعلها ثقيلة المشي لا تستطيع السير بسهولة وقد ساعدتها فتيات لتتمكن السير[36]، من خلال ما ذكر يظهر التشابه الكبير بين ملابس المرأة الجزائرية والمرأة في أثينا مما يدل على مدى التأثير التركي العثماني.

وخلال مدة العرس التي تستغرق أسبوعا كاملا فإن العروسة تلبس خلاله سروالا عريضا قماشه موحد بعد ما كانت تلبسه قبل زواجها متعدد الألوان، وتلبس قفطانا مطرزا بالذهب الخالص بدقة كاملة. وقد عوض القفطان فيما بعد بالكراكو الذي يطرز بالذهب[37] باستعمال الفتلة والمجبود، وعادة ما تضع حول أسفل جسمها فوطة منسوجة بالذهب ومثنية في مستوى النطاق، وتغطي وجهها ببرقع خفيف يعرف باسم الشنبير، يثبت بعصابة من الجواهر والماس تعرف في مدينة الجزائر باسم خيط الروح، يوضع مائلا أو منحنيا وتحلي عنقها بعقد من القطع الذهبية يعرف باسم الشنتوف وأسفله سلسلة من الذهب كما يسمح لها وضع المحرمة التي كانت مخصصة للمرأة المتزوجة فقط[38].

أما فيما يخص طريقة مشطها فتضفر ضفيرتين ممزوجتين بخيوط من الحرير الأحمر، تتدلى الضفيرتان على الوجنتين وتتجمعان أسفل الذقن، ويسترسل باقي الشعر على الكتفين. بعد ليلة الزفاف تعيد العروسة لبس السروال العريض و الكراكو[39]، وهما اللباسان الأكثر شيوعا في مدينة الجزائر ولا يزالا مستعملين لدى العائلات الجزائرية المحافظة.

كانت جل العائلات الحضرية الأندلسية الجزائرية تهتم كثيرا بملابس العروس وتولي عناية كبيرة بمهرها وصداقها، ويلزم أهل الزوج تزويد أهل العروسة بمهر يتماشى ومكانتها الاجتماعية كما يدل عليه عقد بين عائلتين كبيرتين في القرن 12هـ/18م والمؤرخ في نهاية ذي الحجة سنة 1139هـ/ الموافق لشهر أوت سنة 1728م، ويتضمن المهر 1001 دينارا، وثلاثة قفاطن وثلاثة أزواجا من الأساور الذهبية وثلاثة قناطير من الصوف وعبيدان من الجنس اللطيف وثلاثة أوسات من اللآلئ المزخرفة بالإضافة إلى صرمة من الذهب[40].

ويشترط على أهل الزوج قفاطن مصنوعة من أقمشة مختلفة، ويكون واحد منها مطـــرزا بالذهب وأن يجهز قبل يوم الزفاف باعتباره لباس العروسة يوم زفافها، ويكون الاثنـــان مـــن القطيفة والدمشقي يلبسان كذلك يوم العرس بعد صلاة الظهر، وتحرص بعض العـــائلات أن تضيف ست سترات مصنوعة من مختلف الأقمشة الغالية الثمن[41].

أما الملابس الخارجية الخاصة بالخروج عند الذهاب إلى الحمام أو لزيارة الأهل والأقارب، أو لحضور القرابين المقدمة في ساحة باب الوادي أو لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين، فتضيف المرأة إلى ملابسها الداخلية سروالا أبيضا طويلا وعريضا يعرف باسم سروال الزنقة، ويكـــون متعدد الألوان لغير المتزوجة[42]، يربط بحزام محدثا طيات وثنيات[43]. وتتغطي بحايك أبـــيض اللون رقيق يوضع على الرأس ويترل إلى غاية القدمين بعد أن يتقاطع في ناحية الصدر، وعادة ما يلف الجسم حيث لا يمكن تمييزه[44]، ولا يظهر من جسمها شيء بما في ذلـــك الملابـــس الداخلية[45]، حتى أنه لا يمكن للزوج في بعض الأحيان أن يتعرف على زوجته لـــولا العبيـــد المرافقين لها[46]. وتغطي وجهها ببرقعين خفيفين، الأول يغطي الجبهة والعينين والثاني يغطـــي أسفل العينين بدءا من الأنف إلى الأسفل[47]، أو تغطي جبهتها إلى غاية الحاجبين بعصابة يليها منديل يغطي الوجه ما عدا العينين[48]. وتضع في قدميها حذاء ذي كاسية ساق قصيرة مـــن الجلد، أو خف بجوارب أو دونها[49]، وقد تميزت بعض النساء بارتداء خف بكعب عـــال أو حذاء مفتوح من الأمام[50].

مما تجدر الإشارة إليه أن الحايك لم يكن مقتصرا على نساء الجزائر فحسب بل كان معروفا في كل العالم الإسلامي بأسماء مختلفة، فعلى سبيل المقارنة كانت المرأة الدمشقية تتغطى مـــن الرأس إلى القدمين بإزار من القطن أبيض اللون و تلبس تحته سروالا عريضا، ومن النساء مـــن يخرجنه أسفل الإزار وكلهن دون استثناء يغطين وجوههن بقطعة من الحرير أصـــفر اللـــون مزخرف بأزهار يكون شفافا في غالب الأحيان، وكثير منهن يضعن هذه القطعة فوق الـــرأس وتبقى وجوههن مكشوفة[51].

وفي مدينة طنجة تتغطى المرأة عند خروجها بحايك لا يظهر منها شيئا ما عدا عين واحدة تظهر من خلال ثنية كبيرة في الحايك، وتلبس في قدميها بابوشا غليظا أحمر اللون دون جوارب كالرجل[52]. أما في مصر فكانت المرأة تخرج بملابس ثمينة متألقة باللآلئ وتضع على رأســـها قلنسوة على شكل بوق غالية الثمن ضيقة يقدر علوها 22 سم، وتتغطى بإزار من القطن رقيق

جدا وناعم، كما تغطي وجهها بنقاب أسود رقيق وخفيف وتضع في قدميها حذاء ذي كاسية ساق[53].

– **لباس المراة التركية الكرغلية:** تتكون ملابس المرأة التركية الكرغلية من سروال طويل يصل إلى غاية الدسار، أبيض بالنسبة للمرأة المتزوجة ومتعدد الألوان عند الفتاة كما هو الحال لدى المرأة الحضرية، وتضع فوق السروال قميصا طويلا وعريضا ذي أكمام طويلة وعريضة، مصنوع من قماش شفاف مطرز بالحرير أو الذهب ومزين بالدانتلا، وتلبس فوقه فريملة وقفطانا من الحرير والذهب أي تتداخل في صنعه خيوط حريرية وذهبية[54]. وتضع حول أسفل جسمها فوطة طويلة كما هو الحال عند المرأة الحضرية الأندلسية وتتحزم بحزام حريري أو ذهبي يقفل بواسطة حلقتين معدنيتين، وهي بذلك تشبه المرأة التركية في اسطنبول من حيث المظهر الخارجي ونوعية القماش المستعمل.

وبالنسبة لشعرها فتضفره باستعمال حواشي ولآلئ وجواهر وأحجار كريمة، تضيف إليها حليا عبارة عن أقراط وقلادات وخواتم وأساور خاصة بالمعاصم والقدمين[55].

أما فيما يتعلق بغطاء الرأس فتلبس شاشية ومحرمة لشد الشعر[56]، إضافة إلى الصرمة والبنيقة والتنشيفة السابقة الذكر، وعادة ما تلبس الفتيات قبعات من قماش غالي الثمن، تزين بكميات كبيرة من القطع الذهبية(57)، وتضع في قدميها حذاء ذي كاسية ساق قصيرة أصفر اللون داخل بابوش وهي طريقة تركية محضة، لكن معظم النساء تلبس البابوش دون جوارب[58].

فيما يخص ملابس الخارج تضع غطاء للرأس ذي شكل مرتفع خاص بالخارج، يشبه غطاء الرأس الخاص بالرجل خاصة عند وضعه شاشيتين أو ثلاث فوق بعضها البعض. يحاط الغطاء بشريط من القطن لتثبيت الحايك المصنوع من الموسلين[59]، وتغطي وجهها بعجار أبيض اللون لا يظهر منه إلا العينان. يختلف لباس المرأة التركية الكرغلية عن لباس غيرها من خلال الألوان الفاتحة وهي كثيرة الشبه بلباس الرجل[60].

ملابس المرأة اليهودية

يتصف لباسها بالألوان التي عرف به اليهود تمييزا لهم عن بقية السكان المسلمين، وبغض النظر عن اللون الأسود المميز[61]، أن المرأة اليهودية أخذت الكثير وتأثرت بطريقة لبس المرأة الحضرية الأندلسية ومظهرها الخارجي حيث أنها ترتدي نفس أنواع الملابس كما يذكر

شوفاليه دافرو Chevalier D'Arvieux لدى زيارته لمدينة الجزائر سنة 1660م أنه حضر عرس زواج امرأة يهودية حيث كان وجود عدد كبير من النساء والفتيات، وقد أكدن له أن طريقة لبسهن شبيهة بملابس النساء الأخريات خاصة الحضريات منهن[62].

تتصف ملابس المرأة اليهودية بأنها أقل أناقة وأكثر خشونة من ملابس المرأة الحضرية[63]، تتكون من قميص أبيض اللون ذي أكمام عريضة وسروال يصل إلى غاية الركبتين، يربط في مستوى الخاصرين بحزام شبيه بالحبل[64]، وتضع فوقها جبة من الصوف ذات اللونين الأسود أو الأزرق، عريضة جدا وطويلة تصل إلى غاية الأرض، أكمامها قصيرة جدا بحيث تسمح لأكمام القميص أن تظهر والتي تلف من الخلف بشكل ظاهر[65]. بالنسبة لقدميها فهي تضع خفا من جلد الماعز بدون حزام عقب، تسحبه عند المشي وتضيعه عندما ترفع قدميها كما أنها متعودة المشي حافية القدمين[66].

أما فيما يتعلق بملابس الرأس، فترفع المرأة اليهودية شعرها حيث تشده بخيوط وتغطيه بمنديل من الحرير أو القطن، وهي بذلك تشبه المرأة الحضرية عند قيامها بالأشغال اليومية المترلية[67]. وفي غالب الأحيان تضع صرمة معدنية تختلف عن صرمة المرأة المسلمة بمنظرها ومادة صنعها، تلبسها داخل البيت وخارجه كما تغطيها عند خروجها بقماش شفاف أبيض اللون الذي تستغني عنه في بعض الأحيان. وإذا كانت المرأة اليهودية فقيرة فتعوض الصرمة بوشاح على شكل منديل وتترك الحرف يتدلى على الرقبة.

بالنسبة للفتاة فشعرها طويل و مضفور على شكل ذيل تتداخل فيه أشرطة حمراء وزرقاء، وتضع قبعة صغيرة أنيقة مصنوعة من القطيفة خضراء اللون و مزينة بشرابة من الذهب وبأشرطة حاشية من الذهب كذلك[68]، إضافة إلى هذه الملابس فلا تتحرج المرأة اليهودية أن تلبس الأنواع الأخرى المتداولة عند المرأة المسلمة بصفة عامة.

تميزت المرأة اليهودية أيام السبت وأيام الحفلات بلبس أجمل ما عندها من ثياب وتتزين بأحلى الحلي، فتظهر في هذه المناسبات بجبة من الحرير مطرزة بالذهب ومزخرفة بالقياطين، وتضع سترة بدون أكمام مطرزة كذلك بالذهب من الأمام و مزينة بأزرار من نفس المعدن. وتزين الصرمة بمناديل حريرية ولآلئ، وتضع ضفيرة كبيرة من الذهب أسفل الصرمة حيث تتدلى إلى الأرض كما هو الحال عند المرأة المسلمة. وتلبس في قدميها حذاء من القطيفة أو من جلد السختيان مطرز بالذهب ومزين برقاقات زركشة[69]، وتتزين بأجمل ما عندها من حلي

بما فيها الأساور الذهبية والفضية وعقود من المرجان، وقلادات ذهبية وفضية ونحاسية. ونظرا لاحتكار اليهود صناعة الذهب والحلي فغالبا ما كانت المرأة اليهودية تثير انتباه المرأة المسلمة بما ترتدي من حلي وجواهر.

هذا وقد تأثرت بعض النساء الأوربيات الثريات بملابس المرأة اليهودية فقلدنها في مظهرها بحيث يصعب التمييز بين المرأة الأوربية و اليهودية في بعض الأحيان، كما تؤكده ملابس الكونتسة فريديركا التي ارتدت الملابس الخارجية لإحدى اليهوديات بدءا من المحرمة والصرمة مرورا بالقميص والغليلة والجبة والحزام إلى البابوش دون أن تنسى تغطية الصرمة ببرقع شفاف.

أما فيما يخص مظهر المرأة اليهودية الخارجي فهي عادة سافرة الوجه وبدون خمار عكس المرأة المسلمة، إذ تكتفي بتغطية جسمها من الرأس إلى القدمين بحايك يختلف لونه طريقة وضعه عن حايك المرأة المسلمة إذ يكون أزرق اللون عند اليهودية وأبيض عند المسلمة كما سبق ذكره، كما يمكنها الاستغناء عنه نهائيا حيث تعوضه بقماش شفاف من الصوف أبيض اللون تضعه على كتفيها وتمسكه بيدها اليمنى[70].

ملابس المرأة الريفية البدوية

تتألف ملابس المرأة الغنية من قميص شفاف ورقيق وسروال يشبه سروال الرجل وسترة من الحرير تضع فوقها جبة طويلة مختلفة الألوان تصل إلى منتصف الساقين وذات أكمام عريضة[71]، ولدى حضورها عرس زواج أو حفل فتلبس ملحفة طويلة موضوعة فوق القميص والسروال والسترة والجبة، تتميز الملحفة بتعدد ألوانها خاصة الأحمر والأزرق، يربط طرفاها على الكتفين بواسطة إبزيم من الفضة[72].

أما فيما يتعلق بقية النساء ذوات الطبقة الاجتماعية البسيطة فلا تختلف ملابسهن إلا في مادتها المصنوعة في غالب الأحيان من الصوف[73].

تغطي المرأة رأسها بمنديل منسوج بطريقة جيدة بخيوط ذهبية وفضية، كما تضع قطعة قماش مثلثة الشكل مصنوعة من الكتان ومطرزة ومزخرفة بطريقة رفيعة، تشد هذه القطعة مؤخرة الشعر حيث لا يظهر منه إلا خصلة فقط. ومن عادة المرأة الريفية البدوية أن تترك شعرها طويلا يصل في بعض الأحيان إلى الأرض، كما تزين شعرها بحواشي حريرية واللآلئ والمرجان والعنبر و الأصداف[74].

تتزين بعقود وأساور وأقراط وخلاخل وخواتم من الفضة أو النحاس أو من معدن الحديد، بالإضافة إلى عقود مصنوعة من نوايا التمور ومن القرنفل[75]، بالنسبة لملابس القدم فتضع في قدميها بابوشا أو خفا لكن غالبا ما تكون حافية القدمين.

فيما يخص ملابس الخروج فهي عبارة عن حايك أبيض اللون تغطي به جسمها، تضيف إليه برقعا أبيض اللون تغطي به وجهها في حالة مرافقة زوجها، كما تتركه مكشوفا لكن عند مصادفة رجل غريب تغطي وجهها بالبرقع[76].

– ملابس المرأة الزنجية: لا تختلف ملابسها عن بقية النساء لأنها ترتدي ملابس السيدة البالية التي لم تعد في حاجة إليها، و في حالة كونها الوصيفة فتكتفي بقميص ذي أكمام عريضة وسروال يصل إلى منتصف الساقين، وتغطي أسفل جسمها بفوطة طويلة ومخططة. وتضع في غالب الأحيان فريملة فوق القميص تحتوي على أزرار على طول العنق، وتغطي رأسها عموما بمحرمة بسيطة تشد بها شعرها لتقوم بالأعمال المنزلية.

وتتزين بحلي معدنية مصنوعة من الحديد والنحاس وهي عبارة عن خواتم وقلادات وأساور، وتلبس في قدميها بابوشا بسيطا أو تبقى حافية القدمين في بعض الأحيان[77].

أما الملابس الخارجية فتحتجب في حايك مخالف لحايك المسلمة واليهودية حيث يكون لونه في غالب الأحيان أزرق سماوي يحتوي على مربعات صغيرة أو أشرطة، تضعه فوق رأسها ويتساقط إلى غاية الحزام مع إبقاء وجهها سافرا ودون خمار حسب العادة الجارية[78].

في الختام يلاحظ أن كل طائفة لها ملابسها وأزيائها الخاصة تتميز بها بالرغم من وحدة العناصر المكونة لهذه الملابس التي تختلف في الطابع العام تتسم ملابس المرأة الحضرية الأندلسية وأزياؤها بالتنوع والتعدد وبالأناقة والجمال وغلاء أثمانها،كما تتميز كل طائفة بملابس خاصة من حيث الشكل واللون، ونفس الشيء يقال عن الملابس الخارجية المتمثلة في الحايك الخاص بالخروج الذي يختلف من طائفة إلى أخرى من حيث الشكل واللون[79].

– الهوامش:

1- Pananti F., Narrative of a residence in Algiers, London, 1818, p.210.

2 - Chaillou L., L'Algérie en 1871, Toulon, 1974, p.36. -2

3- Millot S., Le costume du vieil Alger, extrait de l'Afrique du nord illustre, numéro de noël, 1920, Alger, 1921, p. 5.

4- شريفة طيان، ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية،1990-1991، ص 146.

5- Hatin E., Histoire pittoresque de l'Algérie, Paris, 1840, pp : 51-52.

6- Aranda E.D'. Relation de la captivité et liberté,3 éd. Bruxelles,1662 , p.228.

7- شريفة طيان، المرجع السابق، ص .146

8- Dapper O., Description de l'Afrique, Amsterdam, 1686, p.175.

9- Arvieux Ch.D'., Mémoires du chevalier d'Arvieux, t.5, Labat, Paris,1735, p. 285.

10 -Rocqueville , Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger, Paris,1675, pp : 82-83.

11- Hatin E., Op.cit , pp : 51-52.

12-Shaler W., Esquisse de l'état d'Alger, paris, 1830, p.81.

13- شريفة طيان، المرجع السابق، ص .148

14- Berbrugger A., Algérie historique pittoresque et monumentale.1, Paris, 1843, p.13.

15- Haedo F.D., « Topographie et histoire générale d'Alger », Trad. De Monnereau et Berbrugger, in revue africaine, 1871, p. 107.

16- Arvieux Ch.D'., Op.cit., p.286.

17- Millot S., Op.cit., p.4.

18- Pananti F., Op.cit., p.201.

19- Millot S., Op.cit., p.5.

20- Laugier de Tassy ., Histoire du royaume d'Alger, Amsterdam,1728, pp : 84-85.

21- Arvieux Ch.D'., Op.cit., p.286.

22- Hatin E., Op.cit., p.54.

23- Chardin C., Voyage en Perse, t.4, Amsterdam, 1711, p.156.

24- Shaler W., Op.cit., p.83.

25- شريفة طيان، المرجع السابق، ص .151

26- Wace A.J.B., Catalogue of Algerian embroideries, London, 1935, p. 14.

27 - شريفة طيان، المرجع السابق، ص 123.

28- Dan P., Histoire de Barbarie et ses corsaires, Paris, 1649, p.280.

29- Arvieux Ch.D'., Op.cit., p.286.

30- Berbrugger A., Op.cit., p.13.

31- Laugier de Tassy ., Op.cit., p.85.

32-Millot S., Op.cit., p.5.

33- Berbrugger A., Op.cit., p.13.

34- Racim M., La vie musulmane d'hier vue par Racim, Paris, 1960, p.73.

35- Broughton E., Six years residence in Algiers, London, 1839, pp: 22-23.

36- Forbin M de. Voyages dans le Levant en 1817-1818, Paris, 1919, p. 34.

37-Jouin J., Iconographie de la mariée dans l'islam nord africain, extrait de la revue des études islamiques, 1931, Paris, 1932, p. 326.

38- Ibid. p.327.

39- Ibid. p.328.

40-Ben Cheneb S., Un contrat de mariage algérois du début du 18 siècle, extrait des annales de l'institut d'études orientales, t.13, Alger, 1956, p.100.

41-Ben Cheneb S., Op.cit., p.101.

42 -Berbrugger A., Op.cit., p.14.

43- Rozet M., Voyage dans la régence d'Alger, t.2, Alger, 1833, p. 56.

44-Rotalier C., Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la méditerranée à dater du 16 siècle, Paris, 1841, p. 281.

45-Emerit M., « Le voyage de la Condamine à Alger » in revue africaine, 1953-54, p. 379.

46-Dapper O., Op.cit., p.175.

47-Aranda E.D'., Relation de la captivité et liberté, éd.3, Bruxelles,1662, p. 228.

48 -Poiret A., Voyage en Barbarie, Paris, 1789, p. 144.

49-Laugier de Tassy ., Op.cit., p.84.

50- شريفة طيان، المرجع السابق، ص .151

51-Ali Bey A., Voyage d'Ali Bey en Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807, t.3, Paris, 1814, p. 243.

52- Ibid. t.1, p.25.

53- Léon l'africain, Description de L'Afrique, Paris, 1956, pp : 514-515.

54- Anonyme, Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger, 2.éd. Paris, 1830, p. 141.

55 -Hatin E., Op.cit. p.54.

56- Racinet, Le costume, historique, types principaux du vêtement et de la parure, Paris,1818.

57-Hatin E., Op.cit. p.54.

58-Berbrugger A., Op.cit.,t.5, p.5.

59-Racinet, Op.cit.

60- Anonyme, Op.cit., p. 141.

61- Laugier de Tassy ., Op.cit., p.75.

62-Arvieux Ch.D'., Op.cit., p.285.

63-Racinet, Op.cit.

64-Eudel P., L'orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902, p. 59.
65-Millot S., Op.cit. p.5.
66-Eudel P., Op.cit. p.59.
67- Rozet M., Op.cit , t.2, p. 56.
68-Berbrugger A., Op.cit., t.5, p.4.
69-Rozet M., Op.cit , t.2, p. 220.
70-Estry S., Histoire d'Alger, Tours, 1841, pp : 29-30.
71- Laugier de Tassy ., Op.cit. p.75.
72-Berbrugger A., Op.cit., t.5, p15.
73-Anonyme, Op.cit., p. 140.
74-Pananti F., Op.cit., pp: 172-173.
75-Rozet M., Op.cit , t.2, p. 167.
76- Hatin E., Op.cit., p.53.
77-Haedo F.D., Op.cit., p.112.
78- Ibid.
79- شريفة طيان، المرجع السابق، ص 166.

الأميرال سدناي سميث (Sidney Smith)
والتحالف الأوروبي-المسيحي ضد الجزائر عام 1814

دة/ زكية زهرة
قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2

أدركت الدول الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر مدى أهمية التكتل الأوروبي-المسيحي ولمّ شمله في تحالف مسيحي وتوجيه قوته المتحالفة نحو عدو مشترك وهو ايالات شمال إفريقيا الثلاث عامة والجزائر خاصة لما أظهرته بحريتها من قوة، وقفت في وجه تطلعاتهم التوسعية في جنوب البحر المتوسط متجاوزة بذلك المشاكل المطروحة على الساحة الأوروبية.

وفي هذا التوجه ظهرت أفكار تنادي بتوحيد الصفوف الأوروبية التي ظلت لفترة متناحرة وذلك لتدمير ما أسموه بعش القراصنة وهي الجزائر، وبذلك يزول الخطر المترصد لهم في الجنوب وتفتح لهم الأبواب على مصراعيها لينفذوا ما خططوا له وفي هذا الإطار تندرج مذكرة سدناي سميث التي عبّرت عن فكرة الحلف البحري الأوروبي.

وسدناي سميث هو أميرال إنكليزي (1764-1840) اشتهر في الحروب البحرية خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر[1]. يعتبر أول من فكّر في تكتل الأوروبيين على شكل حلف بحري ضد الجزائر. فكتب في هذا الشأن مذكرته بلندن في 31 أوت من سنة 1814 عنونها "**مذكرة حول ضرورة اتخاذ الوسائل اللازمة لإيقاف قرصنة دول الشمال إفريقيا**". (Mémoire sur la nécessité et les moyens de faire cesser les pirateries des États Barbaresques) وقد بعث بهذه المذكرة إلى حكومات الدول الأوروبية يحثها فيها على أهمية الإتحاد من أجل وضع حد لقرصنة دول شمال إفريقيا، كما يدل على ذلك عنوان المذكرة.

مضمون مذكرة سدناي سميث

مما يلاحظ أن المذكرة رغم كونها موجهة ضد ايالات شمال إفريقيا الثلاث إلا أن مضمونها كان يتركز على الجزائر.

وقد تضمنت مذكرة سدناي سميث في هذا الشأن ثلاث نقاط أساسية هي:

I. استهل الأميرال الانكليزي سدناي سميث مذكرته بتحريض الأوروبيين ضد الجزائر، إذ أبدى استغرابه من موقف الأوروبيين الذين كانت أنظارهم موجهة آنذاك إلى الجهة الغربية من القارة الإفريقية للقضاء على استرقاق السود و لم ينتبهوا إلى أوضاع الجهة الشمالية من هذه القارة، حيث تقترف، حسب رأيه أبشع الأعمال ضد الأوروبيين من قبل القراصنة الأتراك.

وقد أدى به هذا الموقف إلى اعتبار الجزائر سبب المشاكل التي يلاقيها الأوروبيون على ساحلها أو داخل أراضيها لأنها- أي الجزائر- في نظره لا تخشى أحدا ولا تعبأ حتى بسلطة الباب العالي، فهذا الأخير لا يستطيع حتى حماية رعاياه من الدول المغربية وسكان بلاد الإغريق من هجمات الجزائريين. وبهذا الحكم تأكد له أن "قراصنة" الجزائر يشكلون عائقا للتجارة الأوروبية وخطرا يهدد السلوك الإنساني والأخلاق الدولية والعلاقات الحضارية، مما يتوجب معاقبتهم والقضاء على حكومتهم وتشكيل حكومة بالجزائر تلتزم بالمحافظة على المصالح التجارية وتحترم الأمم الأوروبية المتحضرة في نظره.

2. وقد رأى سدناي سميث أن الوسائل الحربية التي كانت مستعملة من قبل الملوك المسيحيين للقضاء على ايالات شمال إفريقيا لم تكن ملائمة بل عملت في معظم الأحيان على تقوية هذه الدول، ففي نظره أن أوروبا بقيت معتمدة على فرسان القديس يوحنا «Les Chevaliers de Saint Jean»[2]، و لم تتفطن لضعف هذا التنظيم المسيحي الذي أصبح لا يملك الوسائل و القوة الكافية للوقوف في وجه قراصنة ايالات شمال إفريقيا. وقد انتهى سميث في استنتاجاته إلى أنه ما دام تنظيم فرسان القديس يوحنا غير قادر على مواجهة قراصنة ايالات شمال إفريقيا، فإن الحملة ستقوم بها الدول الأوروبية مجتمعة بتشكيلها حلفا بحريا[3].

ولتنفيذ هذا المشروع طلب سدناي سميث من الدول الأوروبية التعهد في اتفاق مشترك بإرسال جيوش لتشكيل قوات بحرية، واقترح أن يكون هو قائدهم، وكان يهدف من وراء ذلك أن تكون هذه القوة بمثابة شرطة بحرية تحمي سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، وتراقب "القراصنة" وتلقي القبض عليهم وتهاجمهم برا وبحرا.

وهذا العمل الذي ستتكفل به الدول الأوروبية، سوف يضمن لها في المستقبل حماية تجارتها، كما أن هذا العمل سيقدم خدمة إنسانية لسكان ايالات شمال إفريقيا، لأن منعهم من ممارسة "القرصنة" حسب رأيه سيدخلهم في مصاف الشعوب المتحضرة.

3. وما دام الباب العالي طرف مباشر في القضية، فإن عليه، حسب ما ورد في مذكرة سميث، أن يؤدي دورا في هذه الخطة. هذا وحمل سدناي سميث سفراء الدول الأوروبية بإستانبول مهمة إقناع الباب العالي للدور المنوط به إذ عليهم أن يحملوا الباب العالي مسؤولية الأعمال التي يقوم بها رعاياه في شمال إفريقيا، وذلك إذا استمر في السماح بتجنيد الإنكشارية من ولاياته لفائدة حاميات دول شمال إفريقيا. وعلى سفراء الدول الأوروبية كذلك العمل على إقناع الباب العالي بأن يمنع حكام ايالات شمال إفريقيا من إعلان الحرب على الدول الأوروبية[4].

وقد ذهب الأمر بسدناي سميث إلى حد الاقتراح على الدول الأوروبية مطالبة الباب العالي إغراء إنكشارية وبحّارة الجزائر بالمال والمكافآت حتى يلتزموا بنصائحه في هذا الشأن ويتخلوا عن الداي ويتركوه دون دفاع[5].

اضافة الى مذكرته فان سدناي سميث قد أراد كسب تأييد السلطان العثماني لمشروعه عن طريق أحد الأعوان المتصلين به بإستانبول. وقد تمكن هذا الأخير من إقناع الباب العالي في بعض الأمور إذ أرسل الباب العالي مبعوثا إلى كل من الجزائر وتونس وطرابلس يدعوهم إلى عدم التعرض في المستقبل لسفن ورعايا الدول الأوروبية التي تربطها علاقات ودية معه[6].

غير أننا لم نعثر على دليل يبين لنا امتثال الجزائر لأوامر الباب العالي، الذي كان يخوض مشروع الإصلاحات أنداك ويتخبط في مشاكل عويصة جراء تفاقم المسألة الشرقية. وبقيت الجزائر تعامل الدول الأوروبية التي أبرمت معها معاهدات على أنها دول صديقة، أما الدول الخارجة على هذا النطاق فهي بطبيعة الحال كانت تعتبرها دولا غير صديقة بل معادية، وهذا ما كان يزعج الباب العالي كثيرا. ففي عهد الداي الحاج علي باشا (1809-1815) توترت العلاقات بين الباب العالي والجزائر. فقد كتب في هذا الصدد أميرال الأسطول العثماني محمد خسرو يشتكي من معاملة الداي للدول الأوروبية. ولذلك أرسل السلطان محدد أغا، الى الجزائر، حاملا تعليمات تطالب الداي باحترام السفن التجارية الأوروبية وإطلاق الأسرى الأوروبيين. غير أن الداي الحاج علي باشا لم يستجب لتوجيهات الباب العالي.

صدى مذكرة سدناي سميث:

أما على المستوى الأوروبي فقد لقيت مذكرة سدناي سميث صدى إيجابيـــا، فظهـــرت في فرنسا مشاريع تنادي بأهمية الإسراع بالقضاء على الجزائر، وكان أول مشروع في هذا الشأن تقدم به الكونت دي بولينياك (Le Comte de Polignac)[7](1780-1847) بأيام قلائل من صدور مذكرة الأميرال الانكليزي سدناي سميث بتاريخ 19 سبتمبر 1814، وقد أبدى الكونت دي بولينياك رأيه في مذكرته المعنونة "أراء حول الحملة المحتملة ضد ايـــالات شمـــال إفريقيا". وخلافا للرأي السائد في فرنسا الذي اعتبر سدناي سميث خطرا على فرنســـا فـــإن بولينياك قد رأى أن ما ذهب إليه سدناي سميث هو موقف يتماشى مع المصالح الفرنسية، بـــل يشكل وسيلة فعالة لإخراج فرنسا من عزلتها على اعتبار أن أفكار سدناي سميث الداعية إلى تشكيل حلف بحري ضد ايالات شمال إفريقيا ستفتح الآفاق أمام الفرنسيين، وستكون دافعا لهم على تجاوز مشاكلهم[8]، وتقدم لهم فرصة نادرة لإظهار قوتهم العسكرية، ولتأكيـــد مكانتـــهم الحربية[9].

غير أن بولينياك وإن اتفق مع مجمل أفكار سدناي سميث فإنه لم يتفق معه في فكرته الداعية إلى تشكيل حلف بحري أوروبي موجه ضد إيالات شمال إفريقيا، ورأى أن فرنسا هي المسؤولة وحدها على شن حملة على إيالات شمال إفريقيا وبالأخص على الجزائر، ورأى أن نجاح فرنسا في حملتها هذه سوف يفتح لها المجال للعودة إلى مصر[10].

مؤتمر فيينا (Vienne) ومذكرة سدناي سميث

في هذه الظروف التي أصبحت فيها الدبلوماسية الأوروبية مهيأة للقيام بعمل مشترك ضد الجزائر، انطلاقا من أفكار سدناي سميث، اجتمعت الدول الأوروبية لإيجاد حـــل للمشـــاكل المطروحة حول الحدود التي كانت تمثل عائقا للوفاق الأوروبي وإعـــادة الســـلام الى القـــارة الأوروبية.

حضر المؤتمر الحلفاء الأربعة وهم انكلترا وبروسيا وروسيا والنمسا. فمثل انكلترا اللـــورد كاستليريث (Lord Castlereath) ثم عوض بالدوق ولينكتون (Le duc de Wellington) واللورد كاثير (Lord Catheart)واللـــورد كلوكـــارتي (Lord Claucarty) واللـــورد ستيوارت (Lord Stewarts). ومثل بروسيا الأمير هردنبرغ (Le Prince Herdenberg)

والبارون دي هومبولدت [11](Le Baron de Humboldt) . ومثل روسيا القيصر الاسكندر الأول[12] (Le Tsar Alexandre I) والكونت رسيموفسكي (Le Comte Rasimovski) والكونت دي ستاكلبرغ (Le Comte de Stackelberg) والكونت دي نسلرود (Le Comte de Nesselrode). أما رابع الحلفاء أي بروسيا فلقد مثلها الأمير دي مترنيخ (Le Prince de Metternich) والبارون واسنبرغ[13](Le Baron Wassenberg).

اضافة الى هذه الدول الأربع التي انتصرت على نابليون حضرت المؤتمر فرنسا التي قبلت بالوضع الراهن الجديد وقد مثلها تاليران Talleyrand والدوق دالبرغ Le Duc d'Alberg والكونت لابريسناديارLe Comte La Bresnadiere ولاتور دي بان La Tour du Pin والكونت ألكسي دي نؤاي[14]Le Comte Alexis de Noailles. وسمح للدولة العثمانية حضور المؤتمر ومثلها الباشا مافروجني Le Pacha Mavrojeni.

كما حرص ممثلو الدول الأوروبية الرئيسية على حضور بعض الدول الأوروبية التي لم تكن لها مشاركة فعالة في الأحداث التي عرفتها الساحة الأوروبية مثل مملكة نابولي (Naples) والفاتكان (Le Vatican) واسبانيا (L'Espagne) والسويد (La Suède) والساكس (Saxe) وهانوفر[15](Hanovre) . وحتى يكتمل الجمع لم يمانع منظمو المؤتمر من استقبال وفود مستقلة ليس لها طابع رسمي، مثل الأقليات الدينية[16] والتنظيمات الدينية[17] وبعض دور النشر[18] .

لقد كان الهدف الأساسي لاجتماع هذه الدول في فيينا هو النظر في مستقبل الخريطة الجيو-سياسية الجديدة لأوروبا، بهدف ايجاد حلول للمشاكل التي كانت تتخبط فيها أوروبا. غير أن المؤتمر، الذي افتتحت أشغاله في ظروف عمتها الفوضى في أول نوفمبر 1814[19]. قد أدرج ضمن برنامجه محورا لا يمت بصلة بالقضايا التي عقد المؤتمر من أجلها، وقد تحول هذا المحور الى قضية هامة شدت انتباه المؤتمرين وتركزت جلساتهم حولها، وهذا المحور هو قضية استرقاق السود[20]. الذي تحول في اهتمام المؤتمرين الى مشكل استرقاق المسيحيين في ايالات شمال افريقيا التي ألصقت بها تهمة القرصنة وبذلك أهملت قضية استرقاق السود الأفارقة بعد أن أتخذوها في بادئ الأمر تعلة يخفون بها أهدافهم.

لم تكن قضية استرقاق المسيحيين ومسألة "قراصنة" إيالات شمال افريقيا غريبة على المؤتمرين ، لأن سدناي سميث كان قد بعث بمذكرته المعروفة الى حكومات الدول الأوروبية

كما أثيرت هذه القضية في مؤتمر فيينا من قبل سدناي سميث نفسه عندما أعاد طرح أفكـــاره على المؤتمرين[21].

وجدت أفكار سدناي سميث أذانا صاغية في المؤتمر، بل شجع الكل صاحبها في مســـعاه للقضاء على قوة الجزائر البحرية. فقد رأى المؤتمرون في موقف الجزائر سبب الآلام التي يلاقيها الأوروبيون في حوض البحر المتوسط، مما يتوجب حسب رأيهم القضاء على الجزائر وتخليص الأوروبيين من شرورها. وبذلك وجد سدناي سميث من يتبنى أفكاره في المؤتمر ويعطيه نفســـا جديدا، ولقد كان في طليعة المتبنين لموقفه تنظيم القديس يوحنا الذي مثله في هـــذا المـــؤتمر وفدان.

أدعى ممثلو تنظيم فرسان القديس يوحنا أنهم القوة الوحيدة القادرة على القضاء علـــى ايالات شمال افريقيا وخاصة الجزائر، وهذا عكس ما ذهب اليه سدناي سميث الذي رأى فيهم تنظيما ضعيفا غير قادر على تقديم أية خدمات. وقد ذهب تنظيم فرسان القديس يوحنـــا في ادعائه الى حد المطالبة بمجال تحرك أو منطقة نفوذ بحوض المتوسط، يكون في خدمة الأساطيل الأوروبية. كما رأى هذا التنظيم الديني أن الدول الأوروبية مهددة من قبل إيـــالات شمـــال افريقيا، نظرا لفرض نفوذها على مياه المتوسط، من مضيق جبل طارق الى غاية قناة السويس، بل وتعدى نشاطها السواحل الأوروبية ليصل الى أعمـــاق المحـــيط الأطلســـي مـــن جـــزر الأصور(Acores) وجزر الكناري (Canaries) وإلى سواحل أمريكا الشمالية.

وهذه النظرة التاريخية هي التي جعلت تنظيم فرسان القديس يوحنا يعتقد أن البحرية الجزائرية التي فشلت أمامها تقريبا كل المحاولات الأوروبية في القرون الماضية، لا يمكن أن تهزم الا من قبل عدوها الشرعي ألا وهو تنظيمهم الديني.

كما أتفق هذا التنظيم الديني مع أفكار سدناي سميث الداعية إلى تشكيل كونفدراليـــة بحرية أوروبية، وتحدي الجزائر بحريا، لأن القضاء على الجزائر، في نظره ، سيضمن مســـتقبلا زاهرا لأبناء العائلات الأوروبية النبيلة التي أفقرت. كما أتفق كذلك تنظيم القديس يوحنا مع سدناي سميث في دعوته الى طرد حاكم الجزائر –أي الداي– من الجزائر، كونه في نظره عنصرا خطيرا على الأوروبيين[22].

وإلى جانب ما جاء من أفكار معادية للجزائر ، فإنه خلال انعقاد المؤتمر، كان بعض المؤتمرين يسربون أخبارا كاذبة، لزيادة تأليب المجتمعين ضد الجزائر، ومفاد هذه الأخبار أن داي الجزائر قد أمر (قراصنته) بإلقاء القبض على نابليون وأخذه الى الجزائر إن أمكن ذلك.

انتهت أشغال مؤتمر فيينا بتحرير محضر في 9 جوان 1815[23] طرحت فيه القضية الجزائرية في شكل مشكلة تخص أوروبا ، وهذا ما أكد الفكرة العامة لدى المؤتمرين بعد أن بات القضاء على الجزائر أمرا بالغ الأهمية يتوجب تنفيذه في أقرب وقت، وبذلك فتح مؤتمر فيينا الأبواب على مصراعيها للساسة الأوروبيين لعقد مؤتمرات أوروبية أخرى كمؤتمر **آكس لا شابيل** تكون فيها القضية المذكورة إحدى المحاور الأساسية التي تجتمع حوله كلمة الأوروبيين.

تجسيد أفكار سدناي سميث

تظاهرت الحكومة البريطانية في بداية الأمر، بعدم رضاها عن الطموحات الجريئة التي تضمنتها أفكار سدناي سميث من حيث طرحها والأسلوب الذي صيغت به والدعوة الصريحة التي تضمنتها لإعلان الحرب على الجزائر. فالحكومة الإنكليزية كانت تسعى لإقامة توازن في المتوسط تكون فيه مكانة محددة لإيالات شمال إفريقيا.

عبر عن نوايا الحكومة البريطانية وزير خارجيتها اللورد كاستليريث في حديث له مع الدبلوماسي الدانماركي دي برنستورف (M. de Bernstorff)، بقوله أن وجود إيالات شمال إفريقيا لا يضر المصالح الإنكليزية بل ينفعها... وفي حالة نزاع مع إيالات شمال إفريقيا فإن المشكل يحل بدفع مقابل مالي، أو باستعمال القوة، مؤكدا أن انكلترا تفضل هاتين الوسيلتين. وقد أبدى تخوفه في هذا الحديث من أن القضاء على إيالات شمال إفريقيا سيؤدي الى قيام دول متعاونة مع فرنسا على سواحل إفريقيا الشمالية تكون له عواقب وخيمة على مستقبل التجارة البريطانية في هذه المنطقة المهمة من القارة الإفريقية.

لم تقتصر تحركات الدبلوماسية الأوروبية على إقناع الرأي العام بل بدأت الخطوات الأولى لتنفيذها في الميدان. إذ بدأ كاستليريث مباشرة بعد مؤتمر فيينا تحسيس الرأي العام الإنكليزي وجس نبض الساسة الإنكليز، فيما يخص استرقاق السود والبيض على السواء.

تمكن كاستليريث من الحصول على موافقة وتأييد الرأي العام الإنكليزي، ففيما يخص حظر تجارة البيض فقد أجمع الوزراء الإنكليز في ربيع سنة 1816 على إرسال أسطول بحري الى سواحل شمال إفريقيا تحت قيادة **اللورد** اكسموث (Lord Exmouth) لإملاء شـــروطهم على حكامها. (أي الجزائر).

انتهت بقصف مدينة الجزائر وإلحاق خسائر فادحة في الأرواح وخسائر مادية مثـــل البنايات والأسطول الجزائري، اضطرت الداي عمر (1815-1817) الى الرضوخ للمطالب الإنكليزية، منها الغاء تجارة الرقيق، وتسليم الأسرى المسيحيين الموجودين في الجزائر، اعـــادة المبالغ المالية التي دفعتها كل من سردينيا(Sardaigne) وصقيلية (Sicile) لفدية أسراهم، إبرام الصلح مع هولندا (La Hollande). فكانت هذه الحملة التي شاركت فيها هولندا، أول تجسيد لأفكار سدناي سميث الداعية الى القضاء على الجزائر ولو أنها كانت خارج الحلف الذي دعا اليه.

أما في فرنسا فإن نابوليون كان عاقدا العزم على تجاوز قرارات مؤتمر فيينا، فقد بعث له أحد أنصاره وهو وزير خارجية فرنسا كولنكور دوق دي فيسنس (Caulaincourt duc de Vicence) رسالة بتاريخ 25 أفريل 1815، أي قبل انتهاء أشغال المؤتمر بشهرين، يحثه فيها على ضرورة اعادة العلاقات مع الجزائر باعتبارها أهم دولة في شمـــال إفريقيـــا، نظـــرا لامتلاكها في نظره لأكثر الوسائل فعالية لخلق المشاكل لفرنسا، وقد رأى صاحب الرسالة أن الخطوة الأولى في هذا المسعى تتمثل في تنبيه الجزائر الى الخطر والتآمر الذي يحبك ضـــدها في مؤتمر فيينا على أن هذا التوجه لم يتغير باختفاء نابليون من مسرح الأحداث ومجيء حكومـــة لويس الثامن عشر (Louis XVIII) (1775-1825) فقد أبدى ساستها، وعلى إثـــر اطلاعهم على الحديث الذي جرى بين كاستليريث وبرنستورف، الرغبة في تحسين العلاقات مع الجزائر وابرام معاهدة سلم وصداقة معها حتى لا تستغل انكلترا سوء العلاقات لفائـــدتها. فقامت حكومة لويس الثامن عشر بتعيين قنصل جديد بالجزائر ، وهو بيار دوفال (Pierre Deval) في أوت 1815 وأكدت للداي الجزائري نيتها في تصفية الديون المترتبة عليها.

كما قدم القنصل الجديد هدايا ثمينة الى الداي **(34)** وبذلك سلمت فرنسا باجراء لا طالما رفضته وحاولت التخلص منه، بل ونددت به في كل المناسبات. وهذا ما جعل الموقـــف الفرنسي نابعا من مصالحها وليس تعبيرا عن مبدأ.

هذا من الناحية الدبلوماسية التي تعبر عن الموقف الرسمي لفرنسا ومن ناحية أخرى فان الأفكار التي طرحت في مؤتمر فيينا وعلى رأسها أفكار سدناي سميث والمتعلقة بالجزائر ، قد وجدت في فرنسا أرضا خصبة لظهور كتابات استعمارية جديدة داعية لتحطيم الجزائر واحتلالها، ففي 22 أكتوبر 1815 قدم دومانكو دي باديا (Domingo de Badia) (bis34) مذكرة الى وزير الخارجية الفرنسية تحت عنوان " مذكرة حول احتلال إفريقيا' (Mémoire sur la colonisation de l'Afrique) طرح فيها بعض الأفكار الاستعمارية أهمها :

1-أن افريقيا مستعمرة طبيعية لأوروبا.

2- أن المستعمرات الإفريقية أفضل من المستعمرات الأمريكية لفرنسا، فهي أقرب لفرنسا، مما يسهل لها المهام السياسية والتجارية والحربية في هذه الأقاليم.

3- ان افريقيا من الأقاليم الخصبة، بإمكانها انتاج كل ما ينتج في أمريكا وآسيا.

4- أن إفريقيا ستكون مصدرًا لجلب العبيد. (35)

هذا و لم يكن دومانكو دي باديا المتأثر الوحيد بأفكار سدناي سميث وباقي الأفكار المطروحة في مؤتمر فيينا، بل عرفت الساحة الفرنسية عدة كتاب ومفكرين ذوي النزعة الاستعمارية، مثل شاتوبريان (Chateaubriand) (bis35) الذي صرح في 4 أفريل 1816 بأفكاره المطالبة "بحقوق الانسان" والداعية الى "محو عار أوروبا". ومن خلال فكر عنصري وميول صليبية رأى شتوبريان أنه من واجب فرنسا الانتقام للعالم الأوروبي-المسيحي من تعديات إيالات شمال إفريقيا. ولفرنسا الدور التاريخي في ذلك لأنه من أرضها انطلقت أولى الحملات الصليبية . وهذا ما يجعلها أيضا تقوم بمهمة تنفيذ آخر الحملات الموجهة للانتقام من المعتدين (36) . على أن الظروف بعد ذلك غيرت من موقف شتوبريان وجعلته لا يتحمس لشن حملة على سواحل إيالات شمال افريقيا ، وإنما فضل استعمال الطرق الدبلوماسية وهذا ما جعله يطلب من حكومة لويس الثامن عشر أن تقترح على الدول الأوروبية، فتح محادثات جماعية مع إيالات شمال إفريقيا (**37**)لفرض شروطها.

كما تأثر ريشوليو (Richelieu) (bis37)بالأفكار المضادة للجزائر وصار من أكبر أنصار الأفكار الداعية الى حملة صليبة انطلاقا من فرنسا على الجزائر.

ومما يلاحظ **أن** البحارة والتجار بمدينة مرسيليا (Marseille) انضموا الى الركب بـــل وأصبحوا من أكبر المتحمسين لأفكار سدناي سميث، وقد عبر البعض منهم عـــن آرائـــه في مناشير. **(38)**

من هنا يمكن القول أن أفكار سدناي سميث الداعية لحلف أوروبي ، قد وجدت رواجا كبيرا لدى الدول الأوروبية و فتحت لها المجال للتفكير مليا في الأساليب الناجعة للقضـــاء على ما أسموه بقراصنة شمال افريقيا والجزائر في طليعتهم، كما أدت إلى اتفاق الدول الأوروبية حول هدف واحد وإن ظهر اختلاف في كيفية الوصول إليه. كما أن دفاع الأوروبيين عـــن القيم الانسانية ومحاربتهم لاسترقاق السود والبيض المسيحيين خاصة ما هو إلا مطية تظاهروا بها للتدخل في شؤون إيالات شمال افريقيا عامة والجزائر خاصة ، لأنها أسهل الطرق وأيسرها للوصول الى هدفهم المنشود وهو احتلال الجزائر.

وقد تجسدت أفكار الأميرال الإنكليزي سدناي سميث علـــى أرض الواقـــع في الحملـــة الإنكليزية على الجزائر عام 1816 وكذا حين تكاثفت الجهود الأوروبية وأرسلت الى الجزائر أسطولا.

- الهوامش:

---

1 وهي الجزائر وتونس وطرابلس.

2 ولد سدناي سميث بلندن في 21 جوان 1764و ترعرع في وسط عائلة عسكرية اذ كان والده ضابطا في الحرس الملكي البريطاني درس في مدرسة تونبرج (Tonbridge School) إلى غاية 1772، ثم انخرط في صفوف البحرية البريطانية عام 1777 وعمره لا يتجاوز 13 سنة. وتوفي بباريس في 26 ماي 1840 انظر عن سدناي سميث :

Plantet, E., Les consuls de France à Alger avant la conquête, 1579-1830, Extraits des Etudes, Paris, 1930, pp. 57-59;

Ziesseniss. Ch.O., Le Congrès de Vienne et l'Europe des Princes, P. Belfond, Paris, 1984, p. 141.

3هو تنظيم ديني مسيحي-كاثوليكي ظهر خلال القرن الحادي عشر باسم فرسان القديس يوحنا للقدس, بعد طرده من القدس استقر أولا بقبرص ثم انتقل الى جزيرة رودس و أخيرا استقر بمالطا. ويعرف هذا التنظيم الديني المسيحي أيضا باسم فرسان رودس(Les Chevaliers de Rhodes) و فرسان مالطا (Les Chevaliers de Malte) انظر عن هذا التنظيم:

Monin. H., "Ordre de Saint-Jean", *La Grande Encyclopédie*, T. 29, 1885-1902, p. 182; Serrou. R., L'Ordre de Malte, Editions Guy Victor, 1963;

Vatin.N., L'Ordre de Saint-Jean de Jérusalem, l'Empire ottoman et la Méditerranée orientale entre les deux sieges de Rhodes, Peteers, Louvrain-Paris, 1994.

4 يبدأ هذا الحلف عمله بحصار كل القوات البحرية لايالات شمال إفريقيا أينما وجدت.

5علما أن الدول الأوروبية قد اعتادت الضغط على الدولة العثمانية لكي تتدخل لدى ايالات شمال افريقيا لحماية مصالحها مثلما فعلت في مؤتمر كوچو ك قاينارجي. أنظر :

محمد فريد المحامي, تاريخ الدولة العلية العثمانية , تحقيق د. احسان حقي, دار النفائس , بيروت ,1981.

6 أنظر مذكرة سدناي سميث في:

Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Quai d'Orsay, France, Mémoires et documents, Afrique, 1577-1830, T. 5, « Mémoire sur la nécessité et les moyens de faire cesser les pirateries des États Barbaresques », Londres, 31 Août 1814, pp. 237-238 ;

Testa Baron de., Recueil des traités de la Porte Ottomane avec les puissances étrangères, Amyot, Paris, 1864, T.I, pp. 410-413.

7Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Quai d'Orsay, France, Mémoires et documents, Afrique 1577-1830, T.5, « Extrait d'une lettre d'un correspondant confidentiel de Sir Sidney Smith, influent le divan à Constantinople, et l'engageant, d'après sa suggestion et son indication de devancer le désir des puissances tendant à mettre fin aux Pirateries des Barbaresque, avant qu'il n'y soit pressé officiellement ». Daté le 11-24 décembre 1814, p. 234.

8أنظر على سبيل المثال الرسائل التي بعثها السلطان الى إيالات شمال إفريقيا :

Başbakanlık Devlet Arşivleri, Türkiye, Cevdet Hariciye, 9895 ; 7790.

9 حاول السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839) تطبيق الإصلاحات وتحدي المعارضين له من انكشارية ورجال الدين وعلى رأسهم شيخ الإسلام. وقد نجح الى حد ما في تطبيق إصلاحاته وأعطى نفسا جديدا للدولة العثمانية. أنظر :

Zahra. Z., "Sultan II. Mahmud'un (1808-1839) reformları", *Yeni Türkiye*, Cilt. 7, 1999, pp. 250-257;

الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، إشراف أكمل الدين إحسان اوغلي، نقله الى العربية صالح سعداوي، استانبول، 1999.

10بدأت المسألة الشرقية عام 1774 بإمضاء معاهدة كوچوك قاينارجي التي أعطت الى روسيا امتيازات سياسية وتجارية هامة على حساب الدولة العثمانية. أنظر:

Driault. E., La question d'Orient : depuis ses origines jusqu'à nos jours, F. Alcan, Paris, 1900.

10bisتولى الداي الحاج علي باشا منصب خوجة الخيل في عهد الداي علي، يقال أنه من أصل عربين من الشام وأنه من سلالة الأشراف. أنظر:

أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980 ص 105،

Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, publiée par A. Devoulx, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1852, p. 30 ;

Plantet. E., Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France, T. 2, Ed., Bouslama, Tunis, 1988, p. 517.
10ter Başbakanlık Devlet Arşivleri,Türkiye, Hatti Hümayun, 44477.
10x Ibidem.
10w Başbakanlık Devlet Arşivleri,Türkiye, Hatti Hümayun, 44515. A.

11 هو جول اوغست فرمو ماري دي بولينياك (Jules Auguste Armand Marie de Polignac) سياسي فرنسي تقلد عدة مناصب منها رئيس وزراء وسفير بلندن ووزير خارجية فرنسا عام 1829 ويعد بولينيلك من أكبر المتحمسين لإحتلال الجزائر عام 1830.

12كانت الدول الأوروبية وهي إنكلترا وروسيا وبروسيا والسويد والنمسا قد شكلت التحالف الأوروبي الرابع لضرب نابليون (Napoléon) وإجباره على التنازل عن غزوه للأراضي الألمانية البولندية. وقد تمكنت الدول المتحالفة من هزم نابليون عند لبزق (Leipzig) وغزو فرنسا، وفي 31 مارس 1814 سلمت باريس للقيصر الاسكندر الأول وفريدريك وليام ملك بروسيا. فتحطم بذلك حلم نابليون الذي نفي إلى جزيرة ألب (Elbe) أما مصير فرنسا فقد تقرر في معاهدة باريس ماي 1814 وتولى حكمها الملك لويس الثامن عشر (Louis XVIII).

13 Charles-Roux. Fr., France et Afrique du Nord avant 1830. Collection du centenaire de l'Algérie, F. Alcan, Paris, 1932, p. 501.
14 Ibid., p. 502.
15 Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, p. 4705.
16 Brion.N., La vie quotidienne à Vienne à l'époque de Mozart et de Shubert, Hachette, Paris, 1900, p. 229.
17 Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, p. 4705.
18 Ibidem;
Brion.M., Op.cit., p. 229.
19 Nicolson. H., Le Congrés de Vienne, histoire d'une coalition, 1812-1822, traduit de l'anglais par C. de Palaminy, Hachette, Paris, 1947, p. 138;
Brion.M., Op.cit., p. 223.

20 وهم وفد من يهود ألمانيا الذين مثلهم وفد من فرانكفورت ووفد من كاثوليك ألمانيا. أنظر :
Brion.M., Op.cit., p. 223 ;
Nicolson. H., Op.cit., p. 138.

21 وهو تنظيم فرسان القديس يوحنا. أنظر
Brion.M., Op.cit., p. 223.

22 بعض دور النشر الألمانية. أنظر :
Ibidem.
23 Traz.R., De l'alliance des rois à la ligue des peuples, Sainte Alliance et S.D.N., Grasset, Paris, 1936, p. 37.
24 Le Congrés de Vienne et l'Europe, Bruxelles Brepols, Paris, 1864, p. 65;
Lloyd. Ch., The navy and the slave trade Longmans, Creen and Co, London, New-York, Toronto, 1949, p. 43.

25 الى جانب هذا تمكن سدناي سميث خلال المؤتمر من جمع مبلغ مالي معتبر كان الهدف منه هو شراء سراج للقدس , ثم حول فيمل بعد هذا المبلغ الى فدية الأسرى الأوروبيين المتواجدين بايالات شمال افريقيا. أنظر :

Ziesseniss. Ch.O., Op.cit., pp. 141-142.

26 أنظر المذكرة المقدمة من قبل فرسان القديس يوحنا في :

Testa Baron de., Op.cit., pp. 414-420.
27 Weil. Cd., Les dessous du Congrès de Vienne d'après les documents originaux des archives du Ministère Impérial et Royale de l'Intérieur à Vienne, Payot, Paris, 1917, p. 499.

28 كان للانكليز السيطرة الكاملة على هذا المؤتمر.أنظر :

Laponneraye. A., Histoire des rivalités et des luttes de la France et de l'Angleterre depuis le moyen âge jusqu'à nos jours, Coquenard, Paris, 1848, p. 407 ;
Pirenne .J. H., La Sainte Alliance. Organisation européenne de la paix mondiale. Les traités de paix (1814-1815), Imp. La Tribune de Genève, Neuchatel, 1946, p. 181.
29 Archives Parlementaires, 2 ème série, T. 16, p. 22.
30 Charles-Roux. Fr., Op.cit., p. 505.
31 Ibidem.
32 Ibid., p. 506.

bis32 عن حملة اللورد اكسموث أنظر:

Salame. A., A narative of the expedition to Algiers in the year 1816 under the command of amiral lord viscount Exmouth Bey, J. Murray, London, 1819 ;
Playfair. R. L., The scoutge of christendom. Annals of British relations with Algiers prior the Frensh conquest, Smith Elder, London, 1884 ;
زكية زهرة، التنافس الفرنسي الإنكليزي على الجزائر وموقف الباب العالي منه (1792-1830)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1996-1997.

33 bis فر نابليون من جزيرة ألب ، في 26 فيفري 1815، ووصل الى باريس في 21 مارس من نفس السنة، ولما سمع المؤتمرون الخبر أعادوا الحلف ضده وهزموه في معركة واترلو (Waterloo) في 18 جوان 1815.

33 terأنظر نص الرسالة في :

Plantet. E., Correspondance…, pp. 533-534.
34 Ibid., p. 540 ;
Charles-Roux. Fr., Op.cit., pp. 505-506 ;
Masson. P., « A la veille d'une conquête. Concessions et Compagnie d'Afrique (1800-1830) », *Bulletin de Géographie Historique et Descriptive*, 1908, pp. 48-124.

34 (bis) وهو اسباني الأصل، يعرف كذلك اسم علي باي العباسي، وهو جاسوس لكنه كان يعمل لصالح فرنسا. أنظر عنه :

Travels of Ali Bey in Moroco, Tripoli, Cyprus, Egypt, arabia, Syria and Turkey, between the years
35 Charles-Roux. Fr., Op.cit., p. 507. 1803 and 1807, writen by himself and illustrated by maps and numerous plates, Longman, London, 1816 (2 vols) ;
Castries. Ct. F. de., « La fin d'un roman d'aventure. Les dernières années d'Ali Bey El-Abassy », *Revue des Deux Mondes*, n° 53, 1909, pp. 160-181.

35 bis) شاتوبريا ، فرونسوا روني فيكونت دي (Chateaubriand François René vicomte de.,
(1768-1848)، هو سياسي وكاتب ومفكر فرنسي ، عرف بمؤلفاته خاصة (Mémoires d'outre-tombe) . أنظر:

Benoît. Ch., Chateaubriand, sa vie et ses œuvres, études littéraire et morale, Didier, Paris, 1865 ;
Clément. J.P., Chateaubriand, Gallimard, 2012.
36 Charles-Roux. Fr., Op.cit., p. 510 ;
Plantet.E., Les consuls …, p. 58.
37 Charles-Roux. FR., Op. cit ., p. 510.

37 هو أرماند امانوال صوفي سابتماني ريشوليو (Armand-Emmanuel-Sophie Septimanie Richelieu))(1766-1822)، سياسي فرنسي، تولى مهام رئيس الوزارة مع مهام وزير الشؤون الخارجية عام 1815، استقال عام 1818 ثم عاد الى السياسة ليقدم إستقالته عام 1821.

38Charles-Roux.fr., Op.cit., p. 510.

وثيقة أرشيفية بابويـة متعلقة بتعميد الأسرى المسلمين

(قراءة تاريخية)

د/ إبراهيم سعيود

قسم التاريخ – جامعة الجزائر2

توطئـــــة

إن الفكر البشري يترع دوما إلى معرفة الحقائق، ويبذل جهودا كبيرة لرفع الستائر التي تخفيها عن الأبصار، وكشف الحقائق التي تكتنفها من جميع الجهات. فلا نغالي إذا قلنا أن تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان إنما هي بمثابة تأريخ وقصص للجهود التي بذلها الفكر البشري في سبيل اكتشاف الحقائق على هذا المنوال.

إن علم التأريخ أو "التدوين التاريخي" الذي سمّي في الحضارة الغربية "الإستوريوغرافيا" قد ظهر في أوروبا خلال القرن السابع عشر، وذلك نتيجة للصراع الديني، ما سمح بانتقال الوسائل الثقافية والمعارف والأفكار بين الشعوب الأوروبية، وأدّى كلّ ذلك إلى وجود نوع من التعارض أو التصادم بين أفكار المجتمع المدني، وأفكار المجتمع الكنسي، فاتّجه المؤرخون للبحث عن الحقائق من مصادرها، وفي المقام الأول الوثائق[1].

يقر مارك بلوك[2] بأهمية "الوثائق"، وبأهمية التحقيق والتبحّر بمعطياتها ومفرداتها وجزئياتها، متبنيّا أطروحات المدرسة الدوركهايمية، ويقول في هذا الصدد: "لقد علّمنا دوركهايم أن نحلل الوثـــائق بمزيد من العمق، وأن نعصر المسائل عصرا..."[3] (A serrer de plus près les problèmes)

والحقيقة أن البحث التاريخي يحتاج دوما إلى مصادر جيّدة و موثوقة تكون عونا للباحث لإيجاد المعلومات التي تساعده على اكتشاف الحقائق. كذلك يحتاج الباحث إلى معرفة كيفية استعمال المصادر والوثائق، وهذا أمر قد يبدو للبعض سهلا وهيّنا، إلا أنه في الواقع ذي أهمية كبرى لمن يتصدى لهذا الأمر.

وخلال رحلاتي المتكررة إلى إيطاليا، أمضيت وقتا طويلا في مختلف المراكز الأرشيفية، وأخص بالذكر أرشيف دولة روما وأرشيف الفاتيكان، وأرشيف ليفورن، وأرشيف الفيكارياتو.

ومن بين الوثائق التي لفتت انتباهي، وثيقة أصدرها البابا باولو فرناز في الثامن من شهر نوفمبر من عام 1548[4]. ويتعلق موضوع هذه الوثيقة بتنصير أو تعميد الأسرى المسلمين، كما شمل القرار الأسرى اليهود، وقبل الخوض في مضمون ومحتوى هذه الوثيقة، أعرّف بالبابا، وكذلك بمسألة التعميد.

ولد البابا بول الثالث في روما سنة 1468م، تمّ تعيينه على رأس الكنيسة البابوية في الفاتيكان في 03 نوفمبر 1534م، حتى وفاته في 10 نوفمبر 1549م، وأبرز ما قام به بول الثالث هو تأسيس بيت لتعميد الأسرى المسلمين واليهود[5].

التعميد لغة واصطلاحا:

اشتقّت كلمة تعميد من اللغة الإغريقية، وأصل الكلمة (Baptismo) وتعني التطهير المقدّس، والذي بواسطته تغتفر الخطايا والذنوب التي اقترفها المعمّد الجديد (Neofiti) في ما مضى من عمره، وأمّا الذنوب المقترفة بعد التعميد، فتغتفر عن طريق الاعترافات التي يدلي بها صاحبها أمام القس، وتتمّ داخل الكنيسة، وتسمى باللاتينية (Confesione)[6].

واتخذ التعميد أشكالا مختلفة، نتيجة لاختلاف العقائد والمذاهب المسيحية، ويتمّ إما بواسطة رش رأس المعمّد بقليل من الماء، أو بغطسه كاملا في الماء، ويسود الاعتقاد عند المسيحيين، أنّ التعميد يعني مشاركة المسيح في حياته، وموته، وبعثه، لأن المسيح بحسب اعتقادهم قد تلقّى التعميد وقام بتعميّد نفسه[7].

وتذكر الدراسات الكاثوليكية، أنّ التعميد يعني التطّهر من الخطايا، والالتزام أمام المسيح بالعهد الإيماني، وبالتالي فإن التعميد يعني قبول المسيح المبدئي التضامن روحيا مع المعمّدين. أو الالتحام الرّوحي بين المعمّد والمسيح، والإقرار بالإيمان وقبوله عقلا وعاطفة.

وتتبع عملية التعميد تصريحا شفويا، يرتّله القائم على التعميد، أو العرّاف للدلالة على القبول وذلك حسب النص اللاتيني:

« Sacramentum novae legis, quo homines spiritualiter regenerantur per ablotinem aque, cum expressa sanctisimae trinitatise in vocatione »[8]

بيت التعميد تأسيسها وإدارتها:

أنشئ بيت التنصير أو "التعميد" كما ورد في الوثائق التاريخية البابويـــة الفاتيكانية، في الثامن من شهر نوفمبر عام 1548 للميلاد بغرض تنصير أو تعميد الأسرى المسلمين واليهود، ولإضفاء الشرعية الدينية والقانونية، أصدر البابا باولو فارنيز المعروف باسم "بول الثالث" براءة بابـــوية، وهي الوثيقة موضوع مقالتنا هذه[9].

نشرت هذه الوثيقة أو القرار في سجلّ القرارات البابـــوية، بتاريـــخ 12 يناير 1549، كما دخل حيّز التطبيق في نفس التاريخ، بعدما تمّ إبلاغ محافظي مدينة روما بهذا القرار، كلّفوا بنشره وتنفيذه على أوسع نطاق، ليشمل المناطق المجاورة لروما في بادئ الأمر، ثمّ امتد بعد ذلك ليشمل باقي الدويلات الإيطالية[10].

تولى إدارة بيت التنصير مدير، برتبة كاردينال، وهذا إن دلّ على شئ، فإنّما يدلّ على مدى أهمّية هذه المؤسسة من الناحية الدينية والمؤسساتية، باعتبارها تابعة بصفة مباشرة لإدارة الفاتيكان، كما أنّ البابا هو نفسه من يتولى تعيين هؤلاء المديرين.

ومنذ سنة 1771م أصبح يدير بيت التعميد، ثلاثة مديرين، برتبة كاردينال، يمثلون السلطة القضائية في هذه المؤسسة، إضافة إلى مدير رابع برتبة كاردينال أيضا سمّي عميد بيت التعميد.

تولى إدارة بيت التعميد الكاردينال جوجلييمو سيرليتو[11](Gugliemo Sirleto) وذلك إلى غاية 1585، ثمّ تولاها من بعده الكاردينال كارلو إيمانويللي (Carlo Emmanuelle) إلى بداية القرن السابع عشر، أي إلى غاية 1604، خلفه على رأس إدارة البيت ســـنة 1604 الكاردينال بيو دي سافويا (Pio di Savoia)لسنة واحدة، ثمّ خلفه الكاردينال جيرولامو فيرالو (Girolamo Verallo) حتى سنة 1608م، تولاها من بعده الكاردينـــال ســـيبيون بورقيزي كافاريللي حتى وفاته سنة 1633م، تولى إدارة البيت من بعده الكاردينال أنطونيـــو باربريني (Antonio Barberini) وقد استمرّ في هذا المنصب حتى عـــام 1668م، خلفـــه الكاردينال بينيديتو أوديسكالشـــي (Benedetto Odescalchi) حـــتى ســـنة 1676م[12]، وبالرغم من انتخاب أودسكالشي على رأس الكنيسة البابوية، إلا أنّه احتفظ بمنصبه على رأس بيت التعميد، فعيّن نائبا له (Vices Gerentes) وهو لوديفيكـــو زيللـــوني (Ludivico

(Zelone إلى غاية 1685م، ثمّ خلفه في النيابة جيوسيبي دي بونانيا (Giuseppe di Bonania) من سنة 1685 إلى غاية 1690م.

وبعد وفاة البابا بينيديتو إينوشيتزو، تولى إدارة بيت التعميد من بعده، الكاردينال فولفيو أستالي (Fulivio Asstali) حيث استمرّ على رأس إدارة بيت التعميد لثلاثين سنة، أي إلى سنة 1721م، وفي سنة 1721م عيّن البابا كليمونت الحادي عشر[13] الكاردينال بييترو مارشيللينو كورادييني (Pietro Marcellino Coradini) لإدارة بيت التعميد واستمرّ كورادييني في منصبه حتى وفاته سنة 1743م.

بعد وفاة كورادييني سنة 1743م، تسلّم الكاردينال ألسندرو ألباني(Alessandro Albani) واستمرّ في هذا المنصب حتى وفاته سنة 1771م، خلفه بعد ذلك ثلاثة كرادلة هم جيوفاني أرشينتو (Giovanni Archinto) وفرانشيسكو زيلادا (Francesco Zelada) وفرانشيسكو قرافا (Francesco Graffa) واستمر الثلاثة على رأس إدارة بيت التعميد حتى سنة 1798، وهو التاريخ الذي توقفت فيه نشاطات البيت، ثمّ أعيد بعثها من جديد سنة 1802[14].

الوثيقة البابوية: الشكل والمضمون.

الوثيقة المعروضة أمامكم عبارة عن براءة، لأنها صادرة من أعلى هيئة بابوية، أي من شخص البابا نفسه، وهو باولو فارنيز، تتضمن قرارا للتنفيذ.

صنّفت هذه الوثيقة ضمن مجموعة أرشيفية سمّيت **"قرارات Bandi"** محفوظة بمركز أرشيف دولة روما، المتواجد في شارع النهضة بروما[15].

ورد القرار البابوي في صفحة واحدة فقط، من 17 سطر، إضافة إلى العنوان في الأعلى، وذكر اسم البابا والتاريخ في أسفل الوثيقة.

كتبت الوثيقة بلغة، هي عبارة عن مزيج من اللغة الإيطالية، لغة القرن السادس عشر، وكذلك بعض المفردات من اللغة اللاتينية القديمة.

دونت بالحبر الأسود، بآلة الطبع المعروفة آنذاك " **ستامبا Stampa** ".

يوجد في أعلى الوثيقة على الجهة اليمنى رمز وشعار السلطة البابوية، وإلى اليسار منه رمز وشعار دولة روما، لأن البراءة موجهة لمحافظي دولة روما.

ارتبطت هذه الوثيقة بوثائق التنصير المتواجدة بمركز أرشيف الفيكارياتو[16] التابع لبيت التعميد المتواجد هو الأخر بمدينة روما.

عنوان الوثيقة ورد كما يلي: Bando Sopra al tener de li Schiavi, & Schiave in Roma إذا وبمقتضى هذا القرار تحوّل وضع الأسرى من أسرى يمكن مفاداتهم، إلى عبيد يطبّق عليهم قانون العبودية Schiavi, & Schiave محددا بأنه يشمل العبيد من الجنسين، الإناث والذكور وبالتالي فقد فقد هؤلاء حريتهم وبشكل قطعي لا رجعة فيه وذلك بمقتضى هذا القرار.

أصدر البابا باولو فرنيز قرارا شخصيا (Motu Proprio) بتاريخ الثامن نوفمبر من سنة 1548، تمّ تحويله إلى محافظي روما الذين نشروه بدورهم بتاريخ 12 جانفي 1549م تحت عنوان: « Bando sopra al tener de li Schiavi & Schiave in Roma » ورسّم هذا القرار كما ورد في نص الوثيقة ما يلي:

« H Avendo la Santità di. N.S. Signor Paulo per la divina providenza Papa Terzo, per sua benegnità & clemitià per "publico utile" »

ويتعلق الأمر بحسب القرار البابوي بأولئك الأسرى الذين تمّ تعميدهم وحولوا للعمل على متن السفن البابوية " **أملاك عامة** publico utile "[17] لأن البحرية البابوية أصبحت في أمس الحاجة للمجدفين، وقد عرف هؤلاء باسم " **أسرى السفن البابويـــة** "[18]، نضيف إلى ذلك حالة عدم الاستقرار التي ميّزت البحر المتوسط منذ منتصف القرن السادس عشر، وتطور البحرية التجارية والعسكرية، إضافة إلى التنافس، وظهور بؤر للتوتر هنا وهناك، كما أدى ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث في الجزء الغربي من البحر المتوسط، إلى وجود حالة من الاستنفار لدى الدول المسيحية المتوسطية، ويجدر بنا أيضا أن نشير إلى دور جنوة في احتدام الصراع في البحر المتوسط بعد القضاء على مراكزها التجارية في الشرق الأدنى، وكانت جنوة تتمتع بحضوة كبيرة ومكانة متميّزة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث كانت تربطها مع بلاد المغرب معاهدات واتفاقيات مكّنتها من ممارسة التجارة البحرية، وعندما تطلّع البرتغاليون إلى السيطرة على الطرق التجارية تمهيدا لاحتكارها، كما لجأ البرتغاليون إلى استخدام القوة حيث قاموا بتوجيه حملات عسكرية على مراكز جنوة التجارية في المغرب الأقصى، مثلما حدث بين عامي 1514 و 1517م[19] .

ونتيجة لتلك الأسباب، رأى الجنويز أنفسهم مضطرين إلى الارتماء في أحضان إسبانيا بقصد الحماية مما أتاح لهم فرصة ممارسة القرصنة، فضلا عن استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي لبسط سيطرتها على بلاد المغرب.

ومن الراجح أن الجنويز انتهزوا فرصة استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي، وذلك بتقديم كل العون والمساعدة كي يضمنوا لأنفسهم الاستمرار في تحقيق المكاسب من جراء ممارسة القرصنة[20].

لدينا، بعد ذلك أيضا، الفئة الثانية من الأسرى العبيد، وهم " **أملاك الخاصة أو الخواص** Bene de tutte & singule persone " ونعني بهم عبيد العائلات والأفراد، وتتألف هذه الفئة من الذكور والإناث، من مختلف الأعمار، فالأطفال والبنات يحوّلون غالبا إلى مدرسة المعمّدين « Collegio dei Neofiti » .

ولدينا بعد ذلك الفئة المتمثلة، في ما عرف بفئة رقيق المنازل والبيوت الكبيرة، حيث ينتهي بهم المطاف في الخدمة الداخلية في البيوت الميسورة، حيث كان شائعا في هذه الأوساط اقتناء الخدم القادمين من إفريقيا الشمالية، والمشرق الإسلامي، ورغم كونه أقل خطورة على الحياة من التجديف على متن السفن، إلا أنّ الاسترقاق الداخلي قد يسفر أيضا على بعض المواقف الخطرة.

والجدير بالذكر أن النساء الأسيرات المسلمات الخادمات في المنازل، لم يسلمن من التعذيب وسوء المعاملة، حتى بعد إجبارهن على اعتناق المسيحية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما حدث ل: كسيبيكا كاتارينا، وهي أسيرة من بربريا أي شمال إفريقيا، والتي أرغمت على التحول إلى المسيحية، فقد نظرت إلى البحر وفي قلبها حسرة، وألم فبكت بكاء المهموم وقالت: **"يا محمد أي ألم أحمله في قلبي"**[21].

كما تضمنت هذه الوثيقة، أن القرار البابوي موجه إضافة إلى محافظي روما، يشمل أيضا كل سكان هذه المدينة.

Habitante & esistere in quest'alma Citta di Roma concesso che si possano tener Schiavi & Schiave che si comperaranno per lo advenire, come per un Motu proprio diretto alli Magnifici Signori Conservatori & Popolo Romano per sua Santità fatto appare.

Per tato per parte & comissione de'prefati Signor conservatori se notifica & fassi intendere à tutte & singule persone in ditta Città habitate & esistente, qualmente quelli che haveranno coprato, o compraranno Schiavi e Schiave dopo la data del ditto Motu

proprio dato sotto il di Ottauo di Novébre del xIv iii, prossimo passato ; & sia leciro tener ditti Schiavi & Schiave senza essere impediti da persona alcuna, non obstante qualunche concessione fossi.

وعلاوة على ما سبق، فإن هذا القرار قد ألغى كل التدابير والنصوص القانونية السابقة والتي تمنع تطبيق وتنفيذ هذا القرار، الذي ستطبق بنوده على « **Fatto, O da farsi,** » الأسرى العبيد الذين تمّ شراؤهم قبل صدور هذه البراءة، ويشمل أيضا أولئك الذين سيتمّ شراؤهم مستقبلا.

alle quale espressamente per il ditto Mottu proprio se derogano, & per il presente bandimento se intendano derogate & annullate. Dat. In Palatio, rum Dnorum Conservatorum. Die xii Iannuary M.D. XLIX.

Lucas Murianus

C. Conservat, Scriptor. De mandato

Io Pietro Santo ho fatto lo soprascritt Bando per Roma alli xiii. Di Genaro.

لقد وضع هذا القرار مسألة العبودية موضع التأكيد والتنفيذ في روما، وفي المناطق التابعة للكنيسة البابوية، وهذا منذ منتصف القرن السادس عشر.

ولا يزال أرشيف دولة روما يحتفظ بوثائق تتضمن قوائم بأسماء أسرى السفن البابوية، الذين تمّ تحويلهم إلى عبيد بمقتضى القرار البابوي، حيث نجد أن نسبة الأسرى المغاربة هي الأعلى مقارنة ببقية الأسرى المسلمين، ونورد في هذا الصدد جداول يعود تاريخها إلى سنة 1723م[22].

إسم الأسير	موطنه	إسم الأسير	موطنه
أحمد بن يوسف	تونس	أحمد بن علي وفاطمة	طرابلس
محمد بن ؟[23]	تونس	أحمد بن أحمد	تونس
أحمد بن أحمد	تطوان	أحمد بن علي	طرابلس
صالح بن أحمد	الجزائر	رمضان بن سالم	طرابلس
علي بن خليفة	تونس	علي بن أحمد	طرابلس
شعبان بن محمد	قسنطينة	محمد بن علي	الجزائر
عيسى بن محمد وفاطمة	بترت	عبد القادر بن أريل؟ والزهرة	سلا

قاسم بن محمد	بترت	أحمد بن علي والزهرة	مراكش
أحمد بن رمضان	الجزائر	محمد بن سايحة	الجزائر
يوسف بن أحمد وفاطمة	الجزائر	أحمد بن أحمد وسلمى	بترت
أحمد بن علي وفاطمة	قسنطينة	أحمد بن سالم	بترت
أحمد بن ؟	الجزائر	عبد الله بن علي	طرابلس
محمد بن أحمد	الجزائر	أحمد الشريف بن إبراهيم	الجزائر
أحمد بن محمد وعائشة	الجزائر	أحمد بن علي	الجزائر
سليمان بن حسان	الجزائر	أحمد بن علي	تونس
قارة علي بن أحمد	الجزائر	أحمد بن أحمد	الجزائر
أحمد بن بوناف وفاطمة	سلا	علي قابة	الجزائر
ناصر؟ بن أحمد	طرابلس	أحمد بن محمد وفاطمة	سلا
شريف؟ بن أحمد	طرابلس	أحمد أحمد بن علي	الجزائر
تيرو؟ بن أحمد	طرابلس	أحمد بن علي	الجزائر
إبراهيم بن صالح	طرابلس	أحمد بن سليمان	تونس
عبد الله بن أحمد وفاطمة	الجزائر	أحمد بن مسعود	الجزائر
علي بن أحمد ومريم	الجزائر	حسان بن أحمد وعاشورا	طرابلس
أحمد بن حسان	الجزائر	علي بن بشير ؟ و ؟	طرابلس
أحمد بن أحمد	مراكش	هلي ؟ بن علي وفاطمة	طرابلس

أحمد بن ؟	تونس	حسين بن محمد	طرابلس
عيسى بن أحمد ومسعودة	الجزائر	علي بن أحمد	تونس
ميلات أو ميلود بن إبراهيم	طرابلس	أحمد بن علي وفاطمة	الجزائر
حمد ؟ بن علي	الجزائر	محمد بن أحمد ومريم	الجزائر
علي بن مصطفى وعائشة	الجزائر	أحمد بن فريسيا ؟ وفاطمة	تونس
عبد الله بن علي	طرابلس	شيالا او صالح بن علي	الجزائر
أرجي ؟ بن مبروك	طرابلس	حسان بن يوسف وفاطمة	بجاية
علي بن أحمد وفاطمة	تونس	عمر بن السعيد	الجزائر
موسى بن أحمد وفاطمة	تطوان	أحمد بن محمد	مراكش
أحمد بن أحمد	طرابلس	أحمد بن محمد وفاطمة	الجزائر
حسان بن مصطفى وفاطمة	الجزائر	أحمد بن موسى	جربة
اسماعين بن يوسف	بربريا	السعيد بن احمد وعائشة	الجزائر
أحمد بن أحمد	بترت	حاجي علي بن أحمد	تونس
مصطفى بن أحمد	الجزائر	أحمد بن علي	الجزائر
أحمد بن إبراهيم	الجزائر	أحمد بن عبد الله ومريم	طرابلس
علي بن إبراهيم	مراكش	قاسم بن أحمد	سلا
أحمد بوشوشة	تونس	أحمد بن عمر	طرابلس

قارة علي بن أحمد	الجزائر	بلايتو؟ بن ؟	طرابلس
محمود بن أحمد	الجزائر	أحمد بن ساين ؟	تطوان
يوسف بن صقر أو صفر ؟	طرابلس	علي بن أحمد	بونة (عنابة)
عبد الله	طرابلس	سعيد بن يوسف	طرابلس
أحمد بن علي	بترت	حمد بن أحمد وفاطمة	تونس [24]

الأسرى العبيد أملاك الخزينة البابوية العامة[25]

عبد الرحمان ابن سليمان وفاطمة	تونس	قاره محمد بن علي حاجي	طرابلس
علي بن أحمد ورقية او حزية	الجزائر	أحمد بن أحمد	الجزائر
صالح بن علي وسعدة	تونس	عبد الله بن أحمد وفاطمة	تونس
عاشور بن محمد وفاطمة	الجزائر	محمد بن محمد وعيشوش	الجزائر
علي بن أحمد وعربية	الجزائر	أحمد بن إبراهيم	بترت
علي بن معمر و جزية	الجزائر	عبد الله بن إبراهيم	الجزائر
أحمد بن سالم وحليمة	طرابلس	محمد بن أحمد ومسعودة (**بحار** Marinari)	الجزائر
بن عيسى ؟ بن ماجيوت	طرابلس	أحمد بن قاسم (**رايس** Rais)	الجزائر
علي بن أحمد ومبروكة	طرابلس	حاج أحمد بن حاج محمد وفاطمة	بترت
أحمد بن سالم وفاطمة	الجزائر	محمد بن مومن وربيعة	قسنطينة
محمد بن أحمد وعائشة	الجزائر	سعيد بن علي ومباركة	بترت
محمد بن ؟ (**بحار** Marinari)	الجزائر	محمد بن شيور وفاطمة	تيطوان

عبد الله بن علي وفاطمة	سلا	إبراهيم بن عثمان و ؟	الجزائر
أحمد بن علي	الجزائر	محمد بن سليمان وفطيمة	الجزائر

رمضان بن أحمد	الجزائر	محمد بن عيسى وسلمى	طرابلس
قاسم بن عثمان وعائشة	قسنطينة	سليمان بن علي ومريم	الجزائر
عمر بن سماعين وسلطانة	قسنطينة	خليفة بن أحمد وسلينة	طرابلس
سالم بن علي وفاطمة	نابل	محمد بن أحمد ويمينة	قسنطينة
أحمد بن عمر وعائشة	تونس	محمد بن علي وصافية	تطوان
أحمد بن معمر وخديجة	تونس	أحمد بن حاج أحمد وعائشة	طرابلس
سالم بن موسى وفاطمة	تطوان	علي بن عبد الرحمان	تطوان
علي بن عبد الرحمان و ؟	الجزائر	أحمد بن منصور وفطيمة	بونة (عنابة)
حسان بن علي ومباركة	تونس	محمد بن عبد الله ومباركة	**زوارة أو زواوة**
عبد الله بن علي وفاطمة	طرابلس	محمد بن محمد وفاطمة	بجاية
أحمد بن علي و؟	طرابلس	محمد بن ساسي وفاطمة	الجزائر
رابح بن محمد ومبروكة	بونة (عنابة)	**حاج محمد بن مومن وعائشة**	مراكش
رايس أحمد	سلا	علي بن محمد ومباركة	بونة (عنابة)
علي بن عبد الله	طرابلس	أحمد بن علي وفاطمة	الجزائر
حاج احمد بن عبد الله	تطوان	؟	بجاية

حاج اعمر بن موسى	تونس	إبراهيم بن أحمد وفاطمة	بونة (عنابة)
أحمد حسان بن علي وفاطمة	تطوان	أحمد بن مبارك وعائشة ؟	مراكش
محمد بن سليمان و؟	طرابلس	محمد بن حسن و ؟	تطوان
محمود بن علي وعائشة	طرابلس	أحمد بن ؟ وعائشة	قسنطينة
عايس أو عيسى بن إبراهيم	طرابلس	؟ بن إبراهيم و ؟	بونة (عنابة)
علي بن قاسم و ؟	طرابلس	أحمد بن حاجي وفاطمة	بونة
حاجي رمضان بن شلين؟ ومريم	طرابلس	حسان بن أحمد وحليمة	بجاية
ساسي بن عبد القادر و ؟	طرابلس	موسى بن أحمد و؟	بجاية
محمد بن حاج محمد وعائشة	تطوان	مسعود بن أحمد وفطيمة	مراكش
ميلات أو مولود بن ؟	طرابلس	علي بن مصطفى وفاطمة	تونس
محمود بن محمد وعائشة	تونس	أحمد بن علي ومريم	الجزائر
علي بن سالم وفاطمة	طرابلس	خليل بن أحمد وعائشة	تونس
حاج محمد بن علي ورايمة	تطوان	علي بن أحمد وفاطمة	تونس
عربي بن سليمان وبروكة	بسكرة	محمد بن بن علي وعليشة	تونس
أحمد بن محمد وفاطمة	تطوان	حسين بن يوسف وفاطمة	تونس
يونس بن مومن والزهرة	طرابلس	رمضان بن محمد ومسعودة	الجزائر

صالح بن محمد وفطيمة	بجاية	محمد بن علي ومريم	الجزائر
أحمد بن محمد و ؟	تونس	إبراهيم بن محمد وصافية	تونس
محمد بن علي وفاطمة	الجزائر	محمد بن محمد و ؟	الجزائر
مصطفى بن يوسف وعائشة	تونس	حسان بن علي وعائشة	تونس
علي بن حميدو ومسعودة	تطوان	عبد الله بن عبد الله و ؟	طرابلس
أحمد بن ناصري وفاطمة	بونة	علي بن محمد و ؟	تونس
محمد بن أحمد و ؟	تونس	أحمد بن محمد وفطيمة	الجزائر
أحمد بن قاسم	بجاية	عبد الله بن محمد عيشوش أوعيشة	زواوة
قاسم بن علي وفطيمة	الجزائر	أحمد بن مباركة	قسنطينة
ارجب بن أحمد و ؟	طرابلس	**عبد الله بن سالم وخديسة أو خديجة**	طرابلس
عبد الرحمان بن أحمد وفطيمة	الجزائر	علي بن محمد وفاطمة	تونس
علي بن رمضان وجازية	سوسة	حسان بن سليمان وفاطمة	تونس
رمضان بن سعيد وعائشة	طرابلس	محمد بن ؟ و مبروكة	طرابلس
سعيد بن حسان وفطيمة	تطوان	حسين بن أحمد وعائشة	طرابلس
علي بن حسان وفطيمة	تونس	أحمد بن محمد و ؟	تونس
علي بن عمر وحليمة	طرابلس	علي بن عبد القادر وفطيمة	الجزائر
أحمد بن عطية ومريم	طرابلس	حاج أحمد بن علي	سلا

محمد بن أحمد ويامنة	الجزائر	؟ بن أحمد ومسعودة	زواوة[26]
سالم بن عمر وفاطمة	طرابلس	محمد بن عبد السلام	تطوان
عمر بن خموس وعزيزة	تونس	أحمد بن علي ومريم	بجاية
قاسم بن مسعود اسية	بترت	أحمد بلقاسم	تونس
علي بن أحمد وحليمة	بجاية	أحمد بن مصطفى	الجزائر
أحمد بن مصطفى وجازية	الجزائر	أحمد بن علي	الجزائر
أحمد بن مبارك وفطيمة	الجزائر	أحمد بن عبد الله	مراكش
حساين بن أحمد وفاطمة	طرابلس	علي بن عبد الله	تونس
علي بن أحمد وعائشة	بونة	سماعين بن حسن	الجزائر
أحمد بن قاسم ومرزوقة	الجولجي جيجل	عربي بن ابراهيم ومريم	أصيلا
بن حسون بن علال و ؟	تطوان	أحمد بن قاسم وفاطمة	**ترمسان أو تلمسان[27]**

قائمة الأسرى العبيد أملاك البابا إينوشنزو الثالث عشر[28]

ناي عمر بن إبراهيم	قسنطينة	عيسى بن أحمد	قسنطينة
امحمد بن يوسف	طرابلس	أحمد بن حسان	طرابلس
امحمد بن إيكامر ؟ بلنلشين	طرابلس	علي بن إبراهيم	الجزائر
علي بن محمد	الجزائر	طاهر بن يونس	تاس ؟ أو فاس
مبروك بن امحمد	بسكرة	أحمد بن عبد الله	طرابلس
أحمد بن حسان	طرابلس	خليل بن يوسف	طرابلس
عربي بن محمد	تطوان	محمد بن محمد	تلمسان
سليمان بن مصطفى	طرابلس	يوسف بن قادر (عبد القادر)	الجزائر
مصطفى بن عبد الرحمان التبيبي	تونس	علي بن محمد	قسنطينة

أحمد بن مصطفى	الجزائر	محمود بن سليمان	طرابلس
أحمد بن حسين	طرابلس	علي بن شيابا وعائشة	طرابلس
إبراهيم بن رمضان	طرابلس	محمد بن ؟ وسميسة (شميسة)	طرابلس
عبد السلام بن عبد الرحيم	تاجوراء	إبراهيم بن مصطفى ونفيسة	طرابلس
حمدان بن رمضان	طرابلس	علي بن مصطفى بوشينة	طرابلس
حاج أحمد بن بن أحمد وحليمة	طرابلس	سليمان بن عبد الرحمان و ؟	طرابلس
أحمد بن علي و فطيمة	الجزائر	أحمد بن ؟	طرابلس
رحمان (عبد الرحمان) بن شيابا ؟ ومريم	طرابلس	أحمد بن باش علي وفاطمة	طرابلس
محمد بن حاج محمد وفطيمة	طرابلس	محمد بن عيسى	طرابلس
محمد بن عمر وفاطمة	طرابلس	حسين بن أحمد وحليمة	طرابلس
أحمد بن سليمان وفطيمة	الجزائر	محمد بن مصطفى وفطيمة	بجاية
منصور بن أحمد وليلى	**تونس**	**أحمد بن محمد وفطيمة**	**الجزائر**
علي بن مصطفى وعائشة	**طرابلس**	**أحمد بن حسان والطيفة**	**طرابلس**
يوسف بن علي وفاطمة	**طرابلس**	**قاسم بن علي وحليمة**	**تطوان**
أحمد بن غيسن	**طرابلس**[29]		

المجموع الكلي لأسرى السفن البابوية حسب القوائم.

البلدان	الجزائر	طرابلس	تونس	مراكش	باقي المناطق الإسلامية	المجموع
عدد الأسرى	114	81	54	36	130	415
النسب المئوية	%27,46	%19,51	%13,01	%08,67	%31,32	%100

لقد أدّى تدفق الأســـرى المغاربـــة في دول الضفّة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط إلى وجود أسواق كثيرة، وأسواق الأسرى في أوربا المسيحية أكثر عددا منها في البلاد الإسلامية. وهذا يعود بطبيعة الحال إلى النشاط الكبير الذي عرفته تجارة الأسرى العبيد كما ورد في الوثائق والكتابات الأوربية. ولذلك تمّ تعميم القرار البابوي[30] على أسواق العبيد في أوربا وقد ورد في وثائق الأرشيف الإيطالية أن ازدهار تجارة الأسرى كعبيد أدى إلى اتساع الأسواق[31].

لقد كان المسلمون في أول الأمر أسرى، ثم خضعوا للرق على يد المسيحيين، وكانوا لا يشترون ولا يتبادل بهم، ولكن كانت هناك تجارة تقوم على البيع والشراء داخل العالم الأوربي بين الأوروبيين دون غيرهم[32].

كان الإقبال على المجدّفين بالفعل شديدا، ولا يمكن تلبية الطلب بصفة مرضية إلا بصعوبة، وكانت إدارة السفن تحصل عليهم إذن بشرائهم من إدارات حكومية أو من عند الخواص[33].

غالبا ما تعطي الوثائق معلومات عن إلقاء القبض على الأسرى لكن دون تحديد عددهم، كل هذا له قيمة بالنسبة لما يتعلق بالغنيمة المحققة على يد القراصنة لحسابهم الخاص والذين كانت قواعدهم في كاجلياري، وترابابي، ومسين، وليفورنو، وجنوة[34] .

سوق العبيد في ليفورنو:

بعد عملية الإصلاح السياسي والاقتصادي في عهد أسرة آل مديتشي، تحولت مدينة ليفورنو إلى سوق تجارية تضاهي في أهميتها سوق البندقية ومالطة.

كانت مدن ليفورنو ومسين وكذلك جنوة بمثابة المراكز الايطالية الأكثر ازدهارا. ففي مدينة ليفورنو كانت تتوقف السفن عند عودتها من غزوات القرصنة، فيبيع القراصنة ما فيها بما في ذلك العبيد[35]. واستقطبت هذه الأخيرة القراصنة الأوروبيين، فتحولت بذلك الى عاصمة للقرصنة، شأنها في ذلك شأن مالطة[36].

ومن أشهر أسواق الأسرى، سوق القورنه (ليفورنو) حيث وصل سعر الأسير الواحد فيها سنة 1674 إلى مائة وأربعة وخمسين بياستر،إلا أنه انخفض في السنة الموالية، أي في سنة 1675 إلى نحو مائة وثلاثين بياستر،لأن العرض فاق الطلب خلال هذه السنة[37].

وتزايد عدد الأسرى في ليفورنو خلال القرن السابع عشر بشكل رهيب وملفت للإنتباه،ففي شهر ماي من سنة 1681 استولت البحرية التوسكانية (**بحرية سان ستيفان**) على ثلاث سفن جزائرية، وأسرت واحدا وتسعين جزائريا كانوا على متنها، وفي سنة 1687 أسرت قوات هذه البحرية خمسمائة أسير جزائري، كما استولت على ثلاث سفن، وفي جويلية من نفس السنة أي 1687 استولت أيضا على سفينة جزائرية، وأسرت سبعين جزائريا كانوا على متنها بالقرب من المياه الإقليمية التوسكانية[38]. وذكر بروديل(BRAUDEL) أنّ الربع الأول من القرن السابع عشر قد شهد تدفقا لأزيد من عشرة آلاف أسير على ليفورنو وحدها[39]، وفي سنة 1623، وتخليدا لهذه الظاهرة أقام الدوق **فرديناند الأول** دوق توسكانيا تمثالا لأربعة أسرى مكبلين بالقيود الحديدية يتوسطهم الدوق نفسه،شاهرا سيفه،وأطلق عليه اسم **تمثال العرب الأربعة**[40].

ولا يزال هذا التمثال شاهدا على مأساة هؤلاء الأسرى إلى يومنا هذا،وقد ورد أن تمثال الأسرى الأربعة ،نحت من مادة البرونز التي كانت في الأصل تشكّل مجموعة مدافع جزائرية استولت عليها البحرية التوسكانية.

سوق صقلية:

وتأتي بعد ليفورنو صقلية التي ساعدها موقعها الجغرافي في البحر الأبيض المتوسط كمملكة مسيحية قريبة من المغرب الإسلامي، وقد وقفت هذه المملكة موقف المعادي إلى جانب اسبانيا ضد المغرب الإسلامي مما أدى إلى تزايد الصراع بين الهلال والصليب، وقد نتج عن ذلك وقوع عدد كبير من الأسرى المغاربة، وكان أكثرهم من الجزائريين[41]، ففي بداية القرن الثامن عشر قام بعض الحجاج الجزائريين والتونسيين باستئجار مركب فرنسي من ميناء

الإسكندرية وحملوا عليه سلعا للعودة به إلى الجزائر، فتمّ أسرهم في الطريق من طرف قرصان ألماني، فسلب ممتلكاتهم ثم ألقي بهم في جزيرة صقلية ليصبحوا أسرى. ففي جنوب إيطاليا استمرت ممارسات استعباد الأسرى حتى نهاية القرن الثامن عشر[42]، وأحيانا حتى بعد عام 1800. ومما يجب الإقرار به أن عدد الأشخاص الذين عانوا من ذلك المصير خلال بعد منتصف القرن الثامن عشر كانوا أقل من تلك الأعداد في القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث كان هناك عشرات الآلاف من الأسرى المسلمين عبيدا في مقاطعات إيطالية مختلفة وبخاصة في جزيرة صقلية[43].

سوق روما:

وأمّا روما مقر البابوية فقد شهدت هي الأخرى أعدادا هائلة من الأسرى، وخاصة من الجزائريين، وكان أغلب الأسرى المغاربة يوجهون من روما إلى شيفيتافيكيا حيث بلغت نسبة أسرى السفن البابوية منهم أكثر من ثلثي النسبة الكلّية للأسرى المسلمين من خارج منطقة المغرب الإسلامي[44].

سوق البندقية:

وبالنسبة للبندقية، فقد ظهرت فيها أسواق الأسرى العبيد بشكل مكثّف منذ مطلع القرن السابع عشر، فقد ذكر **سينيلاي** في رسالته[45] إلى القنصل الفرنسي في البندقية أنّ هذا الأخير قد طلب منه إرسال مجموعة من الأسرى لبيعهم في مرسيليا[46]. وبالرغم من أن حكومة البندقية كانت تتطلع للاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الدولة العثمانية، إلا أنها كانت لا ترغب في إطلاق سراح الأسرى المسلمين بشكل عام، كما كانت تعترف بأن الإسترقاق كان يمارس على أراضيها، كما يمارس داخل أوروبا نفسها[47].

سوق جنوه:

ولم تبق جنوة هي الأخرى خارج تيار المتاجرة بالأسرى ،فقد تحولت في ظرف زمني قياسي إلى سوق كبيرة،فقد حققت عمليات تحويل الأسرى خارج الجمهورية صفقات رابحة،ونخص بالذكر عمليات التحويل باتجاه سوق القورنة،وكذلك ميناء شيفيتافيكيا البابوي، حيث كانت ترسو سفن البحرية البابوية[48].

وعادة عندما كان يقع الجزائريون في الأسر بيد البحرية الانجليزية، يتمّ تحويلهم مباشرة إلى سوق ليفورنو أو جنوة، ومن ثمّ يحوّل هؤلاء الأسرى للعمل على متن السفن البحرية التوسكانية أو الجنوية[49].

صفوة القول:

إن العلاقات بين الدول المسيحية والدول الإسلامية في شمال المتوسط وجنوبه كانت في العادة علاقات حرب، وقد تميزت بالعداء وغلب عليها طابع التحدي.

وفي أثناء ذلك اتسع نطاق ظاهرة الأسر بشكل كبير ودفع الكثير ممن وقع في الأسر ثمن هذا الصراع، وفي إطار هذه العلاقات – أي حالات الحرب- كان اختطاف الأسرى في البحر وفي مناطق العدو مسألة جار بها العمل. وكان الحكام يمنحون سفن القرصنة، مقابل دفع مبلغ من المال، ترخيصا يسمح لهم ببيع الأسرى في الموانئ الأوروبية كعبيد.

وفي إيطاليا فقد استمرت ممارسات استعباد الأسرى المسلمين إلى ما بعد القرن الثامن عشر، وأحيانا حتى بعد عام 1800م. ومما يجب الإقرار به أن عدد الأشخاص الذين عانوا من ذلك المصير بعد عام 1700م كانوا أقلّ من تلك الأعداد الموثقة خلال القرن السابع عشر، حيث كان هناك عشرات الآلاف من الأشخاص الذين عاشوا كعبيد مسلمين في مقاطعات إيطالية مختلفة.

إن عداوة الأوربيين للمغرب الإسلامي كانت قد نالت مباركة الكنيسة البابوية في روما، فقد تعمد الفاتيكان تضخيم قضية الأسرى المسيحيين في بلاد المغرب وذلك بتشويه حالتهم، كما عزز رجال الكنيسة تيار التعصب الديني تجاه هذه القضية، بالمقابل فقد قللوا من شأن قضية الأسرى المسلمين الذين تحولوا من أسرى إلى عبيد.

تشير أغلب المراسلات الكنسية إلى أنّ الأسرى المسيحيين مساكين وهم في أمسّ الحاجة إلى المساعدة والعون الرّوحي. **(Si faccia un essortatione spirituale per il riscatto di questi poveriti, o quei meschini)** كما وصفت ملاّكهم بالبرابرة المتوحشين لأنهم يعذبون أسراهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام. ويجب ألا ننسى أن الكتب التي ألفها القساوسة كانت ترمي إلى إثارة شفقة المسيحيين واستعطافهم نحو إخوانهم الذين استرقهم المغاربة فهي تميل نحو إظهار الأحوال البائسة التي يعانيها الأسرى في حياتهم وإبراز الأخطار التي تهدد إيمانهم وعقائدهم فلا غرابة أن تكون الغاية التي يرمي إليها هؤلاء المبعوثين

الدينيين الاستجداء وجمع الأموال الطائلة لافتداء الأسرى المساكين، أضف إلى ذلك أن أصحاب الرسائل ينتمون إلى الكنيسة، وأن فكرهم معاد للإسلام.

إنّ قضية الأسرى المغاربة المحجوزين في إيطاليا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وما أكثرهم آنذاك، رمت بهم الأقدار إلى سجون أوربا المسيحية هي من أعقد القضايا الاجتماعية والإنسانية التي شهدها التاريخ البشري خلال تلك الفترة.

ينتمي هؤلاء الأسرى إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، ففيهم من ينتمي إلى العائلات الملكية، ومنهم ضباط سفن، والتجار، بالإضافة إلى أناس بسطاء.

إن العبيد ذوي الأصول الإسلامية في جنوب أوربا خلال القرون الوسطى المتأخرة وخلال الفترة الحديثة أيضا، نجدهم ممثلين في مختلف القطاعات الاجتماعية، نجدهم كفلاحين وحرفيين وخدم في الأديرة وعند الرهبان، نجدهم كذلك كمستخدمين في بلاط النبلاء.

إن ما يميز الرقيق بالبحر المتوسط في العصر الحديث هو أن توافد العبيد لا يفسر باقتنائهم من البلد الأصلي لهم، ولكن عن طريق أسرهم في إطار المواجهة بين بلدان المغرب الإسلامي وبلدان أوربا المسيحية المتوسطية بوجه خاص. كل حلقة من سلسلة الحروب وخاصة النشاط القرصني تفرز أسرى وبالتالي عبيدا.

كان الأسرى المسلمون يعدّون بالآلاف، وخاصة في مرحلة ازداد فيها الطلب إمّا لاستخدامهم في بعض الأعمال الشاقة كجدّافين بالسفن البابوية، أو التجارية أو استغلالهم في خدمات أخرى. وقد انتشرت أسواق بيع الأسرى في العديد من المدن بأوربا، واشتهرت من بينها على الخصوص مدن البندقية وجنوة وليفورنو وإشبيلية ومرسيليا وغيرها.

خلال الغزو الأسباني لوهران وبجاية وطرابلس بين 1505و1510 ولتونس سنة 1535 ألقي القبض على عدد كبير من الأسرى الذين سيقوا كعبيد لأسواق النخاسة في أوروبا. وكذلك في نهاية معركة ليبانت حصل سكان البندقية على 1200 أسير، والدولة البابوية على 550 أسير.

ولنذكر أيضا بعثات فرسان مالطا، وفرسان القديس ستيفان الذين يوجد مقرهم في بيزا بتوسكانيا، هؤلاء الفرسان الذين يجب أن نعتبرهم قراصنة وهم جسورون وجريئون وهذه بعض مفاخرهم:

في شهر أوت سنة 1602 اقتحموا مدينة الحمامات واستولوا على نحو 700 شخص، وبعد ذلك بنحو خمس سنوات اقتحموا مدينة عنابة وأسروا 1500 شخص، من بينهم عدد لا يستهان به من النساء والأطفال.

وتزايد عدد الأسرى المغاربة في توسكانيا، ففي سنة 1681 استولت بحرية سان ستيفان على ثلاث سفن جزائرية، وأسرت 91 جزائريا كانوا على متنها، وأما خلال سنة 1687 فقد تمّ أسر 500 جزائري، وفي جويلية من نفس السنـــة، فقد استولت البحريـــة التوسكانية على سفينة جزائرية، كان على متنها 70 جزائريا، حولوا إلى العبودية قسرا وكرها.

استمرت ظاهرة الأسر خلال القرن الثامن عشر، فقد أسرت البحرية البابوية 124 جزائريا سنة 1724، و 78 طرابلسيا، و 62 تونسيا، و 36 مغربيا. وفي سنة 1727 ألقي القبض على 90 من الجزائريـــن كأســـرى عبيـــد، و107 سنة 1755، وعلى 160 تونسيا بعد ذلك بسنتين، وأسرت البحرية النابوليتانية 126 شخصا معظمهم من شمال إفريقيا.

إن رسائل الأرقاء المسلمين المرسلة من أوربا المسيحية مثل إيطاليا كلها تشير إلى شيء واحد هو المعاناة و العذاب الشديد و الرغبة في الحريـــة و العودة إلى الأوطان و الأهل و لعل هاجس العذاب، و صور المآسي التي واجهها الأسرى، أمام مرهبهم الذي شل قواهم بما يحملـــه من عذاب، وما يريه

من فضاعة القسوة، قد وجدنا لها تعبيرا في ما قاله الشاعر اليمني البردوني[50].

هدّني السجن و أدمى القيد ساقـــي فتعاييـــــت بجـــرحي ووثاقـــــي

و أضعت الخطو في شوك الـــدجى و العمى و القيد و الجرح رفـــــاقي

و مللـــت الجـــــرح حتى ملنـــي جرحي الدامي و مكثي و انطـــلاقي

و تلاشيـــت فلم يبـــق ســـــــوى ذكريات الدمع في وهـــم المـــــآقي

في سبيـــــل الفجـــر ما لقيـــت في رحلة التيه و ما ســـــوف ألاقـــي

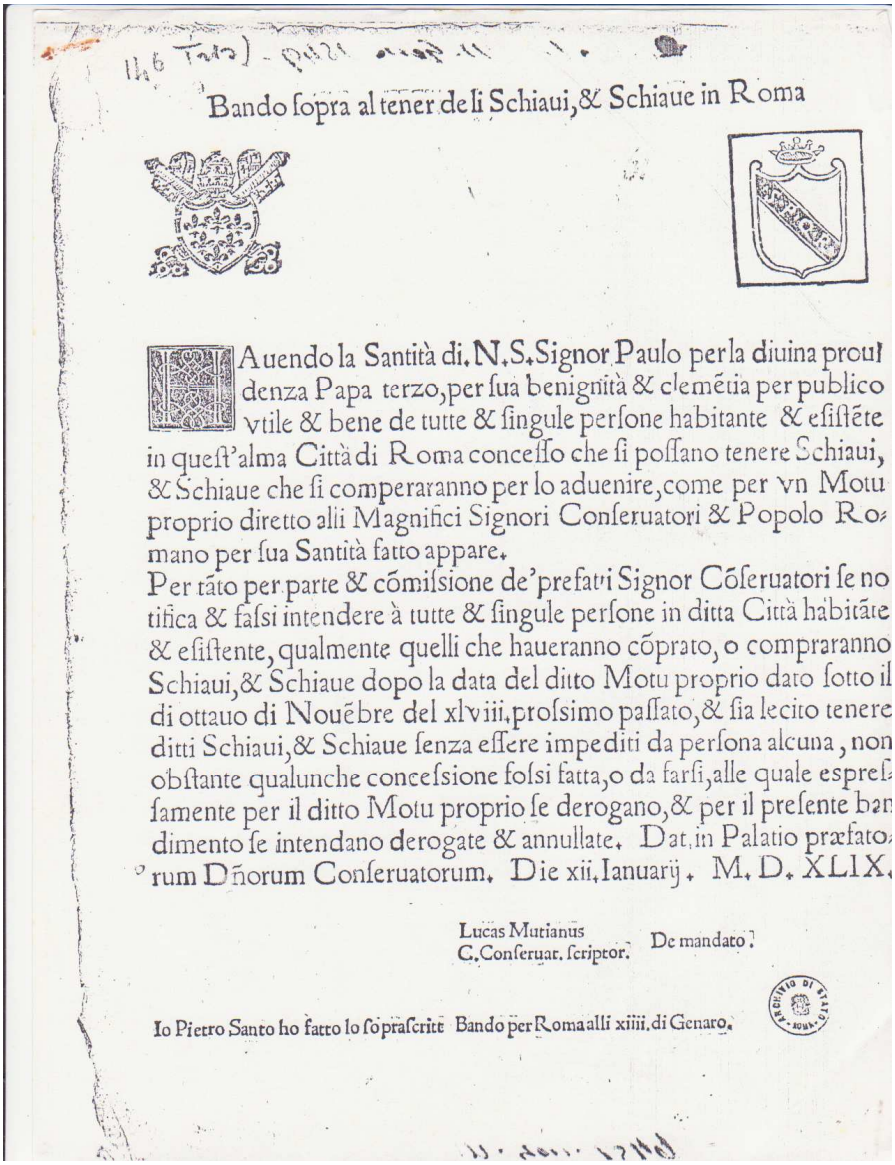

Bando ſopra al tener de li Schiaui, & Schiaue in Roma

Auendo la Santità di. N. S. Signor Paulo per la diuina prouidenza Papa terzo, per ſua benignità & clemẽtia per publico vtile & bene de tutte & ſingule perſone habitante & eſiſtẽte in queſt'alma Città di Roma conceſſo che ſi poſſano tenere Schiaui, & Schiaue che ſi comperaranno per lo aduenire, come per vn Motu proprio diretto alli Magnifici Signori Conſeruatori & Popolo Romano per ſua Santità fatto appare.

Per tãto per parte & cõmiſsione de' prefati Signor Cõſeruatori ſe notifica & faſsi intendere à tutte & ſingule perſone in ditta Città habitãte & eſiſtente, qualmente quelli che haueranno cõprato, o compraranno Schiaui, & Schiaue dopo la data del ditto Motu proprio dato ſotto il dì ottauo di Nouẽbre del xlviii. proſsimo paſſato, & ſia lecito tenere ditti Schiaui, & Schiaue ſenza eſſere impediti da perſona alcuna, non obſtante qualunche conceſsione foſsi fatta, o da farſi, alle quale espreſsamente per il ditto Motu proprio ſe derogano, & per il preſente bandimento ſe intendano derogate & annullate. Dat. in Palatio præfatorum Dñorum Conſeruatorum. Die xii. Ianuarij. M. D. XLIX.

Lucas Mutianus C. Conſeruat. ſcriptor. De mandato.

Io Pietro Santo ho fatto lo ſopraſcritto Bando per Roma alli xiiii. di Genaro.

أصدر البابا باولو فرنيز قرارا شخصيا (Motu Proprio) بتاريخ الثامن نوفمبر من سنة 1548، تمّ تحويله إلى محافظي روما الذين نشروه بدورهم بتاريخ 12 جانفي 1549م تحت عنوان: « Bando sopra al tener de li Schiavi & Schiave in Roma » ورسّم هذا القرار كما ورد في نص الوثيقة ما يلي: تحوّل وضع الأسرى من أسرى يمكن مفاداتهم، إلى عبيد يطبّق عليهم قانون العبودية.

– الهوامش:

1 Bernard Heyberger, Les Chrétiens du Proche Orient au temps de la réforme Catholique. E.F. Rome 1994, p6.

2 ولد سنة 1886، تابع دروسه في المدرسة العليا للمعلمين، عمل أستاذا في جامعة ستراسبورغ. من أعماله الكبرى ذات التأثير في خلق مدرسة في التأريخ، السمات الأصلية للتاريخ الريفي الفرنسي، وكتاب المجتمع الإقطاعي، كتب سلسلة من الدراسات والمقالات في مجلة (الحوليات) التي أسسها مع صديقه فيفر Febvre كتب أيام الحرب، 1941، مخطوطته الشهيرة: تمجيد التاريخ أو مهنة المؤرخ (Apologie pour l'histoire ou métier d'historien) وفيه ردّ على منهج سيبونوس ولونجلوا المعروض في مدخل إلى الدراسات التاريخية، انظمّ إلى المقاومة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية، اعتقل على يد الاحتلال النازي، وأعدم في عام 1944. ينظر. وجيه كوثراني: تاريخ التأريخ. اتجاهات–مدارس–مناهج. ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة. قطر2012. ص 108–109.

3 Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, éd. Armand Colin. Paris1993, p27.

4 A.S.R, Bandi ? Busta 1. « Sopra al tener dell schiavi e schiave in Roma »

5 Enciclopedia Italiana, vol, XXVI, Roma1949, pp234-235.

6 Pierre Larousse, Grand Dictionnaire Universel du XXème Siècle, tome II. Paris1867, p187.

7 الإنجيل (سفر مارك 10، 38)

8 S.A, « Baptême-Eucharistie-Ministère » Rome1977, p13.

9 A.S.R, Bandi…, Op-cit.

10 Ibid.

11 تحتوي مكتبة الفاتيكان على العديد من المخطوطات المتعلقة بتعميد الأسرى المسلمين خلال القرن السادس عشر، ويعود تاريخ المخطوط الذي اطلعنا عليه إلى سنة 1542، أي قبل صدور القرار البابوي، القرار موضوع دراستنا هذه بنحو ستة أعوام. ينظر:

- B.A.V, Vat-Ottoboni Lat, 2452, ff. 52-189. Varie, de coll, Catecumenurum al tempo del Cardinal Serleto.

12 انتخب بينيديتو أوديسكاشي على رأس الكنيسة البابوية في روما في 04 أكتوبر 1676 تحت اسم بينيديتو إينوشيترو الحادي عشر(Benedetto Innocenzo XI) حتى وفاته في 12 أوت 1689م، ويعرف عن هذا البابا تأييده وتدعيمه لملك بولونيا سوبايسكي المعروف بمعاداته للأتراك العثمانيين. ينظر:

- Enciclopedia Cattolica, vol VII, Roma1949, pp21-23.

13 عرف كليمونت الحادي عشر قبل توليه الكرسي البابوي، باسم جيوفاني فرانشيسكو ألباني، ولد في مدينة أوربينو بإيطاليا في 23 يوليو 1649م، ارتقى في السلّم الكنسي إلى رتبة كاردينال سنة 1690، انتخب على رأس الكنيسة البابوية في روما في 08 ديسمبر1700م حتى وفاته في 19 مارس 1721م. ينظر:

- Enciclopedia Cattolica, vol III, Op-cit, p 1832.

14حول بيت التعميد (Casa dei Catacumeni) وإدارة مدرسة المعمدين(Collegio dei Neofiti) عثرنا في مكتبة الفاتيكان على وثائق تحتوي أسماء من تولى إدارة البيت، والمدرسة، وكذلك قائمة بأسماء المتمدرسين بمدرسة المعمّدين الجدد من الأسرى المسلمين واليهود، وحتى من اليونانيين (Transmarini). ينظر:

- B.A.V, Vat-Lat. 14148 « Libro nel quale se scriverano tutti li collegianti e convittori rettori e maestri e ufficialli e prefetti nel collegio dei neofiti e transmarini. »

15 Archivio di Stato di Roma, Via Rinaschemento. Roma.
16 Archivio Storico del Vicariato di Roma,
17 A.S.R, Bandi…, Op-cit.

18 حول أسرى السفن البابوية المسلمون، الذين تمّ تعميدهم، وحوّلوا بعد ذلك للعمل على متن هذه السفن, عثرنا في أرشيف دولة روما على وثائق تحتوي أسماء هؤلاء الأسرى مع الإشارة إلى بلدانهم الأصلية. ينظر:

- A.S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Epistolario. Busta 61. Rollo de Schiavi delle galere.

19 Robert Ricard, « Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise 1415-1550. » in. Annales de l'Institut d'études Orientales/ T.III 1937, p59.

20 سعيـــود إبراهيم: "لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني" مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، عدد7، جامعة الجزائر2007. ص206.

21 سعيـــود إبراهيم: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الأستاذة الدكتورة عائشة غطاس جامعة الجزائر2 . 2010/2009، غير منشورة. ص142.

22 A.S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Busta 31. Schiavi nelle galere pontifici.

23 علامة الاستفهام الواردة في الجداول، تعني أن الكلمة الواردة في الوثيقة غير مقروءة بسبب الشطب أو لعدم وضوح الحروف.

24 A.S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Busta 31, Op-cit.
25 Ibid.
26 Ibid.
27 Ibid.
28 Ibid.
29 Ibid.
30 A.S.R, Bandi…, Op-cit.
31 Jean Mathiex, « Trafic et prix de l'homme en Méditerranée au XVIIème et XVIIIème Siècles » in, Annales E.S.C, 9ème année, n°2, 1954, pp157-164.

32 سالفاتوري بونو: "العبيد المسلمون في إيطاليا من القرن 16 إلى سنة 1830" تعريب خديجة بركات،مجلة البحث العلمي، عدد45، الرباط 1998. ص115.

33A.S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Busta 31, Op-cit.

34 سالفاتوري بونو: المرجع السابق، ص115.

35 Piazza Calogero, « Dati sulle navigazione Stefaniana dal 1678 al 1716. » in, A.C.L. 1978, pp 9-11.

36 Mathiex, Op-cit , p 158.

37 Moulay Belhamissi, Les Captifs Algériens et l'Europe Chrétienne. E.N.A.L, Alger1988,p 28.

38 Paolo Castignoli, « La Casa Granduca del riscatto a Livorno nel Settecento. » in, Nuovi Studi Livornese, n°8. Livorno2000, pp 29-43.

39Fernand Braudel, « L'Economie de la Méditerranée au XVIIème Siècles. » in, C.T. Tunis1956, pp157-197.

40 Monumento dei Quatro Mori (1623-1626)

41 Salvatore Bono, « La Sicilia e I Barbareschi. » in, S.S. Sicilia1978, p 185.

42 جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830. م.و.ن.إ الجزائر2007، ص 147-150.

43 ثريا فاروقي: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها. تر. دكتور حاتم طحاوي، ومراجعة عمر الأيوبي. ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت 2008. ص218.

44 A.S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Busta 31, Op-cit.

45 الرسالة من سينيلاي كاتب الدولة للبحرية الفرنسية مؤرخة في 16 ديسمبر1689.

46 M. Belhamissi, Op-cit, p 29.

47 ثريا فاروقي: المرجع السابق، ص220.

48 .S.R, Camerale II, Carteggio del Tesoriere Generale, Busta 31, Op-cit.

49 M. Belhamissi, Op-cit, p 29.

50 عبد الله البردوني: ديـــــوان البردونـــي، مجلّد 1، "قصيدة رحلة التيـــه" دار العودة بيروت، ص557-558..

مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية

الحرب النفسية أنموذجا (1955-1960)

د/ جمال قندل
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

توطئة

ترنو هذه الدراسة، الوقوف عند حقيقة أبعاد ومدى تأثير المقاربة النفسية، التي تشكل بُعدا رئيسا من أبعاد الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، ،التي اعتمدها الاحتلال، في مواجهته للثورة الجزائرية، من خلال التركيز على ثلاثة محاور رئيسة تشكل مجتمعة الهدف الأساس من الحرب النفسية. والتي تتحدد وفق الآتي: الشعب، جبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني. غير أن الركن الأكثر أهمية في العملية، هو الشعب، باعتباره محور ومدار العملية الثورية، ومن ثم فإن نجاح أو فشل الحرب النفسية، ينطلق من مستوى تأثر الشعب بها، وتداعيات ذلك على ميادين مختلفة، تشكل مجال حراك الثورة في الداخل والخارج على حد سواء.

وقبل ولوج الموضوع من حيث بحث جزئياته، يسوغ القول، أن أربعة أشهر عن تفجير الثورة، كانت كافية كي تجنح القيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر، إلى اعتماد معطى آخر في سياق المواجهة الدموية مع مجاهدي جيش التحرير الوطني، رغبة في شلّ سير وحركة الثورة، حتى تغدو أكثر بُطأ وأقلّ فاعلية، من حيث القدرة على التحريك الشعبي وتطوير الأداء العملياتي لعناصر الثورة، بقطع النظر عن طبيعته. خاصة وأن قوات الاحتلال الفرنسي، أُصيبت في مقتل بدا أكثر وضوحا، في الانكسار الذي نزل بها في الهند الصينية، وما انجرّ عن ذلك ،من صدمة نفسية عنيفة. وزاده إعلان كل من تونس والمغرب، المقاومة المسلحة عليها. وقبل أن يخلد عساكر الاحتلال، إلى الراحة للتخفيف على أنفسهم، من شدّة ووطأة الحرب[1] التي ارتسمت في المخيال الفرنسي العسكري والسياسي، بل وحتى الشعبي، فجرت جماعة الستة[2]، في الجزائر ليلة الفاتح نوفمبر 1954، الثورة على الاحتلال الاستيطاني الفرنسي، الجاثم على أديم الجزائر ،منذ العدوان عليها، عام 1830، دون وجه حق. وبذلك تكون قد جددت العهد مع الاستمرارية في الخط المقاوم للاحتلال.

I- جغرافية العمليات العسكرية ورسالة الثورة:

توخى مفجرو الثورة، تعميم العمليات العسكرية ،المؤذنة بميلاد العهد الجديد، في الجزائر المحتلة ،حتى تكون الرسالة واضحة المعالم، من خلال اعتماد تقسيم عسكري ،مع إسناد قيادة كل منطقة من المناطق الخمسة، إلى قائد يتولى إدارة شؤونها. حيث اهتزت مناطق الجزائر وصوب المجاهدون ضرباتهم نحو الأهداف الأمنية للاحتلال، التي حُددت سلفا ممثلة في مقرات الشرطة والثكنات العسكرية، فضلا عن عمليات التخريب التي طالت المستودعات والمزارع والتعاونيات وخزانات الغاز والبترول[3].

وعلى غرار جغرافية العمليات، ثمة عوامل رئيسة، عززت العمليات وجعلتها تتميز بالشدّة، وهي الفجائية التي طبعتها، إلى جانب الوحدة الزمنية للعمليات. وهو ما أشّر على وجود تنظيم دقيق، وراء تلك العمليات. الأمر الذي جعلهم يفهمون رسالة الثورة، على نحو جيّد، وهو ما عكسته تصريحاتهم المختلفة، بعد أن قرأوا التوزيع الجغرافي للعمليات العسكرية، قراءة موضوعية، توخت البحث عن البديل الأنسب لتقويض العمل العسكري الذي انطلق في الجزائر. وقد ذكر في هذا السياق، الجنرال لونرموند Lenormad، الذي ذهب إلى حد القول: "إن الفترة الممتدة من نوفمبر 1954 إلى جانفي 1955 شكلت بالنسبة للجيش الفرنسي في الجزائر مرحلة ثقيلة وصعبة. إنه ديان بيان فو يضغط على معنويات العساكر"[4].

2- الخيار الأمني والمسلك غير الكافي:

أدرك قادة الاحتلال، السياسيون والعسكريون على حد سواء، بصرف النظر عن مواقعهم ومستوياتهم، أن الاعتماد على الحل العسكري كخيار أوحد لتطويق وخنق الثورة، على طريق القضاء المبرم عليها، يعد خيارا ضروريا وأساسيا، بالنظر إلى النتائج التي يحققها في الميدان. بيد أنه يبقى غير كاف، ومن ثمة بات من الضروري البحث عن خيارات أخرى، مكملة ومدعمة في ذات الوقت، للخيار العسكري. خاصة وأن المسؤولين العسكريين أضحوا يرون باستمرار ويلمسون بصدق، التطور النوعي والمشهود للثورة، فضلا عن امتدادها الأفقي والعمودي. ذلك أن الامتداد الأفقي شمل مختلف المناطق التي تم تحديدها من قبل مفجري ثورة نوفمبر، حيث غطت العمليات الفدائية والعسكرية والكمائن والمعارك، كافة أرجاء الجزائر الثائرة، مع اختلاف جلي من منطقة لأخرى، تبعا لاختلاف ظروف ومعطيات كل منطقة، فيما شمل الامتداد العمودي، مختلف الشرائح والأعمار التي تشكل المجتمع الجزائري. وذلك على الرغم

من القمع الجماعي، الذي سلط على الشعب، وبخاصة في منطقة الأوراس، في البداية نتيجة شدة وقوة الثورة بها، فضلا عن التعزيزات العسكرية الكبيرة التي أضحت تصل إلى الجزائر تباعا، من مختلف الوحدات العسكرية، بعد أن ألحت القيادة العسكرية في الطلب، بل وأصرت على وجوب الإسراع في تحقيق ذلك، ربحا للوقت وقطعا للطريق على جبهة وجيش التحرير. حيث اعتبرت أن العدد الموجود في الجزائر غير كاف ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحقق حلم العسكريين ويجسد طموحاتهم في تعميق وتجذير الاستيطان الفرنسي في الجزائر.

ولهذا الغرض، ارتفع العدد من 85000 عسكري في نهاية 1954، إلى 100000 عسكري خلال شهر جوان من سنة 1955 و 186000 في فيفري 1956[5] ليصل العدد، إلى 400000 عسكري في نهاية سنة[6] وهو ما أغاضهم وجعلهم يقفون موقف الحائر على قصور إدراكهم وفشل تأكيداتهم المستمرة في إمكانية القضاء على الثورة، في فترة قصيرة ووجيزة، بفعل الغرور الكبير الذي طبع ردود فعلهم، الأمر الذي دفعهم بقوة باتجاه التفكير الجدي والفاعل للتقليل من خسائرهم البشرية والمادية.

إن كثيرا من التقارير العسكرية الاستعمارية، لم تسلك منحى الهروب إلى الأمام، كما أنها لم تغضّ الطرف، عن اتساع عمق الجرح، وهو ما عكسته المعطيات والإحصائيات و الحقائق الكاشفة لمستوى النضج و التطور النوعي الذي بلغته الثورة[7]، ونسوق في هذا الشأن، تقريرا عسكريا غاية في الأهمية، للجنرال بارلانج مؤرخ في الخامس من شهر مارس ألف وتسعمائة وستة وخمسين، ضمنه تحليلا عاما للوضعية. حيث ذكر، أن الوضع بهذه الجهة -يقصد الجهة الشرقية-، وخاصة ابتداء من الخامس عشر فيفري، سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، طبعته، الخصائص، التالية:

1-التعزيز والتنظيم الجيد "للعصابات المسلحة".

2-تهديم كل ما يرمز للوجود الاستعماري.

3-تركيز التهديد بشكل أساس على المراكز الحضرية.

4-تكثيف الضغط الممارس من طرف الثوار، في المجالين السياسي والبسيكولوجي.

5-خيانة العديد من المنتخبين والقيّاد للإدارة الفرنسية.

7-ارتفاع نسبة الفرار من الجيش الفرنسي، والالتحاق بالثورة[8]. حيث ارتفع عدد الفارين بشكل محسوس، بأوراس النمامشة، من سبعة عشر حالة فرار، خلال شهر ديسمبر من سنة ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين، إلى ثمانية عشر حالة، في شهر جانفي وخمسة وستين حالة في شهر فيفري من سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين[9] وللإشارة، فإنه إلى غاية بداية سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، سجلت نحو ثلاثين حالة فرار شهريا[10] وفي نهاية السنة ذاتها، ارتفع العدد ليصل ثمانية وسبعين حالة[11].

وخليق بنا التأكيد أن الجنرال بارلانج "Parlange" قائد القسم العسكري القسنطيني، اقترح على القيادة العسكرية الفرنسية بعد أن أبصر شدة وقوة بل وخطورة هجومات جيش التحرير على راهن ومستقبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية. وقد أبدى تخوفه الكبير، من استمرار الوضع على تلك الحال. وفي هذا الصدد، تجب الإشارة إلى أنه أكد الحقيقة الصعبة للوضع من خلال التقرير الذي أعده على نحو شامل ومفصل. حيث ألحّ على وجوب اعتماد وتطبيق ذات الطرق والأساليب التي تم اعتمادها في المغرب، وأثبتت فعاليتها في الميدان ،مع مرور الوقت. حيث تمثلت تلك الطرق بناء على رأي بارلانج، في الفصائل الإدارية المتخصصة "Sections administratives spécialisées " التي تتوزع وتنتشر على مستوى القرى والمداشر، أي أنها ريفية الطابع، فيما تتوزع الفصائل الإدارية الحضرية " Sections administratives urbaines "على مستوى المدن[12].

وقد رُوعي في اختيار هذين النوعين من الفصائل، معطيات و خصوصيات، بل ومتطلبات الريف والمدينة على حد سواء، رغبة في إنجاح المهمة على نحو أشمل وأكمل، دونما استعجال للنتائج التي لا شك وأنه تلمس في الميدان، عاجلا أم آجلا، إدراكا منهم أن الحر ب النفسية ذات تأثير حقيقي ولكن بشكل متدرج. ومن شأنها أن تعزل الشعب عن الثورة، فتحدث بالتالي القطيعة الجذرية ومن ثمة فإنه لا مناص من الصبر على طريق تطويق وخنق الثورة، بل والسعي إلى تفجيرها من الداخل،كهدف أسمى يتوخى من طرف سياسيي وعسكريي الاحتلال الفرنسي، منذ أمد بعيد ،لمواجهة الثورة، الآخذة، في التطور والامتداد، باستمرار وقد ارتفع عدد الفصائل الإدارية المتخصصة (صاص)، باضطراد من 160 في بداية 1956، إلى 568 في نوفمبر 1957، و679 في نهاية 1958[13].

التحديد المصطلحاتي للحرب النفسية:

تنضوي الحرب النفسية، ضمن تخصص علم النفس الاجتماعي، وعلم النفس العسكري، على حد سواء، وهي تعني استخدام الدعاية والإشاعة والأساليب البسيكولوجيا الأخرى، بغرض التأثير على نفسية ومعنويات العدو وإحداث مشاعر معينة، بين الجماهير بغرض زعزعة ثقتها بنفسها وبقادتها ومعتقداتها، وحتى بتاريخها وهويتها وكذا تفتيت عزيمتها وإضعاف إرادتها وإيجاد انشقاقات بينها مما يشغلها عن قضيتها الأساسية، ويسهل بالتالي الانقضاض عليها وإخضاعها لإرادته ،دون مقاومة[14].

والحرب النفسية تعد جزءا من الحرب الشاملة، لا لشيء، إلا لأنها تُشن قبل الحرب وأثناءها وبعدها، كما أن آثارها السلبية قد تظهر على المدى القريب أو المتوسط أو البعيد، إلى جانب كونها أكثر شمولية وأوسع نطاقا، لأنها تستهدف المقاتلين من جهة، والشعب من جهة ثانية، وفي ذات الوقت بغرض إحداث التأثير المطلوب والمرجو، فضلا عن أنها لا تقوم على المواجهة المباشرة مع القوات محل الحرب، مثلما عليه الشأن في المعارك العسكرية ولكنها تجنح إلى اعتماد طرائق وأساليب ملتوية، أشد إغراءا وجذبا، تنطلي أهدافها عن الشعب.

ومن هذا المنطلق، فإن الحرب تقوم على الدعاية والإشاعة، باعتبارهما أهم وأنجع آليات الحرب النفسية وتستهدفان زرع اليأس وتعميق الإحباط في النفوس من إمكانية تحقيق النصر على قوات العدو، والدفع باتجاه خيار الاستسلام[15].

إن هذا الأسلوب الجديد، الذي جنحت إليه الإدارة الاستعمارية الفرنسية، لم يكن وليد الصدفة أو عملا ارتجاليا مقطوع الجذور، أملته الظروف العسيرة التي أوجدتها الثورة وما أفرزته من واقع صعب، شكل مأزقا حقيقيا للعدو الفرنسي، بل يضرب بجذوره في عمق تاريخ الاحتلال الذي وظف كافة طاقاته ومختلف إمكاناته المادية، البشرية، العلمية والعسكرية، في سياق عمل متكامل، لكسر شوكة المقاومة الشعبية من خلال ضرب قوة الإيمان بضرورة تحدي ومواجهة الاحتلال، على الرغم من انعدام التوازن البشري واللوجستيكي بين قوات الاحتلال الفرنسي من جهة، والمقاومة الشعبية الجزائرية من جهة أخرى. ذلك أنها تعود إلى المكاتب العربية، التي أنشئت خلال الفترة الممتدة من 1833 و 1870[16].

وقد حمل تصريح للوزير المقيم روبير لاكوست، حول مهمة قوات الاحتلال الفرنسي في الجزائر، والتي لم تخرج قطّ عن مجال القمع بكل صنوفه وأشكاله، إشارة إلى التوجه الجديد

المزمع اعتماده في التعاطي مع معطى الثورة الجزائرية، بقوله: "إن مهمتنا هي إعادة النظـــام و السلم، بيد أن هذا لا يكون ضد الشعب المسلم، ولكن من أجله ومعه..."[17] ومنـــه يتجلـــى بشكل بارز، التغير الحاصل في آليات الخطاب الاحتلالي ودلالاته، بغرض إحـــداث التـــأثير السيكولوجي على مجاهدي جيش التحرير، فضلا عن الشعب، بصرف النظر عن قوته وعمقه ودرجته وامتداده، كهدف عاجل، واستيعاب وتوظيف العناصر المتأثرة في مشـــروع الثـــورة المضادة كهدف آجل، ينبني عل بعدين رئيسين متكاملين، يتحرك الأول من خلال إطار زمن الثورة، فيما يتحرك الثاني، من خلال الإطار الزمني لما بعد الثورة، رغبة في الانتقام من الثورة التي سفهت أحلامهم وحطمت كبرياءهم.

مؤسسات الحرب النفسية :

إن الحرب النفسية التي شنت على الجزائر، لم تكن عملا ارتجاليا أو وليد الصدفة بقدر ما كانت عملا مؤسساتيا، انطلق من قراءة واقعية للواقع الذي أضحت تعيشه القيادة العســـكرية الفرنسية من جهة، ودولة الاحتلال من جهة أخرى، نتيجة قوة وشدّة الثورة التي باتت أكثـــر انتشارا وتأثيرا في الداخل والخارج، على حد سواء. بل إن تأثيرها امتد ليمس الـــرأي العـــام الفرنسي الذي كان في البداية مشدودا إلى المصادر الفرنسية الرسمية، لاستقاء الخبر ذي الصلة بحقيقة الواقع في الجزائر ولكن مع بروز الوسائط الإعلامية المتنوعة للثورة، بالتوازي مع قـــوة ضربات الثورة في الداخل، أصبح الإقبال على مصادر الثورة، يزداد باستمرار، لمعرفة الحقيقـــة من مصادرها الأصلية. وقد نشرت جريدة "لوموند" في هذا السياق، سبرا للرأي حول الثورة، واقعا وآفاقا.

لقد ساند الكثير من الفرنسيين في بداية الثورة، الإدارة الاستعمارية، في قمعهـــا وحربهـــا وإبادتها للشعب الجزائري، نتيجة للحصار الإعلامي المضروب على الرأي العام الذي كان أسيرا للخطاب الإعلامي لإدارة الاحتلال التي توخت تزييف الوعي لتحقيق استمرارية الاحتلال في الزمان والمكان. بيد أن الموقف طرأت عليه تغيرات كثيرة وكبيرة نتيجة قوة الثورة وتطورها، وكذا صداها على المستوى القاري والعالمي. فضلا عن الموقف السياسي الذي تبنته أطراف من النخبة الفرنسية، لصالح العمل من أجل إيقاف إراقة الدماء، وكان على رأس هؤلاء "جون بول سارتر" و "أندريماندوز" وكذا "روبير بارا"[18] ولقد مست تلك التغيرات، النظرة إلى الثـــورة وكذا استقلال الجزائر.

وحفاظا على مكانة فرنسا قاريا ودوليا، ورغبة في توجيه القرار السياسي الوجهة التي تتماشى والمصالح الاستراتيجية لفرنسا كقوة ،أجرى المعهد الفرنسي للرأي العام سبرًا للآراء، خلال الفترة الممتدة من 25 جويلية 1958 و 8 أوت من السنة ذاتها. ويبدو أن الجريدة من خلال إقدامها على نشر نتائج عملية السبر، توخت التهيئة النفسية للفرنسيين على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم لاستقلال الجزائر، الذي أضحى حتمية وقريبًا جدًا بعد التطور المشهود الذي عرفته الثورة، رغم الكثير من الصعاب، غير أن الجريدة لم تفصح إطلاقا عن تلك الحقيقة، وعلى غرار ذلك فإن الأسئلة المطروحة في عملية السبر تعكس بجلاء النظرة الاستعمارية للثورة الرامية إلى إخفاء وكتم الحقائق عن الرأي العام، تجنبًا لكل اضطراب من شأنه أن يزيد من حدّة الأزمة التي باتت تعيشها منذ اندلاع الثورة، وقد دارت الأسئلة التي شكلت محور السبر العام، حول الآتي:

- البعض يعتقد أنه ينبغي إعطاء الاستقلال للجزائر، آجلا أم عاجلا. هل أنتم موافقون أم لا، حول الطريق التي ينظر بها إلى الأشياء؟
- البعض يعتقد وجوب إدماج الجزائر بفرنسا، أي بمعنى أن يتمتع الـ 9 مليون مسلم جزائري بنفس الحقوق التي يتمتع بها فرنسيو الوطن الأم؟

وقد أسفرت نتائج السبر على ما يلي:

- 52 %من الفرنسيين يعتقدون أن إدماج الجزائر بفرنسا شيء مقبول.
- 41% يؤمنون بضرورة إعطاء الاستقلال للجزائر عاجلا أم آجلا[19].

لقد شهدت فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، بروز مؤسستين اضطلعتا بمهمة الحرب النفسية وكلها ثقة وأمل، في استقطاب قسم من الجزائريين وتوظيفهم في مشاريع مضادة للثورة. وقد اجتمعت المؤسستان حول الأهداف واختلفتا في الوسائل والتسمية، كما جمعهما إطار زمني واحد، هو سنة 1955، مع اختلاف في الشهور، ويبرزان من خلال الآتي:

I/ المكتب الخامس :

بعد فترة وجيزة، من اندلاع الثورة وانبعاث حركة التحرير، وفي فترة لا تتجاوز الخمسة أشهر، تعززت قيادة أركان الناحية العسكرية العاشرة بمؤسسة أو تنظيم جديد، عرف باسم المكتب الجهوي للعمل النفسي، بموجب القرار الوزاري المؤرخ في الفاتح مارس 1955[20].

وقد ذهب هنري دسكو مبان (Henry Descombin)، في تحديد مفهوم المكتب الخامس، إلى القول: "إن المكتب الخامس للعمل النفسي، مؤسسة نوعية لحرب الجزائر..."[21]

إن السرعة الكبيرة التي كانت وراء إنشاء المكتب ،تعكس بجلاء عمق وتجذر الرغبة في إدامة الاحتلال واستغلال كافة الطرق والوسائل للحفاظ على "الجزائر الفرنسية". ولذا فإن المكتب الخامس شرع في العمل ابتداء من شهر جويلية 1955، وقد ضبطت مهمته ضبطا دقيقا، حيث تمثلت في التكوين والإعلام وكذا دعم وحدات الحفاظ على النظام العام، فضلا عن الاضطلاع بعمل سيكولوجي يستهدف الشعب من جهة، و"الخارجين عن القانون" من جهة ثانية[22].

ولتبيان أهداف وأبعاد العمل النفسي ،مضى الوزير المقيم، روبير لاكوست يقول في 2 جويلية 1956، أمام المجلس الوطني الفرنسي: "إن عمل التهدئة ليس عمل غزو عسكري مادي يكون بمنأى عن الأمن الذى يبحث عنه... إن العمل النفسي يتوخى جذب النفوس والقلوب وتحضير اتفاقات المستقبل. ذلك أننا نريد إنجاز جزائر جديدة، جزائر في الإطار الفرنسي..."[23].

إن القراءة التفكيكية الأولى ،لما ذهب إليه لاكوست، تجعلنا نقف على حقيقتين، أو مستويين رئيسين، ترتكز عليهما استراتيجية إدارة الاحتلال، حيث يتمثل الأول في أن العمل العسكري يتوخى تحقيق "التهدئة " لذا فهو يرتكز على إعادة تثبيت الأمن، وعليه فهو غير كاف، ولذا يجب أن يُكمل على الفور –وهو ما عكسته السرعة في إنشاء المكتب الخامس– بعمل بسيكولوجي، يمثل المستوى الثاني، حيث ينبني على إيجاد مناخ مناسب وأرضية ملائمة لتطبيق الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، والتي لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تحقق نتائج حقيقية وإيجابية تتماشى ومستوى المجهودات المبذولة والآمال المعقودة، إلا في ظل وجود شعب منحاز ومُوال لإدارة الاحتلال[24].

وجدير بالإشارة، أن المكتب الخامس توزع على الأقسام العسكرية الثلاثة، القسم العسكري لوهران، القسم العسكري لقسنطينة، والقسم العسكري للجزائر، حيث كان لكل قسم مكتبه الخاص به.

2/ **الفصائل الإدارية المتخصصة** (les sections administratives spécialisées)

في الحقيقة، ليست إنجازا جديدا، فهي وإن كانت مكملة للمكتب الخامس، فإنها امتداد للمكاتب العربية التي أسلفنا ذكرها، حيث أنها تختلف عنها فقط في مسألة الاختصاصات التي صارت أكثر توسعا من ذي قبل، فضلا عن الوسائل والإمكانات اللازمة التي وضعت في خدمة القائمين على إدارة وتسيير شؤون هذه الفصائل، رغبة في تحقيق الأهداف الملقاة على عاتقها، ذلك أنها ليست بالأمر اليسير.

وفى هذا الصدد أكد روبير لاكوست: "إن الفصائل الإدارية المتخصصة -S.A.S- التي أنشئت، هي استمرار لتقاليد المكاتب العربية..."[25]. وعلى هذا الأساس ورغبة في تحقيق الاستمرارية والذهاب إلى أبعد نطاق، في الاستفادة من ذوي الاختصاص والخبرة في شؤون المكاتب العربية، فقد عُهد بمناصب المسؤولية والقيادة، للاضطلاع بتسيير شؤون هذه الفصائل، إلى قدماء الشؤون الأهلية، بعد إجراء تكوين بحي تليملي بالعاصمة من شأنه أن يسهل أداء مهمتم. وقد ظهرت إلى الوجود بشكل رسمي وفعلي بالأوراس وقسنطينة ،سنة ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين، بموجب قرار مؤرخ في 25 سبتمبر 1955، ثم عمدت إدارة الاحتلال إلى تعميمها لتغطي كامل التراب الوطني، في محاولة منها مسّ كافة السكان، من حيث تأطيرهم ومراقبتهم، ليبلغ عددها السبعمائة.

وللإشارة، فإن رؤساء هذه الفصائل لم يكونوا كلهم من المجندين ،حيث أكد العقيد، هنري لومير HENRIE LE MIRE أنه من أصل سبعمائة رئيس، -صاص- في سنة ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين، كان عدد المجندين مائة وخمسين، فيما بلغ عدد الاحتياطيين أربعمائة وخمسين[26].

إن الفصائل الإدارية، هي هياكل إدارية مدنية وعسكرية، في آن واحد ،يقوم على إدارتها ضابط يشرف مباشرة على التنظيم والتوجيه والمتابعة المستمرة، فضلا عن أن كل –صاص- تضم حوالي ثلاثين حركيا يضطلعون بمهمة ضمان الأمن في حدود النطاق الإقليمي للفصائل الإدارية المتخصصة. وللإشارة، فإن للضابط المشرف على -الصاص- يساعده صف ضابط ،يعينه على أداء مهامه، فضلا عن ملحقين مدنيين، في اختصاصات متنوعة يتمثلون في الآتي :محاسب ،جهاز إرسال وممرضة، إلى جانب انتداب طبيب ،معلم ومدرب رياضي[27]. وعليه فإن التعداد المدني والعسكري لهذه الفصائل، يختلف حسب احتياجات السكان والامتداد

الإقليمي للفصائل الإدارية، التي يفوق نطاقها الإقليمي أحيانا نطاق الولاية. ذلك أن فصيلة إدارية ،يمكن أن تغطي نطاقا ريفيا يضم من 2000 ألفين إلى 20000 عشرين ألف ساكن، يتوزعون على القرى أو يعيشون في مراكز التجميع، التي سيق إليها المدنيون زمرا، وقد ضربت عليهم الحراسة من كل جانب، بل وعُززت على نحو شديد، تصعب معه محاولات الفرار، إن لم نقل أنها غدت مستحيلة، وطوقت بالأسلاك الشائكة. وللإشارة، فإن قرار ترحيل وتهجير المدنيين الجزائريين من قبل قوات الاحتلال ظلما وعدوانا، وتجميعهم في مراكز خاصة، أعدت لهذا الغرض. وقد ازداد تعسف وظلم إدارة الاحتلال الفرنسي للشعب الجزائري أكثر من ذي قبل ،بعد القرار الذي أتخذ سنة ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين ، والذي قضى بإعلان حالة الطوارئ[28]، لتمكين قوات العدو الفرنسي، من بسط وضمان فرض الحفاظ على استتباب الأمن ،من منظور إدارة الاحتلال، والذي لا يخرج بالضرورة عن مجال القضاء على الثورة. حيث شرع في تطبيق القرار التعسفي بالأوراس، الونشريس، ثم وسع تطبيقه وعُمم ليشمل ويغطي مجموع التراب الوطني. وقد أستغل الوضع في ظل هذا القرار، أبشع استغلال، لإنزال مختلف أشكال وصور العذاب على الشعب، حتى ينفض عن الثورة، على نحو يكرس القطيعة الجذرية بينه وبين الثورة ،التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنحو منحى التطور والنمو والامتداد، بمنأى عن الشعب الذي يُعد معطى أساسيا، بل واستراتيجيا في تغيير ميزان القوة، في الميدان.

لقد أولت الإدارة الاستعمارية، الفصائل الإدارية المتخصصة أهمية قصوى، وعلقت عليها آمالا كبيرة، وكيف لا يكون ذلك، وقد أ قنعت نفسها بأن الحل النهائي للمأزق العميق الذي حُشرت فيه إدارة الاحتلال إنما يتأتى من خلال هذه الفصائل. وقد عكس هذا التوجه، روبير لاكوست، في رسالة له مؤرخة في 28 مارس 1956، لهذه الفصائل حيث طفق في ضوئها، يشحذ العزائم وداعيا رؤساءها بقوله: "أريد أن أخطركم أني أعلق أهمية على نجاحكم في مهمتكم... إن فرنسا قررت أن تضرب من غير ضعف، المتهمين بالتمرد، بيد أنها تواصل قيادة الشعب الجزائري، باتجاه مستقبل أفضل، يوما بعد يوم... هذا وإن تهدئة الجزائر، هي هدف الحكومة..."[29].

وحتى تكون تلك الفصائل، قريبة من السكان، وصل الأمر ببعض الرؤساء حدّ تعلم اللغة العربية، حيث أضحوا يتكلمونها بسلاسة ويتصلون بالسكان، بيسر، دون الحاجة إلى مترجم.

وإلى جانب اللغة العربية، فقد كانوا يتكلمون سائر اللهجات المنتشرة عبر مختلف مناطق الجزائر[30]. ولهذا الغرض، كان الاحتكاك بالشعب مباشرا، يوميا ومستمرا، فضلا عن السعي الدائم قصد تمتينه وتطويره، إدراكا منهم للنتائج الإيجابية الكبيرة لهذا التعاطي الهادف والفاعل ،والذى لا يمكن أن يؤتي أكله بعد حين، إلا باعتماد الوسائل الترغيبية والإغرائية، الأشدّ وقعا وتأثيرا على النفس.

لقد ارتكزت مهمة رئيس –الصاص –،على ثلاثة أبعاد رئيسة ،فهو ممثل للإدارة المركزية، حيث أنه ينسق ويوجه النشاطات الإدارية المختلفة، ممثلة في الزراعة، الصحة، مدّ الجسور وشق وتعبيد الطرق، فضلا عن الإشراف على البريد، حسب احتياجات السكان ضمن نطاق اختصاصه. حيث أن الفصائل الإدارية خاضعة للاختصاص الإقليمي، كما أنه يدعم و يشير على القضاة المحليين، إلى جانب كونه مستشارا تقنيا. وعليه فإن العمل السيكولوجي لرئيس الفصائل الإدارية، يأخذ صورا وأشكالا عدة ،بيد أن الجزء الهام من نشاطه يُكرس لتعزيز المجال الاقتصادي والاجتماعي والسهر على مراقبة إنجاز الأشغال ذات النفع العام، نظرا لما تنطوي عليه من تأثير مباشر على الشعب، ذلك أنه يبصر عن كثب ،فعالية الأداء ومردودية العمل الذى يقوم به القائمون على الفصائل الإدارية.

وسائل الحرب النفسية:

لقد آلت إدارة الاحتلال الفرنسي على نفسها، الذهاب إلى أقصى نطاق، في سياق السعي المحموم من أجل كسب رهان الحرب النفسية، التي أضحت حديث الساعة وقتذاك نتيجة للأمل الكبير الذي عُلق عليها في إمكانية إحداث القفزة النوعية، في عملية ضرب الثورة ببعضها، من خلال الرغبة في الوصول إلى إحداث القطيعة الجذرية بين الشعب والثورة من جهة، والعمل على زعزعة صف الثورة من الداخل، على طريق إشعال فتيل التفجير الداخلي الذي شكل حلم السياسيين والعسكريين الفرنسيين، فضلا عن أعداء الثورة، من جهة أخرى. وفى ضوء ذلك، ورغبة في تجسيد أهداف وتحقيق مهمّة ضبا ط الفصائل الإدارية –صاص– على نحو أشمل، وبصورة أكمل، رصدت إمكانات مادية كبيرة، ما فتئت تنمو باضطراد، بالتوازي مع امتداد وتوسع الثورة. ولهذا، فإن وسائل وآليات الحرب النفسية، لم تكن على شكل واحد، طوال فترة الثورة، وإنما تنوعت وتعددت، تبعا لتنوع وتغير المعطيات التي تفرزها الثورة في الميدان، فضلا عن التجريب المستمر، لتبدو فعاليتها وتأثيرها على الشعب، أو على بعض عناصر

جيش التحرير الوطني، وهو ما يحفز القائمين على توجيه وإدارة الحرب النفسية على الإبقـــاء عليها وتطويرها، بالتوازي مع تطوير مردودها.

وقد ذكر العقيد الحاج لخضر، في سياق حديثه عن وسائل العدو الفرنسي المســـتخدمة في مجال التأثير على الثورة أن: "الإغراءات المادية، كانت كثيرة، منها: فتح المدارس القصديرية، بالأرياف والقرى وفى كل التحمعات السكانية، وذلك لاستقطاب أبناء المواطنين، ومساعدتهم بالوسائل التعليمية وتقديم الأدوات المدرسية والألبسة وتنظيم الرحلات لهم داخـــل الـــوطن وخارجه والذهاب بالبعض منهم إلى فرنسا، وتنشيط الحركة الرياضية، وذلك عـــن طريـــق تكوين فرق رياضية، خاصة في مجال كرة القدم، وكذلك فرق الأغاني، في كل أنحاء الـــوطن، وإغداق الأموال على الخونة الذين انضموا إليه..."[31].

وفى هذا الصدد، تجب الإشارة إلى أن وسائل أو أدوات الحرب النفسية، تمثلت بالأساس في الآتي:

I- مجموعات مكبرات الصوت والمنشورات (compagnies des hauts parleurs et tracts)

تعد هذه المجموعات، على جانب كبير من الأهمية، حيث ظهرت إلى الوجود خلال شهر جوان من سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، حيث بلغ عددها الثلاثة توزعت على الأقسام العسكرية الثلاثة (قسم وهران، قسم قسنطينة، وقسم الجزائر) وللإشارة، فإنها تابعة للمكتب الخامس. ورغبة في دفع أدائها وتعزيز حركتها وتوسيع تأثيرها، عززت هذه المجموعات مـــن طرف إدارة الاحتلال، بست ضباط، تسعة عشر صف ضابط، وستين جنديا مجنـــدا. كمـــا زودت بطائرة عمودية صوتية وطائرة مزودة بمكبر الصوت، لتسهيل عملية التغطية لمساحات كبيرة.

وقد توزع القائمون على إدارتها، على فصيلة قيادة، فصيلة للمعلومات، فصـــيلة للعمـــل واضطلعت بمهمة تنظيم جلسات العمل السيكولوجي، على اختلاف صور العملية، فضلا عن فصيلة اختصت بإعادة الإنتاج والنشر على نحو يمكن ويسهل على الإدارة الاستعمارية الفرنسية بسط نفوذها وإنجاز وتطبيق مشاريعها الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية. وعليه فقد ارتكزت مهمتها على العمل قصد بعث جو الثقة وسط الشعب بإدارة الاحتلال وكذا التعريف بـــإرادة فرنسا ورغبتها في الإصلاح والتغيير والتركيز على إنجازاتها الميدانية، أملا في التقريـــب بـــين

الشعبين الجزائري والفرنسي وإزالة الكثير من الحواجز التي قد تحول دون تحقيق ذلك. وقد اضطلعت هذه المجموعات بمجال الدعاية لأجل الترغيب في الاحتلال، من خلال تشويه فكرة الثورة، على المستوى الفكري، حتى تسهل عملية محاربتها في الميدان، الأمر الذي يفرز بالضرورة وفق تصورات الاحتلال إلى انفضاض الشعب عنها والزهد فيها.

وقد أخذت دعاية مجموعات مكبرات الصوت، ثلاثة أبعاد رئيسة، تمثلت في الداعية المنطوقة والتي يقوم بها فرنسيون أو جزائريون[32] يتم اختيار هم من بين أولئك الذين آلوا على أنفسهم محاربة الثورة والوقوف في طريقها، حجرة عثرة، باعتماد مختلف الوسائل والإمكانات، كما أن القائمين على هذه الدعاية يتوزعون بين العسكري والمدني، ويتم التركيز خلال العملية على إذاعة التصريحات وبث أنواع شتى من الموسيقى، إلى جانب الشعارات والأخبار المحلية الخاصة بكل منطقة على حدة، بغرض إطلاع الشعب وتقريبه من الواقع، في ظل المواجهات الدموية بين قوات الاحتلال ومجاهدي جيش التحرير، ودحض الدعاية الموازية لجبهة التحرير الوطني، سعيا للوصول إلى تعاون فعّال من طرف الشعب.

وقد لعبت هذه المجموعات، دورا كبيرا خلال معركة الجزائر، في سعيها الحثيث إلى إفشال الإضراب المدرسي، الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني، وحقق تجاوبا كبيرا والتفافا صادقا، عكس عمق الالتحام الشعبي مع الثورة، وهو ما قضّ مضاجع إدارة الاحتلال. حيث شرعت مجموعات مكبرات الصوت في العمل لتقويض الإضراب، ابتداء من الرابع فيفري سنة ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين، وقد بدا ذلك جليا في صورة التركيز على إذاعة الشعارات، وتوزيع المنشورات الداعية إلى مقاطعة الإضراب، وعلى سبيل المثال، المنشورات الآتية: "أيتها الأمهات، أرسلن أبناءكن إلى المدرسة"، ومنشورات تحمل صورة "اذهب إلى المدرسة"[33] وعلى غرار الدعاية المنطوقة، ركزت إدارة الاحتلال على الدعاية المرئية، بيد أنها لم تختلف كثيرا عن سالفتها، إلا في اللوحات والصور الدعائية، التي كانت تعرض في القاعات، أو في الهواء الطلق. كما اعتمدت الدعاية المباشرة والقريبة من الشعب حيث ما انفكوا يوزعون الحلوى على الأطفال، وكذا السجائر والملابس على أفراد الشعب[34].

2-الفرق الطبية الاجتماعية القريبة (les équipes médico-sociales itinérantes)

تم إنشاء هذه الفرق، سنة ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين، حيث ضمت طبيبا ومساعدة مسيحية، ومساعدتين مسلمتين، يعيشون وسط جنود الاحتلال. وقد ضبطت مهمة هذه

الفرق، ضبطا دقيقا، في إطار الحرب النفسية الشاملة، ضد الثورة، حيث تمثلت في التركيز على النساء المسلمات الجزائريات، من خلال ضبط اتجاه الرأي العام النسوي الجزائري، وإخطار إدارة الاحتلال[35] الفرنسي لاتخاذ ما يكون مناسبا من قرارات، قادرة على صياغة عقلية المرأة الجزائرية، صياغة جديدة، تأخذ بعين الاعتبار، معطى الاحتلال، وما يستلزمه من مرونة فكرية، تعتمد تجزئة وتفتيت فكرة الاحتلال، مع عرضها وفق منهج قائم على التغفيل، وصولا إلى التحبيب والترغيب، وأخرى عملية لإحداث التأثير المرجو.

والخليق بالإشارة هنا، أن مسألة الاهتمام بالمرأة الجزائرية لم تكن قطّ وليدة هذه المجموعات، وإنما تعود إلى سنوات خلت، بعد أن أدركوا موقع المرأة الجزائرية المسلمة من عملية التحرير، ودورها الرئيس في حركة التغيير.

3- **المساعدة الطبية المجانية** (Assistance médicale gratuite):

أنشئت هذه الفرق، في شهر جويلية سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وأنيطت بها مهمة تقديم وتوفير المساعدات الطبية اللازمة والضرورية للشعب، سواء تعلق الأمر بالعلاج أو المتابعة الطبية،فضلا عن تقديم الدواء لكل حالة مرضية، على حدة. وقد تحمل هذه المسؤولية، أطباء عسكريون، منهم حوالى خمسين طبيبا من اللفيف الأجنبي، حيث عمل الكل تحت مسؤولية رئيس –الصاص– ،وقد بلغت الاستشارات المجانية التي قدمت في هذا الشأن، تسعة عشر ألف (19000) سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين ،فيما بلغت سنة ألف وتسعمائة و تسعة وخمسين (1300.000)، مليون وثلاثمائة ألف استشارة[36].

وقد بدت أهميتها وتجلت قيمتها في إمكانية إحداث التأثير المرغوب، وبخاصة في الوسط النسوي الجزائري ،بفعل الاحتكاك الدائم و المباشر به، فضلا عن محاولات إظهار الاعتناء الكبير والاهتمام الكافي بالحاجيات والضروريات، ذات الارتباط الوثيق بالمرأة.

4- **الملحقات النسوية للشؤون الجزائرية** (Attachées féminines des affaires Algériennes)

ثمة قواسم مشتركة بين الملحقات النسوية وفرق المساعدة الطبية، ذلك أن مهمّة الملحقات تركزت بشكل أساس على التأطير والتربية وتقديم الإسعافات الأولية لذوي الحاجة، في الزمان والمكان المناسبين. ويندرج عمل الملحقات في سياق العمل المدني، وهو ما أكده القرار الصادر بتاريخ الثالث من شهر ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين، والذي قضى بتعزيز

وتعميق العمل المدني باعتباره أساسا وذا قدرة على التأثير والاستيعاب، حيث توخى القرار تحقيق تلك الأهداف، من خلال الملحقات النسوية التي أخضعت لمسؤولية ضابط الفصائل الإدارية المتخصصة [37].

5- فرق الحركى بين المقاربتين الأمنية والنفسية:

تنضوي عملية إنشاء فرق للحركى، ضمن سياق الحرب النفسية التي شُنت بهدف تطويق الثورة وخنقها، حتى لا يمتد نطاقها باتجاه أفق أكثر سعة، بشريا وجغرافيا. وليس هناك أنسب لتحقيق ذلك، سوى فرق الخونة التي لم تخل منطقة من مناطق الجزائر منها، مع تباين في المستوى الكمي.

لقد لجأت الإدارة الاستعمارية الفرنسية، إلى التفكير فور انطلاق الثورة وبداية تجذر وتوسع منحاها، في إنشاء فرق الحركى، لمواجهة توسع وامتداد الثورة. وقد ركزت عليها كثيرا نظرا للأهمية الكبيرة الملقاة على عاتق الحركى، من الناحية السيكولوجية ذلك أنه ليس أشد على النفس، من أن يحمل السلاح ضد الثورة، صنف من الجزائريين ويقاتلون إلى جانب العدو، جنبا إلى جنب، بعزيمة كبيرة ورغبة وحب لا نظير لهما. باعتبار أنهم أكثر معرفة من قوات الاحتلال، بعناصر جبهة التحرير، ومجاهدي جيش التحرير الوطني، فضلا عن معرفة جغرافية حركة ونشاط الثورة بشكل دقيق. وفى هذا الصدد، يجب تحديد وضبط مصطلح الحركى، نظرا للاختلاف القائم حوله، وبخاصة من طرف الفرنسيين، الذين ينظرون إليه من زاوية مغايرة تماما للزاوية التي ننظر من خلالها للحركى، لاعتبارات كثيرة ومتعددة.

إن لفظ الحركى، في المخيال الشعبي، أو بالأحرى، في الذاكرة الجماعية، يطلق على كل جزائري خائن، باع ذاته بعرض من الأعراض والتحق بصفوف قوات الاحتلال الفرنسي، تحت أي شكل من الأشكال وآثرها على الثورة، "وغدا مساعدا على كشف عورات المجاهدين والمناضلين وملاحقة الوطنين واضطهادهم أو قتلهم، كما كانوا يخرجون مع الجيش الاستعماري، في غاراته التي كان يشنها باستمرار على القرى والأرياف ..."[38] بيد أن اللفظ في الاستعمال الفرنسي، بصرف النظر عن طبيعته، فإنه يذهب إلى خلاف ذلك، من حيث اعتبارهم :"مليشيات مسلحة إضافية في الجيش الفرنسي خلال حرب الجزائر"[39] .

وذهب الجنرال سالان، في هذا الصدد إلى تقديم مفهوم للحركى انطلاقا من جانبها العضوي بقوله: "إن الحركى وحدة تضم مائة شخص، كلهم مسلمون، يتقاضون أجرا

ويخضعون لقانون رسمي، كما أنه لهم الحق في حالة حدوث إصابات، في الإسعافات الاستعجالية وكذا في المنح المدنية المخصصة لضحايا الإرهاب. إن وحدة الحركى مرتبطة إجباريا بوحدة نظامية،حيث أنه يجب أن تكافح معها"[40].

وقد كان أول ظهور لفرق الحركى، بالأوراس، وبناء على ما ذهب، إليه بيير مونتانيون (Pierre Montagnon) فإن عدد الحركى، بلغ إلى غاية I جويلية 1955، 176 حركي بأريس، 200 حركي، بدوار أشمول، و70 حركيا بكيمل، فيما بلغ عدد عناصر وحدات الدفاع الذاتي 170 بأشمول، 30 بوادى تاكة، 40 بكيمل[41]. بغرض توفير الحماية اللازمة للقرى والمداشر، ومراكز التجميع، التي أنشئت قصد عزل الشعب عن المجاهدين. ومع مرور سنوات الثورة واتساع نطاقها وتنوع جبهاتها وازدياد رقعة مساندیها من مختلف الدول ،وبخاصة بعد تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة.

وفى ظل هذا الامتداد، كان لزاما على إدارة الاحتلال أن توسع مجال انضمام الحركى، بالنظر إلى النتائج التي ما فتئوا يحققونها في الميدان، مما حدا بالجنرال سالان SALAN إلى الثناء عليهم ،تقديرا وتثمينا لدورهم الخياني ،المؤدى بكل تفان وإخلاص يبدو أنه لم يكن ينتظره ولا يتوقعه، بقوله: "إن الحركى هم أول من يدخل عند القيام بمراقبة أي دوّار، كما أنهم يسهلون الاتصال مع الشعب. أما في المعارك، فإنهم يظهرون شجاعة كبيرة. وعليه فإن استخدامهم كان إيجابيا بشكل كبير..."[42].

وعلى السبيل ذاته ،سار الجنرال شال، الذي اعتمد أساسا في مخططه العسكري على العمليات العسكرية الكبرى والذي شكل البعد الأهم في الاستراتيجية الديغولية، التي عولت عليه كثيرا وهو ما حدا بديغول إلى توفير كافة الإمكانات المادية، البشرية والعسكرية للجنرال شال، حيث ازداد ديغول ثقة وارتياحا، بل واطمئنانا غير مسبوق في إمكانية الحسم العسكري والقضاء على الثورة، بعد تأكيدات وتطمينات شال، الذي لم يكتف بالعمليات العسكرية فحسب، بل ركز إلى حد كبير على فرق الحركى، حيث أنه اشترط شرطا أساسيا فور شروعه في القيام بالبرنامج العسكري، تمثل في وجوب مضاعفة عدد الحركى الذي انتقل من 28 ألف إلى 60 ألف ،نهاية سنة 1959.

وفي هذا السياق، ذهب ميشال رو Michel roux، إلى القول أن عدد الحركى بلغ سنة 1960، مائة وثمانية وخمسين ألف، 158000[43] (42) فيما ذهب محمد حربي إلى القول

بخلاف ذلك تماما، حيث أكد أن عددهم بلغ مائة وستين ألف (160000)[44]. وقد عملت إدارة الاحتلال، منذ البداية على استغلال وتوظيف هذه الفرق في المواجهات الدموية مع مجاهدي جيش التحرير، من حيث مراقبة وتتبع أثر كل من بدا عليه أنه ذو علاقة بصرف النظر عن طبيعتها، مدنية أو عسكرية مع جبهة أو جيش التحرير وإخبار قوات الاحتلال فور الحصول على المعلومة، لاستغلالها في الوقت والمكان المناسبين ،فضلا عن استخدام الحركى في عمليات التمشيط لمختلف القرى والمداشر، بل وحتى الجبال لمعرفتهم الجيدة بالطرق والمسالك، ما سهُل منها وما صعُب وما قصُر منها وما بعُد وكذا إشراكهم في المعارك و الكمائن، ليلا ونهارا، لقدرتهم على الصبر والتكيف مع مختلف الأوضاع والظروف، من غير إغفال لدورهم في تسهيل الترجمة لقوات الاحتلال، بل والمشاركة أيضا في عمليات الاستنطاق والتعذيب، وهو ما تفننوا فيه كثيرا وأبدعوا،دون أن تأخذهم بالمجاهدين رأفة. لقد كانوا مع بني جلدتهم غلاظا شدادا، و لم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمّة.

والخليق بالإشارة، أن إدارة الاحتلال الفرنسي عندما أبصرت عمق إخلاص الحركى لها، ومستوى ولائهم لفرنسا، مقابل شدّة بأسهم على الثورة والمجاهدين، بل والشعب أيضا ذلك أنه لم يسلم هو الآخر من سبهم واحتقارهم وهمزهم ولمزهم، قصد التأثير على معنوياته وزعزعة قناعته بشرعية وعدالة وصدق الثورة. ولعل ما يعكس ويعزز هذه الحقيقة، ما ذهب إليه كبير الخونة، في الجزائر، بوعلام بشاغا الذي طفق يلقي باللائمة على سلطات الاحتلال الفرنسي، بسبب تأخرها في طرح فكرة إنشاء فرق الحركى. حيث عبّر عن ذلك بقوله قوله: "... حيث مرت السنوات 1954، 1955، و1956، غير أنه لم يُوجه إلينا النداء. ذلك أنه لو وجه النداء منذ الساعات الأولى للمسلمين لقامت جميع القرى بتعيين مسؤولين عنها للقيام بالاتصال مع الجيش الفرنسي وتقديم معلومات دقيقة وصحيحة عن التجمعات التي تعقد وهو ما يجعل عمل الجيش فاعلا وسريعا..."[45].

هنالك فتحت الأبواب على مصراعيها أمام الحركى، أكثر من ذي قبل، ولا أدلّ على ذلك، من أن عددهم ارتفع بشكل مذهل ،خلال تولي الجنرال شال، قيادة القوات المسلحة إدراكا منه للدور الكبير الذي من الممكن أن يلعبوه في إنجاح الشق العسكري للبرنامج الديغولي، الساعي إلى تطويق وخنق الثورة.

وعلى غرار الحركى، أنشأت إدارة الاحتلال مجموعات الدفاع الذاتي (groupes d'auto défense) حيث تم تزويد أفرادها ببنادق صيد ،قصد الاضطلاع بمهمة الدفاع عن القـــرى، حال مهاجمتها من طرف مجاهدي جيش التحرير الوطني، وقد بلغ عددها ستين ألف، فيما بلغ عدد المجموعات المتنقلة لحماية الريف، (groupes mobiles de la protection rurale) عشرة آلاف،فضلا عن القومية** (Goumiers)[46].

– الهوامش:

(1)–كانت المغامرة الفرنسية في الهند الصينية فاشلة على جميع المستويات،و قد أُخذت قوات الاحتلال الفرنسي على حين غرّة ،حيث استطاعت الوحدات المقاتلة الفيتنامية أن تلحق خسائر كبيرة في الأرواح و العتاد، لم تخطر ببال قادة الاحتلال الفرنسي التي اغترت بالتفوق العددي و اللوجستي، غير أن الإرادة في الانتصار و الرغبة في التحرر من نير الاستعمار و كذا معرفة الجغرافية الطبيعية و البشرية،فضلا عن التحكم في معطيات الواقع لصالح المقاومة الفيتنامية، مكنها من تحقيق نقلة نوعية، من حيث تغيير الموازين لصالحها.ما جعل قادة الاحتلال الفرنسي يُدفعون إلى الانسحاب من الفيتنام رهبة و ترهقهم ذلة مما اقترفت أيديهم من جرائم و فظاعات في صفوف المدنيين الذين التفوا حول المقاومة التفافا كبيرا،أغاض قادة و مسؤولي الاحتلال الفرنسي.

(2)– في البداية ،كانوا خمسة ،وهم السادة: مصلطفى بن بو العيد ،محمد بوضياف،رابح بيطاط، محمد العربي بن مهيدي ،مراد ديدوش حيث تشكلت اللجنة ،خلال اجتماع المدنية ،المشهور تاريخيا ،باجتماع الـــ22 ،بيد أن عدد الحضور ،كان 21 ،نظرا لتغيب العضو الثاني و العشرين ،وهو عبد القادر خليفي .وبعد انضمام السيد كريم بلقاسم ،عن منطقة القبائل ،خلال شهر أوت 1954،صارت اللجنة ،تضم ستة عناصر .وهي التي تولت مسؤولية تفجير الثورة .

(3)– للوقوف على المواقع التي مستها عمليات الثورة ،أنظر:

La Dépêche quotidienne d'Algérie ,n° du 02 novembre 1954,p1.
L'Echo d'Alger ,n° du 02 novembre 1954,p1.
L'Echo d'Oran n° du 02 novembre 1954,p1.

وعلى غرار ذلك،أنظر،كذلك بيان الحاكم العام روجي ليونير ،الذي أشار فيه إلى مواقع العمليات ،وعدد خسائر جيش الاحتلال، على الرغم من أنه لم يكن أكثر دقة، قياسا بما أوردته الصحافة الفرنسية ،حول تلك المسألة .ولعله توخى تهوين أمر العمليات العسكرية الثورية ،فوقع من حيث لا يحتسب ،في مغالطات كمية ونوعية ،وهو ما جعل مصداقية السلطة السياسية الحاكمة في الجزائر ،ممثلة في الحاكم العام ،تهتز ،وتغدو مطعونا فيها .

(4)- Jacques Simon ,**Novembre 1954 la révolution commence e Algérie** ,éditions l'Harmathan ,Paris ,2004,p189.

(5)–لقد توزع الـــــ85000 عسكري ،على النحو التالي :سبعة عشر ألفا وجهوا لقيادة الأركان،ومصالحها،سبعة وعشرون ألفا كلفوا بضمان الحراسة والمراقبة ،فيما وجه أربعة عشر ألف لمكافحة

مجاهدي جيش التحرير : أنظر: SHAT,**introduction à l'étude des archives de la guerre d'Algrie** ,Paris ,château de Vincenne ,1992,p34.

(6)- Pierre Montagnon ,**La guerre d'Algérie genese et engrenage dans la tragédie** ,éditions Gérard waletpygmation ,Paris,1984,p184.

(7)-لقد كان امتداد، وتطور الثورة الجزائرية ،محل اهتمام كبير ، ومتابعة مستمرة ودقيقة ،من طرف قادة الاحتلال الفرنسي ،رغبة منهم ،في إ يجاد البدائل الكفيلة ،بالقضاء على الثورة ،على نحو شامل وكامل ،وبأقصر الطرق .وقد تنوعت وتعددت في هذا الصدد، التقارير العسكرية الفرنسية ،التي أماطت اللثام ،عن حقيقة عدم جدوى وفاعلية ،الإستراتجية التي ارتكزت عليها إدارة على الاحتلال ،والتي لم تتعدى نطاق الحشد العسكري ،والقمع الجماعي ،فضلا عن إرهاب الدولة ،الخارق لقواعد و أحكام القانون الدولي الإنساني .وفي هذا السياق ،نورد ،تقريرا عسكريا آخر ،يدعم تقرير الجنرال بارلانج ، للجنرال ،نواري " Noiret "يكشف عمق وثـــقـــل الثورة،وكذا درجة ومستوى تأثيرها ،محليا و إقليميا ،وهو ما ألجأ القادة الغـــزاة ،إلى دق ،ناقوس الخطر . حيث ،ذكر ،ما نصه : "إن التمرد ،قد د خل مرحلة جديدة ،حيث اتسع نشاطه و أضحى يغطي مجموع البلاد –الجزائر – وأن قوات وحدات المسلمين الفرنسيين قد فقدت قيمتها ، وأن معنويات الجيش قد انخفضت بشكل محسوس ... بيد أن هناك تطورا وحيدا ،سجل في**الميدان**،تمثل في الدعم الجوي ،الذي توفره ،الطائرات الاستكشافية ،وكذا العمودية ...." للاستزادة ،حول مسألة تطور وامتداد الثورة الجزائرية ،أنظر :

- جمال قندل ،**خطا موريس وشال على الحدود الجزائرية التونسية والمغربية وتأثيراتهما على الثورة الجزائرية**،دار الضياء، الجزائر ،2006،ص 14 -15.

(8)- SHAT , 1H1375 ,rapport Parllange ,op.cit.

(9)- Pierre Montagnon ,op.cit,p 161.

(10)- Ibid .

(11)- 1H1117 ,dossier n°1 Bilan de désertion.

(12)- Jean Garniage ,**Histoire contemporaine du Maghreb de 1830à nos jours ,**éditions Fayard,France ,1994,p 890.

(13)- Annie Rey **:la frontière Algéro-Tunisienne pendant la guerred'Algérie dans les archives militaires de Vincenne**(travail de recherche d'actylographié ,sans date) ,p14 .

14عبد الحفيظ مقدم ،"**الحرب النفسية والإستعمار الفرنسي للجزائر**" ،مجلة الدراسات التاريخية ،جامعة الجزائر ،العدد العاشر ،1997 ،ص 145 .

15نفسه ،ص 147.

(16)-Gregor Mathias,**les sections administratives spécialisées en Algerie entre idéal et réalité (1955-1962)** ,l'harmattan ,France ,1998,pp,14,16.

(17)- Ibid.

18-دحو ولد قابلية "إتفاقياتإيفيان الاتصالات، المحادثات و المفاوضات إبان ثورة التحرير الوطني (1954-1962)

(19)- Le Monde n°44223,du 02.08.1958.

(20)- SHAT ,**introduction à l'étude des archives de la guerre d'Algérie**, château de Vincenne ,Paris ,1994,p,195.
(21)- HenrieDescombin ,**guerre d'Algerie 1955-1960** ,le cinquième bureau l'harmattan , France ,1994 ,p,28..
(22)- SHAT ,op ,cit,p,198.
(23)-Ibid,p197.
(24)- Ibid.
(25)-Gregor Mathias ,op.cit,p21.
(26)- HenrieLemire ,**Histoire militaire de La guerre d'Algérie** ,Albin Michel ,Paris 1982,p 129.
(27)- Ibid,p133.
(28)- Mahfoud Kaddache,**et L'Algerie se libbéra** ,Paris méditerranée , ,Edif200, Alger, 2003 ,p31.

إن قانون الثالث أفريل لسنة 1955 ،المنشى لحالة الطوارئ،التي شرع في تطبيقها ،ميدانيا ،ارتكزت على ثلاثة أسس:حيث تمثل الأول ،في منع تنقل الأشخاص أو السيارات ،في الأماكن و الأوقات المحددة.بموجب قرار من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي .فيما تمثل الثاني في ،إنشاء مناطق حماية و مؤمنة ،بموجب قرار كذلك ،حيث حركة أفراد الشعب الجزائر ي،فيها مقننة و مضبوطة .أما الأساس الثالث ،فقد تمثل ،في منع تنقل الأشخاص ،في كل ،أو بعض المناطق .وقد استند هذا القرار التعسفي ،الجائر ،إلى المادة 14 من القانون الصادر ،في 11 جويلية سنة 1938 ،والمتعلق ،بتنظيم أحوال وشؤون الأمة ،في حالة الحرب .وعلى هذا الأساس ،تقدمت الحكومة الفرنسية ،في ظل امتداد الثورة ،وتوسع مجال الإقبال الشعبي ،عليها ،بمشروع قانون ،أمام الجمعية الوطنية الفرنسية .للاستزادة ،أنظر :

Denis et Robert Barrat**, Algérie 1956 livre blanc sur la répression** ,édition Barzakh ,Alger ,2001 ,p 17,19.
(29)- HenrieLemire ,opcit ,p 130
(30)- Ibid,p 31.
(31)-الطاهر حليس ،**قبسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى** ،شركة الشهاب ،الجزائر (بدون تاريخ)،ص 165
(32)- SHAT,**introduction**…,op cit ,p 205.
- BussiereMichel ,**radio et télévision au temps des évènements d'Algérie1954-1962,**,édition'harmathan Paris ,1999,p 408.

(33)- SHAT ,introduction…op.cit,p206.
(34)- Ibid.
(35)-SHAT 1H2461 ,dossier n°01 « centres sociaux E.M.S.I » .
(36)-SHAT ,introduction…op cit.p 219.
(37)- Ibid**.**
(38)عبد المالك مرتاض ،**د ليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية 1954–1962** ،منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2001 ،ص 43 .
(39)- Universalise version 10.
- Encarta

(40)- Raoul Salan ,**mémoire fin d'un empire** ,presse de la cité ,Paris ,1971,p79.

(41)- Pierre Montagnon ,**la guerre d'Algérie Genèse et engrenage d'une tragédie** ,éditions pyramalion/Gérard watelet ,Paris ,1984,p154.

(43)-Raoul Salan ,opcit ,p80.

قندل (جمال)،"الحركى خلال ثورة التحرير بين الطموحات العاجلة و الأهداف الإستراتيجية الآجلة "،النبأ ،عدد 295،الثلاثاء من 2إلى 10 مارس 1998،ص 12.

(43)- Michel Roux ,**les harkis les oubliés de l'histoire 1954-1991 ,p 140.**

(44)-Mohamed Harbi ,**les archives de la révolution Algerienne**,France ,édition ,jeune Afrique ,1980,p 208.

(45)- Bachagha Boualem,**Oh mon pays la France**,(Paris1973) EL 8.Z.15 ,p 44.

(46)- Jean Jacques Jordi ,MohamedHamoumou, **les harkis une mémoire enfuie** ,édition autrement ,Paris 1999 ,pp 23.24.

القومية هي مصطلح يطلق على فرق أو مجموعات، أنشأها الاحتلال الفرنسي خلال ثورة التحرير، على غرار فرق الحركى و الدفاع الذاتي، لمحاربة مجاهدي جيش التحرير الوطني،و تتبع أثر مناضلي جبهة التحرير و العمل على رصد حركة كل من يشتبه في تعاونه مع الثورة .و يذهب عاشور شرفي إلى القول:" أن لفظة القومية أصبحت مرادفة للحركيين خلال حرب التحرير الوطني ". أنظر: عاشور شرفي،قاموس الثورة الجزائرية (1954–1962)**،ترجمة عالم مختار،دار القصبة للنشر،الجزائر،2007،ص 278.